من
القصص
العالمى
٤

موعد مع الشدائد

أو

"الممر الشمالى الغربي"

تأليف: كنيث روبرتس

ترجمة: أمينة السعيد

موعد مع الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

الجزء الثاني

نشر هـذا الكتـاب بالاشـتراك

مـع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة – نيويورك



موعد مع الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

تأليف

كنيث روبرتس

ترجمة

أمينة السعيد

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٥٩

الفصل الحادي والثلاثون

كنا أشبه برتل من المتسولين ، ونحن نغادر أطلال مدينة سانت فرانسس ، وليس ما يوحد بيننا سوى مظاهر الفاقة الشديدة ، والفقر المدقع : ملابس مهلهلة ، بعضها يتألف مما تبقى من أرديتنا القديمة ، وبعضها الآخر من شتات ما أنقذناه من المدينة التي لم تخبُ نيرانها بعد . . . حقائبنا الرثة منتفخة بالأطعمة والأسلاب ، وقلانسنا الخضراء المهشمة تقبع فوق رءوسنا ملتصقة بشعورنا الملبدة بالقذارة ؛ أما سيقاننا فلم يكن يسترها سوى « قلاشين » صنعت من جلود ممزقة ، أو نسائل من نسيج يشمئز منه أفقر المساكين وأقذرهم .

وارتفعت شمس الخريف باهتة وراء سحب الدخان ، وأرسلت ضوءها الواهن على مجموعة من جثث الهنود تناثرت على مقربة مني ، وقد تشابكت أشلاؤها ، واختلط بعضها ببعض ، فصارت أشبه ببقايا رجال كانوا يهمون بالسير ، ولكن الموت داهمهم فجأة ، فخروا على الأرض صرعى . وكان بعض الوجوه السُمر متجها نحوي كأنه يرقب مسيرنا بعيونه الجاحظة ، فلم أقو على منع نفسي من مبادلة الرأقد .. تحديقا بتحديق .

٢

واعترضت سيرى كومة أخرى من الجثث البشرية ، فاضطررت أن أحيد عن طريقى ، لأتجنب الخوض فيها . . . وتوالت أشلاء الجنود ، حتى خيل إلىّ ألاّ نهاية لها . . . ألوف وألوف من الضحايا الذين تلوثت يداى بدمائهم .

وتقلصت أحشائى لهول ما أرى ، كما تقلصت أحشاء كثيرين من زملائى .

كان هناك قتيلان يرقدان فى وضع متعامد ، وبرزت ساعد أحدهما منتصبة فى الهواء وقد أطبقت قبضتها ، كأنها تتهددنا بالويل والثبور . . . فأسرع كروفتون بالخروج من الصف ، وانحنى على الرسغ يثنيها فى وضع يليق بجلال الموت ، ولكن الساعد أبت أن تطاوعه ، وظلت على انتصابها معاندة ، فأسرع صاحبنا بالعودة إلى مكانه ، وعلى وجهه مسحة من الخجل الممتزج بالتحدى .

وغلبنى نعاس ثقيل ، وبدأت أتثاءب وأتثاءب بلا انقطاع ، كأنى لم أذق طعم الراحة منذ سنوات ، ولو أعطيت الفرصة لنمت عاما بأكمله . . . وخيل إلىّ أن هذا اليوم وحده أطول من أسبوع كامل ، وأنى أرزح تحت كابوس مروع ، وأن ما أراه من خرائب سانت فرانسس ودمارها ، وما اشتركت فيـــه من تقتيل وتعذيب ، ما هو إلا جزء من ذلك الحلم المخيف .

وكان عسيراً عليّ أن أذكر كم مضى من الوقت منذ استولى الغضب على ماكنوت ، وهو يشرح لى ولهنك كيف لعب بنا هنود سانت فرانسس أقذر الألاعيب مرة بعد مرة ، ولا متى قال : وسوف تكون نهاية سانت فرانسس على أيدينا .

وظهرت الحقيقة أمام عينيّ لأول مرة ، فعرفت أننى لم أفهم معنى لتلك الكلمات فى حينها . . . سمعتها ونسيتها كأى طفل غرير ، ولو كنت استعنت بعقلى على تقصّى مدلولها ، لأدركت أنها تعنى الجوع والبرد والعناء الأزلى . . . ثم الخراب والعذاب والموت . ولعلها كانت تعنى أيضاً احتمال موت من يدعى لانجدون تاون .

ونحوت باللوم على هارڤارد لأنها لم تعلمنى أساليب التفكير الصحيح ، وتذكرت يوم قال لى روچرز : سوف أعلمك ما لم تعلمه فى الجامعة .

ووصلنا فى سيرنا إلى نهاية الفضاء المحيط بالمدينة ، وكنا نسير على أرض صلبة تتعانق فوقها فروع الأشجار بأوراقها الصفراء والحمراء . ونظرت خلفى إلى ما بقى من سانت فرانسس ، فرأيت صف الرجال يمتد طويلا كثعبان مبقع بالبنّى والأخضر . . . ثعبان ينساب إلى الغابة ، ليحتمى بربوعها ويختفى فى ظلالها . . . لم يكن هناك مظهر واحد

للحياة أمام هذا الصف من الرجال أو وراءه ، أو على يمينه أو يساره . . . حتى الغربان والطيور اختفت ، ولم يبق لها في السماء أثر . . . لم يكن هناك سوى النيران المتأججة ، وبينها جثث الأموات ترقد في صفوف متتالية .

وكانت أرض الممر الممتد على الجانب المرتفع من شاطئ النهر ، قد عبدتها أقدام أجيال بعد أجيال من الهنود ، وكنا نخب السير تحت أشعة الخريف الذهبية البراقة ، فأحسست فجأة بحب شديد لهؤلاء الذين أسير معهم من الرجال المرهقين المكدودين : شعرت بحبي لروچرز ، وهو يستحث الخطى في سهولة ويسر على رأس الصف ، فلا ترى منه سوى عنقه الغليظ الرابض فوق كتفيه القويتين . . . وشعرت بحبي لأوجدن الذي هدته جراحه البليغة ، فسار خلف روچرز مستندا إلى هنديين صبيين ، لا يستر جسدهما سوى غطاء صغير . . . وللجاويش برادلي وهو يتقدمنا بجد ، وبين آن وآن يلقي علينا نظراته الحادة الفاحصة . . . . ولجيس بتشام ، صاحب اللحية البيضاء ، الذي يسير ورائي مترنحا ... ثم پومپ هوييل الزنجي ، الذي يبتسم بلا سبب ... وكروفتون وهو يفحص رفاقه بحذر ... هؤلاء الرجال الذين ظللت أراهم طوال الرحلة مجرد أشباح باهتة مختلطة ، ظهروا الآن على حقيقتهم ، وشعرت أنني أصبحت أعرفهم وثيقا . . .

ليس فقط فارنجتون ودانبار والضابط الهندى چاكوبز ... ولاكورجـــل وجرانت وتبرنر وأيڤرى وقواد الفصائل الآخرين ، بل غيرهم أيضاً من الرجال الذين يسيرون خلفهم ، ولن أنسى ما حييت واحداً من هؤلاء الذين عبرت وإياهم فضاء مدينة سانت فرانسس .

لقد نجونا بفضل سرعتهم الفائقة وحزمهم العظيم ، ولولا شجاعتهم الفذة ، ومهارتهم فى إصابة الهدف برصاصهم ؛ ما خرجنا من المعركة سالمين ، وما تأتى لى أن أعود حيّاً . وإذا كان هناك سبيل واحد يوصلنا إلى أوطاننا ، فلست أشك فى أنهم لابد سالكوه ... إنهم خير المقاتلين كلهم ، ولن يستطيع رجال غيرهم أن يفعلوا مثل ما يفعلون ولا فى وسع قادة غير قادتهم أن يحرزوا هذا النصر العظيم ... كنت مؤمناً بهم ، لذلك أحببتهم ، وشعرت بينهم بالأمن والطمأنينة .

وكان المسير فى هذا الطريق الممهد ، رغم صعوده المطرد ، يعتبر عبث أطفال قياساً بما لقيناه فى رحلتنا المريعة ، وما عانيناه من الشدائد ، ونحن نسير فى المستنقعات تسعة أيام كاملة .

وبالرغم من نشاط النساء وجدهن فى ملاحقة الصف ، كان روچرز يقبل عليهن بين آن وآخر ، ليحفز عزائمهن ،

ويقول محذراً : من تتخلف عن الصف ، نتركها وشأنها ، ليكون الدمار نصيبها . كلنا يعرف أنهم لن يرحموا إنسانا سار فى ركاب هذه الحملة ، وإذا قبضوا عليكن ، فسيسلخون رءوسكن ، ويكوون جماجمكن بالنار .

ثم يلتفت إلى الرجال بأوامره ويقول : كلما سرنا ساعة ، نقف خمس دقائق للراحة ، ولكم فى هذه الفترة أن تفعلوا ما تشاءون ولكن بسرعة ؛ وإياكم أن تتوانوا ، فما زلنا بعيدين عن منطقة السلام .

وينفجر ضاحكاً بصوت كقصف الرعد .

وسارت النساء مجدات وراء الصف ، وركضت الفتيات الهنديات كأنهن كلاب هاربة . وكانت النساء البيض قد تعلمن فى الأسر طريقة الهنود فى المشى : يغرزن أصابع أرجلهن العارية فى الأرض ، ويهززن أردافهن كأنها زكائب مليئة بالبطاطس ، فيتقدمن دون أن يتعثرن . وإذا تصادف أن توانت إحداهن ، زجر فيها أحد هنود ستوكبريدج ، وشهر بلطته فى وجهها ، فتسرع السير مع رفيقاتها الخمس ليلحقن بالصف ، كأنهن سرب من القطا الفزع : كانت هناك المرأة الألمانية وسارة هدن القذرة ، التى تأكل العظم مع الكلاب ، ومسز كويت العليلة ، وابنتها جينى ذات الشعر

الأصفر ؛ ثم تلك المرأة المتوسطة العمر التى تمقت چينى كالسم ؛ وأخيراً الفتيات الهنديات الثلاث يتبعن مسز هدن ومسز كويت والسيدة الألمانية ، ويسرن فى أعقابهن كالظلال .

كانت المرأة المتوسطة العمر ، وتدعى مسز ويك ، مخبولة لا تعرف أين كانت تعيش قبل أن يأسرها الهنود ، وإذا سئلت عن اسمها تغير فيه وتبدل ، فمرة تقول إنها تدعى ديبورا ، وأخرى تؤكد أنها أبيجل .

أما چينى كويت ، ذات الشعر الأصفر ، فلم يكن يعنيها من الأمر كله سوى الرجال ... كانت تريد لنفسها رجلا ، أى رجل ، بصرف النظر عن شخصيته وشكله ، ولا بأس ان جاء زنجيا أو هنديا أو أبيض ، فجميعهم فى حكمها سواء ، لا فارق بين چيس بتشام أو روچرز ، فكلاهما رجل ، وذلك بيت القصيد ... فلما رأيت من چيس عطفا عليها ، شعرت بالقلق ، وخفت أن تهزمه بإغرائها ، ولكن الاطمئنان لم يلبث أن عاودنى حين سمعته يقول لها إنها تذكره بكلبة صيد عزيزة على نفسه ... كلبة بيضاء اللون صفراء العينين ، كان فى يوم من الأيام يقتنيها ، ويحبوها بعطفه ، ولكنها كانت مولعة بالهرب من بيته ، ولا تدع فرصة إلى الانطلاق إلا تنتهزها .... وكان ذكاؤها أقل كثيرا من براعتها فى

الهرب ، فلما رأت ذات يوم دبًّا كبيرا ، عنّ لها أن تتمسح به مغازلة ، فجاءت نهايتها على مخالبه وأنيابه .

ولفرط حرص روچرز على الابتعاد بناعن منطقة الخطر ، مضى يستحثنا على السير دون هوادة ، حتى أحسست أن رجلىّ تحولتا إلى كتلة من الجروح والقروح والآلام .

وقطعنا سبعة عشر ميلا خلال أول يوم تركنا فيه سانت فرانسس ، فقد ظللنا نسير ونسير ، حتى وصلنا إلى المكان الضيق الذى عبرنا منه النهر ذلك العبور العجيب ، ونحن مقبلون على المدينة الملعونة . وكان ذلك المكان على بعد خمسة عشر ميلا ، ولكننا لم نعبر النهر كما سبق أن فعلنا ، ولم نتلكأ رغم ما نعانيه من إنهاك شديد ؛ فقد أمرنا روچرز بالسير ميلين آخرين ،ولم يرض أن نتوقف قبل ذلك. وكانت خطتنا أن نستمر فى السير على الجانب الشمالى من النهر ، خشية أن يكون الفرنسيون ، الذين يتبعوننا من مسيسيكوا ، مقبلين من الشاطئ الجنوبى .

ولما حططنا الرحال لنعسكر ، خيل إلىّ أننى استنفدت قوتى إلى آخر ذرة منها ، واختلطت الأمور فى ذهنى ، وتعذر علىّ أن أتصور المسافة التى قطعناها ؛ أما كيف تيسر لليوزباشى أوچدن أن يمشى ويتحرك طول هذه المدة ،

وفى جسده رصاصة ما زالت كامنة فى ثقبها ، فقد كانت معجزة لم أستطع تفسيرها . كنت إذ ذاك فتى ساذجا ، لا أفهم النفس البشرية ، ولا أقدّر مدى احتمالها ، أما الآن فقد علمتنى تجارب الحياة أن قوة احتمال الإنسان لا تقف عند حد ، ما دامت لديه الإرادة الكافية .

وما ان أمرنا روجرز بالتوقف ، حتّى تدثرنا بأغطيتنا استعدادا للنوم ، وكان التعب قد غلبنى فعجزت عن خلع حذائى ، وهجرتنى شهوتى ، فلم أشعر برغبة فى الأكل ، أو قدرة على استساغة طعمه . وبينما جلس الرجال يجرشون وجبة عشائهم المكونة من حفنة من حبوب الذرة الجافة ، قنعت بالرقاد على الأرض على حال يرثى لها . . . ومع ذلك لم يغمض لى جفن ؛ إذ كان الألم يكاد يعيى ذراعىّ ، وركبتاى وفخذاى ترتجف خورا ونصبا ، وجفناى المقرّحان لا يطيقان الحركة ، ومخى يهدد بالانفجار فى جمجمتى . وأمام عينىّ المتعبتين مرت صور سريعة خاطفة : قارب ينقلب بامرأة وطفلها ، فتسرع مياه النهر الباردة بابتلاعهما . . . أطفال يقفزون فزعاً فوق أجسام غارقة فى الدماء . . . هندى أحمر يطل من باب الكوخ ، وسرعان ما يتحول وجهه إلى كتلة دامية لا ملامح لها . . . صفوف وصفوف من الجثث ، التى تحملق فى الفضاء الأبدى بعيونها المفتوحة . وتوالت الصور

أمامى مسرعة ، واختفت الواحدة بعد الأخرى ، ولم يبق سوى تلك العيون . . . كانت تبتعد أحيانا حتى تتحول إلى نقط تضىء فى الظلام ؛ وأحياناً أخرى تقترب وتتسع ، حتى تصير كصحاف الطعام البيضاء اللامعة . . . مرة تتكاثر حتى يخيل إلىّ أننى أسبح فى بحر خضم منها ، ثم لا تلبث أن تنتظم فى صفوف لا ترى العين آخرها .

ويئست من أن يشملنى النوم براحته ورحمته ، وانطبق صدرى وتصورت أنى أختنق ؛ وعندما تكاثرت تلك العيون العمياء ، ثم اندمجت فى عين واحدة هائلة ، تحملق فىّ ، وتسلط علىّ أشعة نافذة ، تخزنى كالسهام ؛ أحسست ثقلا هائلا يجثم على صدرى ويخنق أنفاسى . . . ولا بد أنى صرخت لهول الفزع ، فقد وجدت چيس يهزنى ويقول : مهلا مهلا . . مهلا . . مهلا . . .

ومن خلال غصون الأشجار العالية ، كان البدر يتوسط كبد السماء ، ويرسل أشعته المضيئة على وجهى .

قال چيس : قُم . . . فروچرز يرى أن نور القمر يكفى لإرشادنا إلى طريقنا .

وعاوننى حتى وقفت على قدمى ، ولما انهرت جاثيا لفرط التعب ، حملنى إلى أن استقمت على رجلىّ مرة أخرى .

قال يشجعني : لا عليك ، فهذا كله لن يلبث أن يزول ، وسيكون مسيرنا هادئا مراعاة لجرح أوجدن .

وطوى أغطيتي ، وعلقها مع المتاع فوق كتفيّ .

قلت : يا إلهي ! ياچيس ! ألم تكلّ قدماك بعد ؟

قال في صوت هادئ : بلى .

وكأنما تذكر أمراً ، إذ قال بعد صمت قصير ، إنه لم ينعم بالنوم كما ينبغي ، وقد رأى أن يلين عضلاته بالسير قليلا حول المعسكر .

وهانت عليّ متاعبي ، حين تذكرت أن عمره ثلاثة أضعاف عمري .

وعلى ضوء القمر تبينت أوجدن وهو يستند إلى روچرز ، وبجانبهما برادلي والصبيان الهنديان يرقبونهما . قال برادلي : باستطاعتنا أن نصنع لك محفة من غصنين طويلين بينهما ملاءة مشدودة .

واحتج أوجدن قائلا : هذا ما لا أقبله أبداً ، وما دمت قادراً على الوقوف على قدميّ ، فباستطاعتي أن أسير معكم بذات السرعة .

وخطا روچرز إلى الوراء خطوة ، ثم دفع أوجدن برفق ، فترنح إلى الأمام قليلا ، وإذ ذاك قال له في مرح :

عند ما نصل إلى منطقة الجبال تكون قد استعدت قوتك ، وأصبحت كأحسن رجل فينا .

وأحسست ، وأنا أنظر إلى أوجدن ، بآلام قدمىّ تخف كثيراً .

قال روجرز لبرادلى : إياك أن يسقط على الأرض ، فاشترك مع الصبيين فى مساعدته ، حتى يستقيم سيره .

وهمس أوجدن يقول : لا . . لا تدعنى أسقط على الأرض . . لا أريد أن أسقط على الأرض . . فأنا بخير ما دمت منتصبا على قدمىّ .

وصاح روجرز فى الصف يقول : إلى الأمام .

وسار الرجال ، وعاد هو إلى الصف يفحصه بنفسه ، ليتأكد من انتظام الأمور على الوجه الأكمل .

وعلى ضوء القمر ، جعل يدقق النظر فى كل رجل يمر أمامه ، وبين وقت وآخر ، يقول على سبيل التشجيع والتنشيط : أسرع الخطى . . . أسرع الخطى . . . بعد قليل يطلع النهار ، فنتناول فطورنا .

وتضاءل صوته فى مسامعى ونحن نسير إلى الأمام ، وتبينت همهمة پومپ هوبيل الخافتة ، وزمجرة الملازم دانبار ، وكلمات مسز ويك الغاضبة ، ودقات الأحذية وأزيزها على أرض الطريق

الصلبة ، وأصوات رجال يتعثرون فيسقطون . ثم ينهضون من كبوتهم مرة أخرى .

كنا نتقدم ببطء ، فلما انتهى روچرز من تفتيش رجاله ، وعاد إلى رأس الصف يسير بخطى سريعة ، اقتدى الرجال به ، ودب النشاط فى أقدامهم .

قلت لچيس : لو حرصنا على التبكير هكذا ساعتين عن المعتاد ، فلابد أن نصل ممفراماجوج فى لمح البصر !

قال : أعتقد ذلك .

وكانت لهجته فاترة ، فلم أشأ أن أتشاءم ، وطمأنت نفسى بأن الشيخوخة أبردت حماسته .

كان الطريق صلباً أملس ، تظهر معالمه واضحة فى ضوء القمر ، فلما طلع النهار ، ووقفنا برهة لنتناول إفطارنا ، رأينا النهر بجانبنا وقد ضاق مجراه ، وانبسطت الأرض بجانبه وأجدبت وخلت من مظاهر الحياة . وكان الجدب يزداد وضوحا واتساعاً ، كلما تقدمنا فى سيرنا ، وبدت على الطريق علامات قلة الاستعمال إذ اختفت نعومته وسهولته ، وكثرت فيه الحفر المليئة بالماء . . . ووجدنا أنفسنا تارة ننحنى لنمرق تحت أشجار متداعية تعترض سبيلنا ، أو نضطر أحيانا إلى المرور من فوقها . . . وحدث أكثر من مرة أن خرجنا عن

الطريق الأصلى ، لنتحاشى جرفاً منهارا يسد مسالكه . . .
وعلى مضى الطريق تكاثرت البرك الآسنة ، وازدادت الغدران ذات التيارات السريعة . كانت مشقة عصيبة ، فعجبت كيف ظل أوجدن قادرا على السير إلى الآن ، وظننت أن الفضل يرجع إلى عون الصبيين الهنديين ومعونتهما له .

وجاء الأصيل ، فأمرنا روچرز بالتوقف عند غدير يجرى منحدرا إلى نهر سانت فرانسس ، وسمح لنا بتناول الطعام ، فأخرج الرجال من أكياسهم حفنات الذرة الجافة ، وانشغلوا فى التهامها بنهم ولهفة ؛ أما روچرز فقد سمعته ينادى كونكاپوت واليوزباشى چاكوبز ، ثم رأيت ثلاثتهم يعبرون الغدير ، ويغيبون عن أنظارنا .

قلت لجيس ، وأنا أتمنى أن يخالفنى فى الرأى :
ألا ترى معالم الطريق تتلاشى بالتدريج ؟

وقذف زميلى بحفنة من الذرة إلى فمه ، ثم مسح بيده على فوديه الأشيبين راضيا ، كأنه يتناول من الطعام وجبة كاملة ، قال : نعم ، وهذا لا يدهشنى .

كان الرجال كلهم فى قلق واضح .

وقام اثنان من هنود ستوكبريدج ، وتركا مكانهما من حراسة النساء ، وتوجها إلى ضفة الغدير ليفحصاها بإمعان .

وسألهما برادلى وهو يفك أربطة أوجدن لتغييرها ، عما إذا كان هناك ما يريب ؟ فهزا رأسيهما بالنفى ، واستمرا فى الفحص والبحث مثلما تفعل كلاب الصيد ، وهى تقتفى أثر فريستها .

وخلع أوجدن ملابسه عن نصفه الأعلى ، وأغمض عينيه وهو يقف مستندا إلى الصبيين ، ففك برادلى الرباط الذى اصفر لونه ، رغم خلوه من لطخ الدماء ، وذهب إلى الغدير يغسله ثم يعصر الماء منه .

كانت الرصاصة قد اخترقت صدر أوجدن من تحت ضلوعه ، وخرجت عند ترقوته ، وكان الثقبان قد ابيضت حوافيهما ، وصار لون اللحم فى وسطهما أحمر مخضراً ، فقلت لجيس : من حسن الحظ أننى لم أصب بهذا الجرح ياچيس .

قال : الحق معك ! ولكنه أتى فى مكان لطيف جداً ، ولو فكرت طول اليوم فى أعجب هدف لرصاصة ، ما اهتديت إلى أحسن منه .

وفتح أوجدن عينيه ، وألقى إلينا بنظرة عامرة بالصبر والاحتمال ، ثم سألنى قائلا : كم سرنا حتى الآن ؟

قلت : أتقصد فى يومنا هذا ؟

قال هامسا : نعم اليوم .

قلت : خمسة عشر ميلا بالتقريب .

وأغمض عينيه ثانية ، واستند إلى الصبيين ، كما يستند المخمور إلى جدار يقيه السقوط ... كان واضحا أنه ظل طول اليوم يجر قدميه جراً ، لا يكاد يعى شيئا مما يدور حوله .... وأعتقد أننا ، فيما عدا لحظات قصيرة من العطف والشفقة ، لم نكن نشعر بما يعانيه من عذاب أليم ، فقد عرف كيف يستر أوجاعه الرهيبة ، تحت مظاهر من البطولة والكفاح الصامت ! بل لعلنا كنا ننظر إليه فى غالب الأحيان نظرتنا إلى شئ عادى لا غرابة فيه ؛ أما الآن فلا أظن واحدا منا قد نسى تلك البطولة الرائعة فى احتمال الألم ، وكلما رأيت رجالا أشداء يضجون بالشكوى عند قيامهم بعمل شاق ، أو يتخاذلون فى منتصف الطريق ، ويعجزون عن إتمام ما عهد به إليهم ، أتذكر أوجدن بصدره العارى وجرحه البشع ... أتذكره وهو يترنح فى وقفته ، بين صبييه الهنديين ، حريصاً على حفظ توازنه فى صبر وجلد .

وعاد روچرز من مهمته مع كونكاپوت واليوزباشى چاكوبز ، ثم تناول ضمادات أوجدن ، وطلب من برادلى أن يستدعى رؤساء الفصائل إلى أول الصف ومعهم النساء ....

وبعد ذلك انحنى يفحص جروح أوجدن ويشمها ، ثم ضمدها بنفسه ، وقال فى عجلة : عظيم ! ما دمت لم تمت أمس ولا اليوم ، فالأمل كبير فى أن تتغلب على جرحك ، وتتماثل سريعاً للشفاء .

وهمس أوجدن يقول ، دون أن يفتح عينيه : كم بقى على ممفراماجوج ؟

أجاب روچرز فى حدة : مازلنا بعيدين عنها ، وأمامنا مسافة طويلة ؛ فالأفضل أن تجلس قليلا لترتاح .

قال : لا .. لن أجلس ... لا أريد أن أجلس ، خشية أن أنهار وأعجز عن النهوض ثانية .

قال روچرز : إذاً استند إلى جذع شجرة ، وابق فى مكانك حتى أستفسر من هؤلاء الرجال عن بعض الأمور .

وأقبل علينا فارنجتون ودانبار وتيرنر وجرانت ومعهم بقية الضباط ، وفى صحبتهم چينى كويت وأمها ومسز ويلك والمرأة الألمانية . وكانت چينى تميل بجسدها على الصول آڤرى ، وترميه بنظرات الإغراء . فلما أومأ إليها روچرز ، تركت آڤرى ، وأسرعت إليه .

قال لها : هيا اطحنى بعض الذرة لليوزباشى أوجدن ، وإياك أن تتوانى ، فأنا لا أحب الكسالى .

قالت بفتور : ليس عندى ما أطحن به الحبوب .

وابتسم لها روچرز فى قسوة مخيفة ، والتمعت عيناه بوحشية جعلته مثل « ووبى ماوا أوندا » أو الشيطان الأبيض بلغة الهنود . ولعل الفتاة ظنته الشيطان بالذات ، إذ تخلت عن توانيها فى مثل لمح البصر ، وهرعت إلى حيث يقف أوجدن ، ودست يدها فى حقيبته تبحث عن الذرة .

والتفت روچرز إلى ضباطه الصامتين وقال : إن الطريق يضيع منا ، ومعالمه تتلاشى باطراد ، وأرى شاطئ النهر مهجوراً ، كأن أحدا لم يستعمله منذ أعوام ، فإذا كان منكم من يعرف عن هذا المكان شيئا ، فليتقدم بما لديه من معلومات .

ولم يتقدم أحد بكلمة .

قال : من الجائز ألا يكون هناك طريق على الإطلاق ، بالرغم مما يؤكده اليوزباشي ستارك ، فقد أشار فى خريطته إلى ممر يقع فى مكان ما من هذه المنطقة ، وذكر أنه سار على الشاطئ الشرقى ، عندما أسره الهنود منذ عشر سنوات .

والتفت إلى اليوزباشي چاكوبز يقول : ما اسم هذين الغلامين الهنديين ؟ لقد شغلتنى الأمور فلم أسأل عنهما .

أجاب اليوزباشي : الكبير يدعى أبيسا نيهراو والصغير تاتا بيكا ما تيوزيس .

صاح روچرز : هذا كلام فارغ ! نحن فى عجلة من أمرنا ، وهذه الأسماء طويلة معقدة ، والأفضل أن نسميها بيلى روچرز وبوب روچرز .

وربت كتف الغلام الكبير وقال له : أنت بيلى !

وفاض وجه الصبى بالبشر .

ثم فرك أذن الصغير وقال : وأنت بوب !

وألقى الغلام علينا نظرة تفيض بالألم ، فلما لم ير منا اهتماما بأمره ، عاد ينظر إلى روچرز بعينين جاحظتين .

قال روچرز لليوزباشى چاكوبز : سل بيلى وبوب عما إذا كان قد سبق لهما الذهاب إلى ممفراما جوج ، الواقعة على الجانب الآخر من كونيكتيكات ، قريبا من القلعة رقم ٤ :

وخاطب چاكوبز الغلامين بسرعة ، وبادر بيلى يجيب بكلام مستفيض ، أما بوب فكان مقتصداً فى حديثه .

والتفت چاكوبز يقول لروچرز : لقد ذهبا إلى ممفراما جوج ، ويقول بوب إن له فى القلعة رقم ٤ صديقة قديمة تدعى مسز تشينى كانت تعطيه خبزا وعسلا .

قال روچرز : وهل كانا يذهبان إلى القلعة من هذا الطريق الذى نسير فيه ؟

وهز چاكوبز رأسه نفيا ، وقال : بل كانا يسيران على الشاطئ الآخر من النهر .

سأله : وهل يتبع الطريق هنا شاطئ النهر ؟

وبعد أن تداول چاكوبز والصبيان ، قال : إنه طريق غدق رطب ، يبتعد عن النهر بالتدريج فى خط مستقيم .

وحملق الضباط فى روچرز ، فقد كانت الأخبار التى يسمعونها سيئة ، بل أسوأ ما يكون ؛ ولكن لمحة من القلق لم تبد على أحد منهم .

قال روچرز : وهل الممر الواقع على الضفة الأخرى فى حالة جيدة ؟

وأقر الغلامان بأنه جيد .

وقرقعت مسز ويك بصوتها تقول : جيد ؟ أنتم لا تعرفون ما يقصده الهنود بكلمة جيد ! لقد سلكت هذا الطريق ذات مرة ، وكنا على وشك الغرق بعدما عذبنا الجفاف شهرين كاملين .... إن هؤلاء الأفاقين الحمر يربطون قطعا من الجلد فى عصيهم ، ويعتبرونها أقواسا جيدة ، وينامون فى أكواخ مليئة بالدخان ويزعمون أنها مساكن جيدة !

سألها روچرز : أو تذكرين معالم هذا الممر ؟

صاحت تقول : أذكرها ؟ لا طبعا . . . لقد نسيتها حرصا على حياتى !

قال لچاكوبز : سل الفتيات الهنديات ... سل كبراهن

هذه عما تفعل إذا كانت تبتغى الوصول إلى ممفراما جوج ... أتسلك هذا الطريق ، أم تعبر النهر إلى الشاطئ الآخر ؟

وسألها چاكوبز ثم زجر قائلا : إنها لا تعرف شيئا ، ولا تريد أن تفعل هذا أو ذاك ، إنما تريد العودة إلى سانت فرانسس .

قال روچرز ضاحكا : لا أظنها غبية إلى هذه الدرجة !
والتفت إلى الضباط يقول فى لهجة الثقة : أعتقد أننا نسير فى الاتجاه الصحيح ، وإذا كان ستارك قد أتى من هذا الطريق ، فلست أرى ما يحول دون عودتنا منه أيضا .... وأظن أن هذا الجانب من النهر أسلم عاقبة ، لأن الفرنسيين إذا كانوا قادمين منه ، فلن يتمكنوا من السير أسرع منا ؛ وإذا عن لهم أن يعبروا إلينا النهر من الشاطئ الآخر ، فسيلقون أشد العناء فى اقتفاء أثرنا .

ونظر إلى أوجدن ، ورأى چينى كويت تلبسه قميصه وتشد له الضمادات على صدره ، فقال كمن يؤكد حديثه : لا .. لن يستطيعوا اللحاق بنا مادمتم تتبعوننى بجد ، فكونوا معى دائما ، وهذا كل ما أطلبه منكم ... هيا إلى رجالكم وأمروهم بالاستعداد للرحيل ، فالأفضل أن نواصل السير ، حتى يعجزنا الظلام عن رؤية الطريق .

الفصل الثانى والثلاثون

فى اليوم التالى ، وهو ثالث يوم منذ بدأنا رحلة العودة ، تلاشى الممر الذى نسلكه ، وضاعت معالمه وسط أراض غدقة . وكانت المستنقعات فى هذه المرة أخف وطأة من تلك التى قضينا فيها تسعة أيام بعد قيامنا من مسيسيكوا ، ولكنها كانت سيئة غاية السوء ، ومتاعبها لا يستهان بها ... قيعانها مليئة بالحفر ، ومياهها عامرة بالنباتات التى تلهب وجوهنا بضرباتها كلما تحركنا .

وكان نهر سانت فرانسس يجرى بين هذه المستنقعات ، وينثنى فى انحناءات عنيفة . كان روچرز يتنبأ بأماكنها قبل أن نراها ... حقيقة أنه أرسل أمامنا أربعة من هنود ستوكبريدچ ، يكشفون المجرى ، ويبلغوننا أنباء تغيراته أولا فأولا .... وحقيقة أيضا أننا كنا نحمل معنا الخريطة التخطيطية « الكروكية» التى رسمها اليوزباشى ستارك من مخلفات ذكرياته أيام الأسر ، وكانت عليها إشارات إلى منحنيات النهر ؛ ولكن صاحب الخريطة لم يستطع أن يحدد المواقع بدقة ، ولم يدل بمعلومات واضحة عنها ، ولذلك كان روچرز يعتمد على ذكائه فى التكهن بها .

والواقع أنه كان يتمتع بتلك الغريزة المبهمة العجيبة التى ترشد الحيوان إلى طريقه الصحيح ، وتمكنه من تقدير المسافات بمنتهى الدقة ، وسأظل دائما أعترف له بتفوقه علينا فى هذه الحاسة الخارقة ، التى تقود الكلب إلى بيته ، مهما بعد به الطريق ، واختلطت معالمه .

كنت أومن بصواب رأيه دائما ، فلم أدهش حين أمرنا بالانحراف فى زاوية قائمة إلى قلب المستنقعات العامرة بالمشقات ؛ ولما عدنا ثانية إلى النهر الغاضب بعد كفاح مرير دام ثلاث ساعات ، بدا الأمر فى ظاهره طبيعيا ، ولكنه كان ، فى الحقيقة ، معجزة خارقة .

والقول بأنها كانت « ثلاث ساعات من الكفاح المرير » ، وصف لا يعبر عن الواقع ، ولا يصور بعض ما عانيناه فى تلك الفترة القصيرة من العذاب اللانهائى : أرجل يهرؤها الألم ... أغصان تلسع الوجوه بضرباتها ... عيون يكويها العرق المنساب من الجباه ... حفر وقنوات توجع الأقدام المقرحة ... أخشاب حادة تخز الأجساد المكدودة فتدميها ... أشجار تشتبك بأمتعتنا وبنادقنا فتضاعف عناءنا ، وتعطلنا عن المسير . . . أجسام تنحنى وتتلوى تحاشيا لمواطن الخطر من الطريق . . . وفوق هذا كله اضطرارنا إلى الإسراع فى المسير ، دون هوادة أو راحة ، لشعورنا الدائم بأن فى

أعقابنا رجالا يريدون تمزيق أبداننا برصاصهم ، وتحطيم رءوسنا بفئوسهم .

لقد كانت محنة لا يتصورها العقل ، ولا أظن أن أحداً يستطيع أن يقدر مشقة الأهوال التي مررنا بها فى تلك الفترة ، سوى من اضطرته الظروف مثلنا إلى اختراق غابات بكر ، لا طرق فيها ولا مسالك .... ووراءه أعداء يطلبون حياته ، وأمامه سهول لا أول لها ولا آخر ، وليس معه ما يحميه من الموت جوعا إلا كيس من حبوب الذرة .

ولولا مهارة روچرز وحسن قيادته وصدق تنبؤاته ، ما أمكننا أن نعود إلى النهر ثانية ، ونبيت ليلتنا على أرض جافة .

ولست أذكر الآن بعض ليالى عودتنا من سانت فرانسس ، فقد تداخلت الذكريات بعضها فى بعض ، وانتظمت كوابيسها فى حلم طويل مروّع ؛ ولكنى أذكر ليلتنا الثالثة بوضوح ، ففيها انقطعت چينى كُويت إلى خدمة أوجدن ، وكذلك قرر لنا روچرز جراية محدودة من الذرة ، وأمرنا ألا نتعداها .

وقفنا فى تلك الليلة لإراحة ظهورنا من عناء أعبائها الثقيلة ، وما إن بدأنا نتبلغ بحفنات الذرة الجافة ، حتى سمعنا صوت چينى الأجش يتعالى بكلمات من لغة الأبيناكى ،

ورأيناها بعد لحظة تجرى بين الرجال ومن ورائها كونكاپوت .

وسقط ضوء القمر عليها ، فبدا وجهها أزرق باهتا ، وشعرها الأصفر تشوبه الخضرة ، وكانت فى حالة غضب بيّن.

وكان روچرز قد قام يفتش على الرجال بنفسه زيادة فى الاطمئنان والتأكد ، وأقام الجاويش برادلى نائبا عنه ، فلما رأى هذا أن الفتاة تجرى بتلك الصورة ، صاح فيها يقول : ماذا تريدين ؟ عودى إلى مكانك يا ملعونة !

قالت : إنى ذاهبة إلى اليوزباشى أوجدن أصلح ضماداته .

قال : لا تتدخلى فيما لا يعنيك ، فالغلامان الهنديان يرعيان شئونه ، ولو رآك الصاغ روچرز هناك ، لا بد أن يجز شعرك .

وأطلقت چينى من بين شفتيها صوتا لا يليق بسيدة مهذبة ، ومرقت من برادلى تجرى نحو أوجدن ؛ ولكنه لحق بها وجذبها من ذراعها بشدة ، فاستدارت إليه وهوت بقبضة يدها الأخرى على أذنه فى لطمة عنيفة . وأرخى برادلى يده عن ذراعها ، وهو يترنح إلى الخلف ، وقد أمسك بجانب رأسه ، فانتهزت الفتاة هذه الفرصة ، وهرعت إلى أوجدن ، وركعت أمامه تساعده على خلع قميصه .

فقال چيس بتشام ببرود : جميل ! أرأيت كيف بدأت تتصرف بعنف وخشونة ؟

وسار براذلى وراءها ، ووقف يرقبها هى وأوجدن ، ثم استدار نحوكونكاپوت ، وقال له : لا بأس يا كونكاپوت ، لا تقلق بالك بأمر هذه القردة ، والأفضل أن تذهب إلى الصاغ ، وتحدثه بما فعلت ، فهو كفيل بتأديبها .

وخلعت چينى لأوجدن قميصه ، ومالت فوقه تحل ضماداته ، وتهدهده بكلمات عطف خافتة ، ثم كشفت عن الجرح ، وجعلت تدلك اللحم حوله بعناية . وأقبل روچرز فى تلك اللحظة ، يسير بخطوات غير مسموعة ، واقترب حتى وقف خلفها مباشرة .

وقامت الفتاة والضمادات فى يدها ، فاصطدمت به ، وارتدت إلى الوراء كأنها ارتطمت بحائط صلب .

قال لها مزمجرا : من أرسلك إلى هنا ؟

قالت وهى تكشر له عن أنيابها : من تظنه أرسلنى ؟ إن اللوائى أسير معهن من عاهراتك القذرات لم يرسلننى !

قال : ولا أظن أحدنا استدعاك ، ومن عادتى إذا أردت نساء حولى أن أرسل فى طلبهن ، فافهمى ذلك جيداً ، واحذرى أن تثيرى الفتنة بين هؤلاء الرجال ، وإلا أطلقتك فى هذه الغابات وحدك .

صاحت به تقول : هيا ! هيا أطلقنى ، فأنا لم أطلب منك أن تأخذنى معك . إن الموهوك والوحوش أفضل منك ومن رجالك ! أطلقنى مع اليوزباشى أوجدن ، ودعنى أعنى به ، فربما عثرت على بقرة وحشية تلعق له جروحه فتشفيها ، أما إذا بقى معكم ، فلن يجد من يعنى به سوى هذه الديدان التى تنهش جرحه ! . . . أنظر إليها !

ودفعت ضمادات أوجدن تحت أنف روچرز وهى تقول : أنظر ! لم لا تكلف أحداً بالعناية به ؟ من الذى غيّر له ضماداته آخر مرة ؟ لقد غيرتها فى الليلة الماضية ، ولم يلمسها أحد بعدى . . . كان الواجب أن تغير ثلاث مرات على الأقل ، حتى لا تجف وتلتصق بلحمه . . . ثم يجب أن يستحم أيضا !

قال : باستطاعة الغلامين أن يساعداه على الاستحمام .

قالت : أنت كذاب وشرير ، ولا عجب أن سموك « وو ماوا أوندا » ! كيف يستطيع الصبيان أن يساعداه على الاستحمام ، وهما لم يستحما مرة فى حياتهما ! . . انظر إليهما فى ضوء النهار تر بنفسك أنهما قذران والقمل يسرح فى بدنيهما . . . واليوزباشى أوجدن قذر بدوره ، والقمل يسرح فى بدنه بسبب استناده عليهما . . . يجب أن تخلع ملابسه ،

وتنظف جسده جيداً ، وكذلك تغسل ضماداته ، فتنح عن طريقى أيها العنكب الكبير ، ودعنى أعنى بأمره .

ودفعت روجرز من طريقها ، وسارت إلى النهر وسط الحشائش التى تلمع فى ضوء القمر .

ورفع روجرز يده إلى رأسه يحكه بإصبعه الضخمة ثم اقترب من أوجدن وقال : أنا لا أثق بهذه الفتاة ، فعلينا أن نحترس منها .

قال أوجدن فى تخاذل : إنها ماهرة خدوم ، وأعتقد أننى أرتاح أكثر إذا سمحت لها بأن تغير ضماداتى ثلاث مرات فى اليوم عملا باقتراحها .

قال روجرز متهملا : حسنا ! سأتركها حتى تنتهى من تنظيفك ، وبعد أن تضمد لك جراحك ، أعيدها إلى أمها . لا أريدها قريبة من الرجال ، وإلا تضاربوا من أجلها .

سأله أوجدن هامسا : كم بقى على ممفراماجوج ؟

قال : اسأل الفتاة حينما تعود إليك .

وانطلق يضحك ملء شدقيه ، ثم قال : ممفرا ماجوج ! ألا يفكر أحدكم فى غير ممفراماجوج ؟

وعادت جينى ، وركعت بجانب أوجدن تعاونه حتى أسندته إلى كتفها ، قالت لروجرز وهى تنظر إليه بتحد : لم لا تخبره كم تبعد ممفراماجوج ؟

كانت تتكلم وهى تضمد جروح أوجدن بالقماش الأبيض ، وكانت تعامله وهو مستند إلى كتفها بحنان الأم على طفلها المريض ؛ فلما انتهت ألبسته قميصه الجلدى ، وساعدته على إدخال ذراعيه فى الكُمَّيْن ، وأخذت حقيبته ، وحلت سيورها ونظرت فيها ، ثم قالت وهى تهز رأسها : إنك تأكل أكثر مما يجب ! كم أكلت من الذرة فى يومك هذا ؟

وبان الخجل فى وجه أوجدن وقال : أكلت حفنتين ! كنت جائعا فلم أقو على كفّ نفسى ، ولعله فعل الدم الذى فقدته .

صاحت به تقول : دعنا من السبب . فالمهم ألا تأكل سوى حفنة واحدة ... حفنة واحدة فقط ! أفهمت ؟

قال لها روچرز : أنت تهذين كالمجانين !

فقفزت الفتاة واقفة ، وقالت وهى تهز قبضتها فى وجهه : قل له كم تبعد ممفراماجوج ! أنت لا تعرف ، وجهلنا بما ينتظرنا يكاد يصيبنا بالجنون ؛ الفرنسيون وراءنا ، ولكننا لا نعرف أين هم ، وممفراماجوج أمامنا ، ولكننا لا نعرف أين موقعها ... لو كنت أعرف بعدها عن هذا المكان لأخبرته ، وفى نيتى أن أخبره بكل ما أعرف ، إذا بقيت معه .

قال روچرز فى غيظ : أنت ، وحق السماء ، مشاغبة مشاكسة .

وجلس على مقربة منها ، وأخذ من حقيبته حفنة من الذرة ، وبدأ يتبلغ بها فى لذاذة وسعادة .

ونادانى ، ثم قال : أحضر دفتر الأحوال .

وعلى ضوء القمر جعل يفحص الخريطة التى رسمتها منذ وقت طويل ، ليلة دخولنا منطقة المستنقعات ، بعد أن خلفنا وراءنا خليج مسيسكوا . وظل يتأملها بدقة ، وبعد أن انتهى من دراستها ، استلقى على ظهره ، وجعل يرقب السماء من بين فروع الأشجار الباسقة ، وشفتاه تتحركان ، كأنه يقرأ شيئاً لنفسه .

وغلب النوم أوجدن ، فبقيت چينى جالسة بجواره ، وهى تنعم النظر فى وجهه الهادئ . وبدت فى جلستها هذه وديعة رفيقة لا حول لها ولا قوة ، ولكنى كنت أعلم أنها على العكس تماما ، جريئة قاسية ، لا تحمل لنا ذرة من الحب أو العطف ، فقد كنا بالأمس أعداء لها ، ولسنا اليوم سوى عصبة تريد أن تمنعها من العناية برجلها الجريح .

قال لى روچرز وهو يعيد دفتر الأحوال : دوّن حديثى مع الجاويش برادلى ، حتى لا يبقى مجال للخطأ أو الالتباس .

وصفر لبرادلى يدعوه ، فأقبل هذا وهو يختلس النظر إلى چينى .

سأله روچرز : كم أكلت من الذرة أيها الجاويش ؟

أجاب : نحو نصفها ، فما زال بالكيس نصف المقدار تقريبا .

قال : هذا أمر سيئ ، فأنت مثلهم جميعا تسرف فى الأكل . ألا تدرك أننا لم نسر اليوم سوى ثمانية أميال فقط ؟

قال برادلى : أى ان الطعام لن يكفينا سوى أربعين ميلا أخرى ، أليس التقدير كذلك ؟

قال روچرز وقد جمد وجهه : كنت الآن أفحص خريطة ستارك ، فوجدت أننا قد نصل غدا إلى منطقة جبلية وعرة ، يصعب علينا أن نسير فيها بسرعتنا الحالية .

قال برادلى : نستطيع أن ننقسم إلى جماعتين ، ويذهب بعضنا للبحث عن طعام .

قال روچرز بسرعة : لا ، ليس هنا ، فأمامنا مسلك واحد بمحاذاة النهر ، ولا ينتظر لمن ينحرف عنه إلى الداخل أن يعود ، فالهنود لن يلبثوا أن يتلقفوه ، ليسلخوا رأسه ويشووه ؛ ولذلك أرى أن نسير فى جماعة واحدة حتى نترك ممفراماجوج .

قال برادلى بلهجة يشوبها التردد والشك . وسأطلب من الرجال أن يقللوا جرايتهم اليومية . ثم سكت برهة ، وعاد يقول : إنهم فى شدة الجوع .

قال روچرز : لا مفر من ذلك ، وعليهم بالطاعة وإلا ازدادوا جوعا على جوع ، فاطلب إليهم أن يقسموا ذخيرتهم من الطعام إلى ستة أقسام ... أو قل سبعة ... لا بل الأفضل ثمانية ، ومرهم ألا يأكلوا أكثر من قسم واحد فى اليوم مهما اشتد بهم الجوع . وضح لهم أن سلامتهم تتوقف على اقتصادهم فى الطعام .

قال برادلى : سأبلغهم ذلك أيها الصاغ ؛ ولكن هناك أمراً آخر ، فالجميع يتساءلون عن المسافة إلى الأمونواوزاك التى حدثتهم عن وجود المؤن فيها ... إنهم لا يكفون عن الكلام عنها ، ولأنهم لا يعرفون بعدها الصحيح ، يطلقون العنان لخيالهم فى التكهن والتقدير .

قال روچرز فى لهجة حازمة : امنع هذا الحديث فوراً ، وحذرهم من الخوض فيه ، وإذا كانوا يريدون معرفة المسافة بالضبط ، فأخبرهم أنها تزيد على مائة ميل إذا سرنا فى خط مستقيم من شمال ممفراماجوج إلى الأمونواوزاك . هذه هى الحقيقة ، ولقد سبق أن مشيتها بنفسى وأنا واثق مما أقول .

أجاب برادلى فى دهشة واضحة : تقول فى خط مستقيم ؟ وكيف بالله عليك نسير فى خط مستقيم ؟

قال روچرز وهو يهز كتفيه : أجل ! إنها لتبعد مائة ميل وعشرة أميال فقط .

وكانت كلمة « فقط » نموذجا حقيقيا لعقليته التى تستوى فيها عظائم الأمور وصغائرها ، لا فرق بين المخاطرة الكبيرة والحادث التافه ... كل المصاعب عنده سواء ... ولعله استقى هذه الفلسفة من ثقته بقدرته على تذليل الصعوبات مهما بلغت خطورتها .

وكانت حقيبتى كحقيبة برادلى ممتلئة إلى النصف بالذرة ، وهو ما يقدر بنحو اثنى عشر كوبا صغيرا ... اثنا عشر كوبا من الذرة علينا أن نعيش عليها حتى نصل إلى ممفراماجوج ، التى نجهل موقعها . . . وبعدها نسير مائة وعشرة أميال إلى الأمونوأوزاك .

وشعرت بجسدى يلتهب بالحرارة ، وصدرى يمتلئ بالرعب ، فقد كنت أعتقد أننا قطعنا ما يقرب من نصف المسافة إلى القلعة المليئة بالمؤن والطعام .

وانصرف برادلى مطأطئ الرأس ، ورقدت چينى كويت

بجانب أوجدن ، وقد وضعت ذراعها فوق بدنه الملتحف بالأغطية ، ثم استسلمت لنوم عميق .

وزمجر روچرز قائلا : قردة لعينة ! أحضر أيها الجاويش حقيبتها وأغطيتها وضعها هنا ، فلست أعتقد أنها ستضايق أحدا خلال الأيام المقبلة ... لا لن تضايق سوى أوجدن وحده .

* * *

أما كيف تسنى لروچرز أن يتنبأ بوصولنا فى اليوم التالى إلى هذا المكان الوعر ، فذلك أمر يصعب تفسيره ، ولكننا وصلنا قرب الظهر فعلا ، وكنا فى اليوم الرابع لعودتنا من سانت فرانسس . ورأينا التلال بانحدارها الشديد ، تبدو أمامنا مثل نماذج مصغرة لمرتفعات تلك المنطقة التى نعرفها اليوم باسم « ڤيرمونت » . وضاق النهر وتضاءل اتساعه ، وهو ينحدر فوق مهد من الصخور والأحجار ، بين شاطئين قائمين تتخللهما جداول تصب ماءها المتدفق فى المجرى الرئيسى .

وما إن انتصف النهار حتى كنا وسط تلك الجداول نعبرها كلما اعترضت سيرنا . وكنا نكد فى تسلق جوانبها القائمة ، ومقاومة حشائشها المتشابكة ، ثم لا تلبث أقدامنا أن تنزلق فنتدحرج إلى الخلف ساقطين .. ومضت بقية اليوم فى عناء ما بعده عناء ، مرة نتسلق الصخور العالية ، وأخرى نتدحرج إلى غياهب الجداول الغادرة .

كنا قد سمعنا فى الليل أصوات البط والأوز البرى ؛ وهو يطير عاليا فى أسرابه ، وكذلك سمعنا نعيق البوم يتجاوب على الأشجار القريبة . ثم طلع النهار فلم نر شيئاً من ذلك ، أو نسمع صوتا سوى صياح غراب شارد أو صفير صقر جائع ، فطلب روچرز من الملازمين سولومون وكونكاپوت — وكانا يقومان بكشف الطريق أمامنا — أن يصيدا ما يعترضهما من حيوانات كبيرة كالغزال أو الدب أو البقر الوحشى ، وألا يضيعا الرصاص فيما هو أصغر من ذلك ؛ ولكن يبدو أن الضوضاء التى أحدثناها ونحن نصارع الصخور والحشائش ، أفزعت الصيد بأنواعه ، فلم يعثر الرجلان على شىء .

وأظهر أوجدن شجاعة فى احتمال إصابته : كان يسير مستندا إلى چينى ، ومن ورائه الغلام بيلى يدفعه إلى الأمام ، ويمنعه من السقوط إذا اعترضه أخدود ؛ أما الغلام الثانى بوب فقد سار فى المؤخرة يحمل له متاعه وبندقيته ...

وكان يبدو على أوجدن سمات من كتب عليه العذاب الأبدى : لا يتلفت حوله ، ولا يرفع عينيه عن الأرض ، ولا ينفك عن التعثر بين رفع غلامه وجذبه . ولم تكتف چينى بمساعدته على السير ، إنما كانت أيضاً تطعمه وتغسل ضماداته وتغيرها ... تقص له شعره ، وترتق ملابسه .

تعمل هذا كله خلال الدقائق الخمس التى نقفها كل ساعة لننال قسطاً من الراحة ، ونطمئن إلى أن أحداً منا لم يتخلف فى الطريق . لقد بات واضحا أن أوجدن أصبح شاغل الفتاة الوحيد فى الحياة ، ولم تكن لتتردد دون إعطائه ملابسها إذا قبل أن يأخذها منها ، وتطعمه بنصيبها الكامل من الذرة ، أو تفعل أى أمر آخر يعينه على السير .

ومشينا أربعة عشر ميلا فى ذلك اليوم ؛ أما اليوم الخامس فكان سيئا للغاية ، إذ ازدادت التلال ارتفاعا ، والأخاديد عُمقا ، وماء الجداول سرعة وانحداراً . وكبر حجم الصخور التى تعترضنا ، وأضحت أكثر ملاسة وأشد خطرا . وفى هذا اليوم تلفت أوجدن حوله يرقبنا لأول مرة منذ أصابته الرصاصة . وإنى أذكر تلك الأيام الأولى كجزء واضح من رحلتنا ، أما بعد ذلك فلم يكن فى الأيام ما يميز أحدها عن الآخر .

كان اليوم الخامس فى رحلتنا هو العاشر من شهر أكتوبر ، وفى اليوم السادس — وهو من الأيام التى أذكرها بوضوح أيضاً — شاهدنا نحو الجنوب جبالا كبيرة ، أطرافها حادة ، وقممها مسننة ، وقد حدث فى ذلك اليوم أن نفدت ذخيرة الذرة من عدد صغير من الجنود ، أولئك الذين أسرفوا فى

جمع الأسلاب يوم المعركة ، وفضلوا أن يملأوا أكياسهم بها دون الطعام ، فلما نفدت مئونتهم ، جعلوا يساومون على أسلابهم نظير ما يرد عنهم قسوة الجوع : طوق من الأصداف الغالية مقابل حفنة من الذرة ، وقلادة من الفضة بملء كوب صغير ..

وما زلت أذكر اليوم السابع لهول ما جرى فيه ؛ فقد عدت فى تلك الليلة إلى مرقدى بعد أن ملأت الزقاق بالماء ، فإذا بكروفتون يجثم على أربع كالكلب . وتقدمت من خلفه بهدوء ، ورأيته يخرج من حقيبته شيئا جعل ينهش فيه ويشده بأسنانه مثلما يفعل الكلب بالعظام ، فسألته : ماذا تأكل ؟

ودفع كروفتون ما بيده إلى الحقيبة بسرعة ، وجعل يمسح شفتيه بظهر يده ، ولكن حرصه على إخفاء الشىء بسرعة ، جعله يقع متدحرجا على الأرض ...

ويا لهول ما رأيت ! كانت قطعة من جسم رجل هندى !

ولست أذكر ما قلته له فى تلك اللحظة ، ولكن كروفتون اقترب منى .... اقترب منى كثيراً ، حتى تراجعت أمامه ، وأنا أحس برغبة ملحة فى الهرب بعيدا عنه .

قال هامسا : إنها ملكى ، ولست أرى مانعا من أن آكل ما يخصنى ، ألا تذكر ما فعلوا بأخى ؟

وانطلق يضحك بصوت يشبه نعيق البومة القرناء ، وهى تمسك بأرنب وقع فى براثنها .

ورغم ما اعترانى من ذعر ، بدا لى فى قوله بعض المنطق ، ولعله فعل الشذوذ الذى أصاب عقولنا ومعنوياتنا ، بعد شهر من الغذاء الضئيل الجاف ، والسير يوما بعد يوم فى ملابس يقطر منها الماء ، لا نعرف متى نصل إلى وجهتنا ، وهل ننجو من أعدائنا الفرنسيين والهنود ، أم نقتل على أيديهم شر قتلة ؟

خيل إلى فى تلك اللحظة ، أنه ما دام الهنود قد قتلوا شقيق كروفتون ومثلوا به أبشع تمثيل ، فلم لا يقتل كروفتون من الهنود من يشاء ؟ ولم لا يفعل بقتلاه ما يريد ؟ اعتبرته تعليلا مقبولا ، ولم أدرك إلا أخيراً أنها الحرب تسلبنا كل أسباب التعقل ، وتزين لنا أغرب الأفكار وأكثرها وحشية وشذوذا .

وفى اليوم التالى ، وهو اليوم الثامن بعد أن غادرنا سانت فرانسس ، رأينا ممفراماجوج : كانت بحيرة ضيقة جميلة ، ترقد وسط تلال وجبال ذات قمم مدببة تبدو كأنها أسنان وحش هائل فغر فمه لابتلاعنا . وكانت هذه المرتفعات قائمة الجوانب حادة الأطراف ، كأنما صاغتها يد جبار فى باطن الأرض ، ثم دفعتها إلى أعلى ، فاخترقت التربة اللينة ، وبرزت منها :

وظننت أن ذلك اليوم — وكان الثالث عشر من شهر اكتوبر — هو أسود يوم يحتمل أن يمر بحياتنا ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة سوى بداية كابوس مروّع ، كلما عاودتنى ذكراه بعد ذلك وأنا نائم ، يطلق الفزع حنجرتى بالأنين والصراخ ، وأظل على هذه الحال حتى يطرق أحدهم بابى ، ويوقظنى .

الفصل الثالث والثلاثون

كان الوقت عصراً عندما اعتلينا تلا ، فلاحت لنا ممفراماجوج من بين رءوس الأشـجار الداكنة . وكان الجو صحوا إلى أبعد حد : شمس لامعة وسماء صافية ، فرأينا صفوفاً وصفوفا من الجبال ، شمخت بقممها نحو سماء خالية من الغيوم ، ومن ورائها ، على الشاطئ الآخر للبحيرة ، صفوف أخرى من جبال أعلى ، تناثرت هنا وهناك ، فملأت الأفق وازدحمت بها الأرض .

كنا حقا مقبلين على أرض وعرة صعبة المسالك .

وعلت من خلفى همهمة الرجال العجاف الضامرين ، فقد كان مرأى ممفراماجوج ، التى طال انتظارها ، معناه الأمن والراحة ، وأهم من ذلك الطعام .... فلا بد أن البحيرة تزخر بالأسماك ، والغزلان تأتيها فى المساء لتروى عطشها بمائها وترعى الحشائش المحيطة بها . ولا بد أيضاً أن الشواطئ تعمر بالبط البرى الذى يقبل أفواجا مع كل فجر جديد .

كان الطعام قد أصبح هم الرجال الأوحد ، بعد أن خلت الحقائب منه كما خلت البطون ؛ أما أنا فكنت أسعد حالا من غيرى وفى حقيبتى ملء كوب من الذرة ، كلما

سقطت منه حبة ، جثا الرجال على الأرض يبحثون عنها ... لقد عشنا أياما وليالى بأمل وصولنا إلى ممفراماجوج ، حيث الطمأنينة من مطاردة العدو ، وحيث نستطيع أن نوقد نارا كبيرة ، نشوى فيها الأسماك بالآلاف ، ثم ننام ملء جفوننا فى دفء وهدوء واستقرار .

ومن العجيب أن چينى كانت ما تزال مصرة على السير بجانب أوجدن ، رغم أنه لم يعد فى حاجة إلى مساعدتها ، فالصبيان يحملان له متاعه ، ولقد أبى أن يترك لها بندقيته ، فحملها وسار رافع الرأس يتلفت حوله كعادته .

وبدت الفتاة كجزء لا يتجزأ من أوجدن ، فلم يعد رفاقه يلقون بالا إليها ، إذ كانت كالكلب الأمين تتبعه وعينها لا ترتفع عنه . ولما ظهرت البحيرة أمامنا قفزت فى سرور وهى تصفق بيديها . قالت بصوتها الأجش : سنتعشى الليلة سمكاً !

وما إن تفوهت بتلك الكلمات ، حتى استدار لها روچرز ، وألقى عليها نظرة تنطق بالغضب . كانت قبعته قد فقدت زينتها منذ أيام مضت ، وانكسر جانبها الأسود القاتم ، ونمت لحيته كالدغل الكثيف ، وتدلى جفناه تحت عينيه ، وازدادا تهدلا عن ذى قبل .

صاح بالفتاة يقول : سمك ! أتعرفين كيف تحصلين عليـــه ؟ لعلك تتصورين أنك ستجدين فى انتظارك قاربا وشصوصا وطُعْماً ؟

وأخرج صوتا من أنفه ، ثم طوح ذراعيه ، وسار متوغلا بين الأشجار ، فى خط مائل على البحيرة ، لا متجها إلينا .

واسترقت چينى نظرة إلى أوجدن ، وسكتت ؛ فمنذ تحسنت صحته ، باتت حريصة فى إجابتها على روچرز ، تلافيا لإغضابه . وكنت أعلم أنها لا تخاف فى الدنيا شيئا ، ولكنها أصبحت الآن تخاف أن تفقد أوجدن .

وعند الأصيل أقبل الملازم دانبار ليتحدث مع روچرز . كانت سِحَنُ الضباط والجنود وأشكالهم قد تشابهت فى الأيام الأخيرة ، بحيث أصبح من المتعذر علىّ أن أميز الواحد من الآخر إلا بعد تريث وتدقيق . وكان شأن دانبار شأنهم جميعا : لم يعد ذلك البريطانى النحيل الذى عرفته فى قلعة كراون پوينت ، إنما تحول إلى شخص آخر : شعره الأشقر يتدلى من تحت قلنسوته الخضراء المهشمة ، ولحيته المشعثة تغطى نصف وجهه الأسفل ، وكان قد لف حول جسده قطعا من القماش الأخضر طلبا للدفء ، فبان أغلظ جسما من حقيقته ، وحتى صوته انخفض عن ذى قبل ، وخفت حدته ه

قال لروچرز : أما من أمل فى التريث قليلاً حتى نبحث عن صيد .

قال روچرز بلهجة يشوبها العطف : ليس الآن ، فما زال لدينا بقية من الطعام ، وأظن أن الفرنسيين قد أصبحوا فى شدة الجوع مثلنا .

قال دانبار : ومتى تظن أننا نستطيع الوقوف ؟ لقد كان الرجال يترقبون الراحة حالما نصل إلى ممفرا ماجوج ، ولكن القلق أخذ ينتابهم بعد ما رأوا منك إصرارا على مواصلة السير .

قال روچرز : أنفد ما لديهم من الذرة ؟

قال : نفد من معظمهم ، وأصبحوا يخشون الموت جوعا ، ويؤكدون أن يوما واحدا بجوار البحيرة يمكنهم من صيد ما يكفيهم للسير إلى أى مكان .

وتقدم روچرز إلى الأمام وكأنه لم يسمع ، ثم قال : حسنا أيها الملازم ، لن نقف الآن ، وعليك أن تبث الشجاعة فى قلوبهم ، قل لهم إننا قد نعثر فى أثناء سيرنا على غزال نصيده .

قال دانبار : وهل يشبع غزال واحد مائة وأربعين رجلا ؟

وكأنما كره روچرز أن يجيبه على هذا السؤال ، فمضى في سيره صامتا ، وبجانبه دانبار والملازم تيرنر والصول آفرى .

ثم نظر إلى تيرنر بعينين متعبتين ، كأنه لم يذق طعم النوم منذ شهر ، وهى الحقيقة على ما أعتقد . قال : حسنا أيها الملازم ، ما الذى يشغل بالك ؟

قال تيرنر : أعتقد أن بعض رجالى لن يقوى على الاستمرار فى هذا السير طويلا .

قال روچرز : ولعلك تريد أن نقف للصيد ؟

قال تيرنر : لا يا سيدى ، ولكن الرجال يفضلون لو قسموا أنفسهم إلى فصائل تسعى وراء الصيد متفرقة ، إذ ليس من المحتمل أن يعثروا على فريسة ، وهم يسيرون هكذا فى صف واحد طويل .

وأضاف آفرى قوله : وهذا رأى رجال فصيلتى أيضا .

وكان آفرى قد تغير عما كان عليه يوم رأيته فى كراون پوينت ، فبعد أن كان له وجه صبيانى مستدير ، أسمر اللون صافيه ، امتدت التجاعيد فى خطين عميقين على جانبى أنفه ، وابيضت بشرته فى زرقة واضحة ، وتراخى جفناه على مقلتيه ، كأنه نصف نائم .

وكنت أعلم أن روچرز يحترم تيرنر وآفرى ، ويقدر

آراءهما ، بعد أن خبرهما فى رحلته الكشفية يوم هجومه على سانت فرانسس .

سألها روچرز قائلا : إذا كان رجالكما يرون هذا الرأى ، فهل توافقان على ذلك ؟

أجاب الاثنان ومعهما دانبار بصوت واحد : نعم يا سيدى .

وأقبل من ورائنا الملازمان فارنجتون وجرانت ، وقد بدا عليهما التعب والهم . وكنت أرى فى كل فرد من هذه المجموعة ما يذكرنى بقصة روبنصون كروزو : شعر طويل مشعث ، وملابس عجيبة ، وسط طبيعة قاسية وأشجار عالية . وتبين لى فجأة أننى بدورى لا أختلف فى شىء عن أى منهم .

قال روچرز يحدث فارنجتون وجرانت دون أن يلتفت وراءه ، كأنه رآهما بعينين خلفيتين : وهل يتذمر رجالكما أيضاً ؟

قال فارنجتون ، إنهم لا يتذمرون يا سيدى ، ولكنهم جياع يريدون شيئاً يأكلونه .

قال روچرز : حسنا ! ما دام هذا شعورهم جميعاً ، فمن المستحسن أن نعقد مجلسا للحرب ؛ ولكننا لا نستطيع أن نعقده قبل المساء ، فاطلبوا إلى الرجال أن يجدوا فى سيرهم

قدر طاقتهم ، وحالما نعسكر الليلة ، ننظر فى الأمر ونتفق على رأى .

ورفع نظره إلى السماء ، وجعل يشم الهواء بأنفه الضخم الذى يشبه المنقار ، ثم قال : ولكن تذكروا أن عاصفة على وشك الهبوب ، بدليل أن جروحى تؤلمنى ، وسيكون الصيد متعذرا لمدة يوم أو يومين .

ولم ينبس أحد من الرجال بكلمة .

وقفوا ينتظرون فصائلهم حتى تمر عليهم ، فيلتحقوا بها .

وكانت هذه أول مرة أرى رجال روچرز يفعلون ذلك ، فقد كان من عادتهم أن يهرعوا عائدين إلى فصائلهم ، لا أن يقفوا فى انتظار قدومها .

* * *

وتوقفنا تلك الليلة فوق ربوة ذات سطح منبسط ، تشرف على جدول تجرى مياهه إلى بحيرة ممفرا ماجوج . والتف الرجال ، عدا الحراس ، فى دائرة حول روچرز ، ولست أدرى أقد جمعهم حوله هكذا ليتقى هجوما مفاجئا ، أو ليبعث فيهم شعورا بالدفء والطمأنينة .

وانعقد مجلس الحرب فوق الربوة السوداء فى حمى الظلام الحالك ، إذ كانت الليلة محاقا ، والنجوم ضعيفة الضوء لا تلمع ، فبدا الرجال كأنهم أشباح لا تتبين العين من ملامحهم شيئا .

قال روچرز : اقترح بعضكم أن ننقسم إلى جماعات صغيرة تسعى كل جماعة وراء الصيد وحدها ، ولكننا لا نستطيع أن نتخذ فى هذا الأمر قرارا قبل أن نسمع آراء الآخرين ؛ فهل مازلت عند رأيك أيها الصول آڤرى ؟

وكان العرف يجرى بأن يؤخذ رأى أصغر الرؤساء سنا فى مجالس الحرب ، وكان آڤرى أصغرهم ، فقال : نعم يا سيدى . لن يستطيع رجالى المضى فى الرحلة دون طعام ، فقد بدأت تشنجات المعدة تتفشى فيهم .

وهمهم الضباط بالموافقة ، مما يدل على شدة استعدادهم لتأييد الفكرة .

قال روچرز : وأنت أيها اليوزباشى أوجدن ، ماذا ترى ؟ أنت أسوؤنا حالا ، وقد يكون لتوجيهك فائدة ؛

وسكت أوجدن طويلا فى ذلك الظلام الدامس ، حتى ظننت أنه انسل مع چينى إلى مكان بعيد عنا . وأخيرا ناداه روچرز مرة ثانية ، فقال : من أشد الأمور وأقساها أن تكره رجالا على السير وبطونهم خاوية ، ولو كانوا فى مثل حالى لاقترحت أن نمضى فى سيرنا معاً يوما أو يومين آخرين ، فهذا ولا شك أفضل .

وتكلم الملازم دانبار فقال : عندما بدأنا رحلة العودة

أيها الصاغ ، قلت لنا إن متاعبنا تنتهى حالما نصل إلى ممفرا ماجوج ؛ وهانحن أولاء قد وصلنا ، ولا دليل على أن الفرنسيين يتبعوننا ، ولعلهم بالفعل تركونا وشأننا ، إذ ربما يكون قد تعذر عليهم الحصول على المؤن التى تسمح لهم باقتفاء أثرنا كل هذه المسافة ، أو ظنوا أننا اتخذنا طريقا آخر ... فهل جد من الأمور ما يدعوك إلى الرجوع عن الرأى الذى أبديته فى سانت فرانسس ؟

قال روچرز : لقد أسأت فهم كلامى ، أيها الملازم ، لقد قلت إننا نسلم من الخطر عندما نترك ممفرا ماجوج ، وممفرا ماجوج ما زالت أمامنا ، ولم نخلفها وراءنا بعد .

وسكتوا جميعا .

واستأنف القائد حديثه فقال : والآن دعونا نأخذ الأصوات ، ولكنى أحب أن أوضح لكم بعض الأمور قبل ذلك . أولا : يستطيع الرجل الجائع أن يسير أكثر كثيرا مما يتصور ، لو تذرع بالشجاعة ... واليكم مثلا حيا فى اليوزباشى چاكوبز ورجاله من هنود ستوكبريدج ، فهم لم يتغيروا عما كانوا عليه يوم غادرنا سانت فرانسس ، علما بأنهم لم يأكلوا غير ما أكلنا ، ولقد رأيت فتياناً من الهنود يسيرون عشرة أيام دون طعام على الإطلاق . ثانيا : إن لهذا الإقليم

طبيعة خداعة ماكرة ، لأنه ملىء بالغدران والأخاديد ، طرقه ذات زوايا حادة ، ومستنقعاته متعددة واسعة ... فهو بالاختصار أنسب مكان يكمن لنا العدو فيه ، ويأخذنا على غرة . وأنا لم أطرق هذه المنطقة سوى مرة واحدة ، ولذلك لا أعرف عنها إلا قليلا ، ولكن أولئك الذين يتبعوننا يعرفون كثيرا :

وارتفع صوت هادئ من حافة الدائرة يقول : دعونا نأخذ الأصوات .

فقال روچرز : ليكن ! من منكم يرى متابعة السير فى جماعة واحدة ؟

ولم يرتفع سوى صوت أوجدن يقول : أنا . . :

ولعل آمال روچرز فى رجاله خابت فى تلك اللحظة ، ولكنه لم يظهر ما ينم عن شعوره ، إذ قال : فى هذا الكفاية .. غداً عند الظهر نتفرق فى جماعات ، فمن المستحسن أن نوغل فى الشرق قليلا ، لنبتعد عن المستنقعات المتصلة بالبحيرة ، ولكى أعيد تنظيم الحملة ، حتى تحظى كل مجموعة من الرجال بقيادة طيبة على قدر الإمكان . وسأرسم لكم الليلة خرائط تسترشدون بها فى طريقكم . ولا يغربن عن بالكم أمران على غاية من الأهمية . أولها : أننا نقصد مصب

الأمونو أوزاك فى نهر كونيكتيكات بمناطق الكوهيز بجوار نهر وِلز، وسوف أرشدكم إلى موقع هذا المصب على الخريطة، فلا تنسوا الأمونوأوزاك ، إذ فيه الطعام الذى تريدون ، ولعله موجود الآن هناك فى انتظاركم ، فما عليكم إلا أن تثابروا على المسير حتى تصلوا إليه . . والأمر الثانى : أوصيكم أن تبذلوا جهدكم فى السير صوب الجنوب الشرق ، فنهر كونيكتيكات ينساب فى ذلك الاتجاه ، والطريق الجنوبى أطول ولكنه أصلح للسير . إن مناطق الكوهيز التى تقصدونها أجمل بقاع الدنيا ، وأرضها خصبة ، والهنود يزرعونها كلها . . وفى نهاية الكوهيز تجدون نهر الأمونواوزاك ، حيث الأمن والسلام والطمأنينة ... فهل وعيتم كل كلمة من حديثى ؟

وتمتم الرجال بالإيجاب .

وفى الهدوء الشامل الذى تلا ذلك ، سمعت روچرز ينهض واقفاً ، ورأيته بعين الخيال يدلك قبعته المهشمة فوق شعره المنفوش .

قال : حسناً أيها السادة . . لقد اتفقنا على الخطة ، وعند الفجر يبدأ السير كالمعتاد ، فأخطروا رجالكم بأنى سأقيم ناراً على المنحدر الجنوبى للربوة ، لأرسم لكم الخرائط المطلوبة .

ونادانى وأوجدن ، فزجرت چينى وهى تعين صديقها على الوقوف . ولما أوقدت النار وسُترت أشعتها جيداً ، جلست الفتاة وراء أوجدن ، وجعلت من ظهرها مسنداً لظهره .

وظل روچرز وأوجدن يفحصان الخريطة مرة بعد مرة ، ويتتبعان الطريق الذى سلكه روچرز مع اليوزباشى پاورز ، عند ما اكتشفا مناطق الكوهيز عام ١٨٥٥ ، وكانت لروچرز ذاكرة لا ينضب لها معين ، لكثرة ما وعت من معلومات وتفاصيل .

قال وهو ينقر الخريطة بإصبعه الغليظة : لو أنك تركت كونيكتيكات من هذه النقطة ، وسرت صاعداً مع نهر الأمونو أوزاك ، لأمكنك أن تختصر عشرة أميال من مسيرك .

وجعلت أكتب وصف الطريق الذى يعتزمون السير فيه ، وأبيّن علاماته المميزة : فهنا تل مميز الشكل يشبه قمع السكر ، وهناك تل آخر ترك الجليد عليه آثارا دائمة ، ومن بعده جرف هائل على شكل الضفدع ، ثم شجرة بلوط أحرقتها صاعقة .

كان يذكر أعجب التفاصيل عن الطريق : يعرف

أين تعترض شجرة ميتة سير جدول صغير ، وأين تقع الشلالات ومدى ارتفاعاتها وأطوالها ، وأين توجد فى التلال أوكار النسور ومهابط الأوز وأعشاش العصافير . . . لم يكن قد نسي شيئاً مما رآه ، وأدهشني كيف لم ينفجر رأسه لكثرة ما حشاه بالمعلومات ، التى يستحيل على أى رأس آخر أن يحتفظ بها على توالى السنين .

ورسمت عشر نسخ من الخريطة المطلوبة ، ولما انتهيت منها تناولها روچرز ، ونزعها من الدفتر ، ثم دسها فى عب سترته .

فسألته : ألا يحسن أن أحتفظ معى بالدفتر ؟

قال وهو يهز رأسه : لا . . لأنى سأبعث بك مع الصول آقرى ، فأنت أكثر منه خبرة بقراءة الكرونومتر ومعرفة الاتجاهات ، وأخشى أن يضل الطريق إذا سار وحده .

وحاولت أن أتظاهر بعدم الاكتراث .

أردف يقول : لقد نلت من العلم مالم ينله آقرى ، والعلم يكسب صاحبه ثقة بنفسه ، وأظن أن فى خروجك معه مصلحة مشتركة ؛ فآقرى ضابط نشيط ، وبودى أن يصل سالما ، ولكن إذا أصابه مكروه ، يكون فى مقدورك أن تحسن قيادة جماعتك .

وأردت أن أقنعه بأنني لست متعلما كما يتوهم ، ولكن اختلاط الأمور شتت أفكارى ، فوجدتنى مرة أفكر فى ماكنوت ، الذى وصفنى ذات يوم بالجهل المطبق ، وأخرى أستعيد ذكرى هنك مارينار ، الذى غابت صورته عن ذهنى أياما طويلة ... تارة أفكر فى الزبابيث ، ثم فى بيتنا ، وتارة أخرى أفكر فى أخى أوديورن ، الذى أوصانى بأن أحضر له هنديا مستأنسا .

وكان روچرز يرقبنى باهتمام ، ثم لم يلبث أن قال وهو يبتسم فى عطف : دع القلق واطمئن ، فأنت تتميز عن الآخرين برغبتك فى الحياة . هؤلاء جميعهم لا هم لهم سوى أن يعيشوا ، ولكنك تريد أن تحيا لترسم ، ومن العسير على الموت أن ينال رجلا يستهدف بالبقاء غايات واضحة .

الفصل الرابع والثلاثون

تحققت نبوءة الصاغ عن الجو ، فقد كان الصفاء الذى تمتعنا به نذير عاصفة قادمة . ولما طلع الفجر ، هبت ريح شمالية شرقيّة عاتية ، تسوق أمامها ضبابا داكناً ، لم يلبث أن أحاط الأشجار بغلالة رمادية مقبضة ، وأسقط أوراقها إلى الأخاديد والغدران فى سيل جارف .

وغلبنى التشاؤم من هذا الإقليم بأشجاره المتداعية ، وأرضه الوعرة ، وضبابه الأسود ، ورياحه المولولة . . ثم غدرانه التى تهدر فى كل الاتجاهات ، بحيث لا يستطيع أحد أن يعتمد عليها فى اكتشاف طريقه . . وفوق هذا كله شعرت بالانقباض لقرب افتراق عن چيمس بتشام وأوجدن وبرادلى وروچرز ، وغيرهم من أولئك الذين رافقتهم أياماً كثيرة ، وتوثقت عرى الصداقة بينى وبينهم ، على عكس أفراد الجماعة الأخرى .

وكانت وجبة إفطارى تتألف من اثنتى عشرة حبة من الذرة ، فأكلتها ، ولكنها لم تبعث فى نفسى إحساساً بالرضا ، وأنا أتبع أوجدن وچينى فى رحلتنا الشاقة : نصعد التلال ،

ونهبط الأخاديد ونخوض الأراضى الغدقة . وجاء الظهر وكأننا لم ننتقل من مكاننا قيد خطوة : فالتلال هى التلال ، والأشجار هى الأشجار ، والأخاديد لا تختلف فى شدة انحدارها وصلابة أحجارها . . ولم يتغير مما حولنا سوى العاصفة ، فقد استحال الضباب مطرا باردا ، ينهمر فوق الأوراق الميتة ، التى كانت عالقة بأشجارها المبتلة ، فلم تلبث الرياح أن انتزعتها من فروعها ، وأسقطتها على الأرض فيما يشبه السيل المنهمر .

وأوقفنا روچرز فى حمى جرف قائم ، وأرسل چاكوبز وكونكاپوت إلى الربوة للحراسة والاستطلاع . ولم أر داعياً لتشديد الحراسة على هذا النحو ، لأننا لم نكن نعتزم الوقوف فى مكاننا طويلا ، ولكنى لم ألق بالا لما جال بخاطرى ، فقد علمنى طول معرفتى بروچرز كيف أثق بإصراره على اتخاذ أسباب الحيطة ، وأسلم بكل ما يفعل ، حتى إذا بدا لى سخيفاً لا معنى له .

وجاءت وقفتنا فى بقعة من الأرض ضالة المعالم : فأمامنا أربعة تلال قائمة ، بينها أخاديد تقود إلى مزيد من التلال المتشابهة ، وتتخلل هذه التلال جداول وأخاديد أخرى تتلوى وتنثنى فى اتجاهات لا تحصرها العين .

وعندما أمرنا روچرز بالوقوف ، اصطف الرجال أمامه فبدوا مثل قطيع أفسد الإنهاك حاله : كانت ملابسهم قد اسودت بعد ابتلالها بالأمطار ، وقلانسهم الاسكتلندية مشدودة فوق رءوسهم إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه .. ولحاهم وبنادقهم يقطر الماء منها ، وسيقانهم تبدو مشوهة الشكل لكثرة ما انحشر فى أحذيتها وقلاشينها من أوراق الشجر ... وبانت الرقع الملونة التى رتقوا بها ثيابهم فى سانت فرانسس ، فتنافرت الألوان ، وانعدم الانسجام .. وظهر أثر الإرهاق واضحاً فى وجوههم الضامرة ، ولحاهم المشعثة ، فأصبحوا كأنهم صور لقديسين رسمتها أقلام فنان بدائى ... ووقف البيض من الجنود يحملقون دهشة فى هنود ستوكبريدج حين رأوهم يجلسون القرفصاء ، ثم يُخرجون مراياهم وأصباغهم ، استعداداً لتزيين أجسادهم وطلى وجوههم .

وأقبل الضباط والتفوا حول روچرز .

لم يكن فى مظهرهم ما يميزهم عن جنودهم ، فملابسهم ممزقة ولحاهم مشعثة ، شأنهم شأن بقية المتطوعين ... باستثناء كروفتون ، الذى دأب أخيرا على السير منحنيا ، وذراعاه متدليتان أمامه ، كأنه يعتزم تقليد القرود فى سيرها على الأربع . وكان كحيوان

الغاب يسترق النظر إلى ماحوله ، والروائح الكريهة تنبعث بشدة من حقيبته المنتفخة ، حتى اشمأز رفاقه وتقززت نفوسهم ،رغم جهلهم بما يحمله بين طياتها . كان أسوأ الرجال شكلا ، ومعنى ذلك أنه كان على حال لايمكن وصفها ؛

ولم يبد على المرأة الألمانية ورفيقتيها مسز كويت وسارة هاتون سوى علائم التعب ووهن السنين ، وكانت شعورهن المبتلة تتدلى على وجوههن الضامرة فى خصل رفيعة كأذناب الفئران . أما مسز ويلك ذات الأقدام الحافية ، فكانت تذكرنى بقطة متهالكة ، وكانت بالفعل تحرك قدميها العاريتين مثل القطة ، وفى ذات الوقت ترقب الفتاة چينى كويت بعين لا تغفل .

ومسح روچرز بظهر يده قطرات المطر عن خده وأنفه ، وبقيت قطرات أخرى تنــدى جفنيه المتهدلين تحت عينيه .

قال يسألنا جميعا : أما زلتم عند رأيكم ؟

ولم يجب أحد على سؤاله ، مما يدل على تمسكهم برأيهم الأول .

قال : حسنا ! أرى أن نُقسم أنفسنا إلى اثنتى عشرة مجموعة ، والأفضل أن يسير عددٍ من المجموعات على مسافات

متقاربة ، حتى إذا عثرت إحداها على صيد تستفيد به الأخريات ، ففى مثل هذه العاصفة تختفى الحيوانات ، ويصبح الصيد متعذرا . أما النساء فيسرن مع خمسة من المتطوعين وخمسة من الهنود إلى كراون بويفت رأسا ، لأن الطريق إليها ، وان كان دربا طويلا ، غير أن الصيد فيه أكثر وفرة وأسهل منالا . ولا أظن العدو يهتم بمطاردة عدد ضئيل منا .

ونظرت النساء بعضهن إلى بعض فى استسلام وخضوع ، أما چينى فقد اقتربت من أوجدن وأسندت خدها إلى ظهره .

قال روجرز : الملازم سولومُون والجاويش كلارك يقودان النساء ، وعلى كل منهما أن يختار خمسة رجال لمرافقته فى هذه الرحلة .

والتفت إليهما يقول : خـــذا رجالكما ، وابدأوا الرحيل فوراً ، وإياكم أن تتمهلوا فى السير حتى تنتهوا من الدوران حول ممفراماجوج ، ثم تتجهوا صوب الجنوب الغربى ، لازموا الغدير الواقع هناك ، وبعدكم بلحظات نبدأ نحن أيضا .

واختار كل من كلارك وسولومون أتباعه الخمسة ، وشدوا جميعا متاعهم وتأهبوا للسير فى طريقهم : وساقت

المرأة الألمانية المنديات الثلاث أمامها ، وحملت مسز كويت إبريقها الذى لم تستعمله مرة ، وظلت مسز ويك تحرك قدميها العاريتين بين أوراق الأشجار المبللة ، ثم قالت وهى تشير إلى چينى فى حقد وضغينة : هذه الفتاة يجب أن تأتى معنا .

وحملق روچرز فى أوجدن لحظة ثم قال بحدة للفتاة ذات الشعر الأصفر : ماذا تنتظرين ؟

ورفعت الفتاة عينيها إلى أوجدن ، وجذبت ذراعه ، ولكنه استمر ينظر فى الفضاء أمامه .

وعادت تشد ذراعه مرة أخرى ، ولما لم يبد منه اهتماما بأمرها ، طوحت متاعها فوق ظهرها ، وتقدمت إلى الأمام وانية ، كأنها لا تقوى على السير . وضحكت مسز ويك فى صوت كالعويل ، وجعلت تضرب ركبتيها بيديها سروراً ، فسارت چينى الهوينا حتى وصلت إليها ، ثم أمسكت بشعرها فجأة ، وجذبته إلى أسفل . وانكفأت العجوز على الأرض تئن ، وعندئذ أكملت عليها الفتاة بركلة شديدة .

وأسرع روچرز يجرى نحو چينى ، وجذبها بعيدا عن عدوتها العجوز ، وشد مسز ويك وأوقفها على قدميها ، ثم أدار الاثنتين ، ودفعهما فى ظهرهما بيديه الكبيرتين .

قال : لو كنت منكما ما استنفدت جهدى فى العراك ، فأنتما فى أشد الحاجة إلى كل ذرة من قواكما لتصلا إلى كراون پوينت ، ومن الخطأ أن ترهقا نفسيكما فى الكراهية والبغضاء . اقتصدا قواكما ، وهيا إلى الأمام .

ولم تنطق واحدة منهما بكلمة ، أو تلتفت خلفها ، إنما سارت الاثنتان تتعثران وراء الجماعة التى كانت قد بدأت تختفى خلف ستار الأمطار الهاطلة .

ولم تمض برهة حتى تحرك صف طويل ينتظم أربع مجموعات متتالية ، وكان يقود هذا الجيش الصغير الملازمون فارنجتون وكامبل وكورجل ثم أحد الجاويشية ، كل منهم يسير على رأس مجموعته المكونة من رجال عشرة ؛ ووجّههم روچرز صوب الجنوب الشرقى فى طريق الأمونو أوزاك ، وما إن ابتعد آخر جندى منهم مائتى ياردة عن الربوة ، حتى غاب عن عيوننا وراء غلالة الأمطار المنهمرة .

وجاء نصيبى مع العصبة التالية ، وكان علينا أن نتجه إلى شرق المجموعات الأولى ، ومن بعدنا تجىء عصبة روچرز ذات الثمانية والثلاثين رجلا . وكان قوام عصبتنا أربع مجموعات تحت قيادة دانبار وتيرنر وچنكيز وآفرى ، فانضممت إلى الصول آفرى ، وذهب بقية الضباط ليقرروا مع أى مجموعة يسير هنود ستوكبريدج الخمسة .

وكان آفرى فتى صغير السن لم تنبت لحيته إلا حديثا ، قال يهمس فى أذنى : أنت لا تعرف رجالى حق المعرفة ، ولولا ما يعانون من جوع ، لأدهشك تفوقهم على جنود الجيش كله ؛ ولكنهم يضعوننا الآن فى مؤخرة الصفوف لأنى أصغر الضباط سنا ، فآه لو أمكننا أن نتقدمهم بطريقة ما ، حتى ترى كيف يجيد رجالى التسعة إصابة أى هدف يلوح أمامهم .

ثم عاد يقول بلهجة الفخر الزائد : فى استطاعتهم أن يصيبوا السنجاب الطائر فى ظلام الليل ... يردونه قتيلا وهو طائر !

ولم أكن أتتبع حديثه بانتباه ، لما يعتمل فى نفسى من ضيق وقلق ، نتيجة لابتعادى عن مجموعة روچرز . ويبدو أن آفرى كان أيضا فى شدة الضيق ، فقد صاح مرتين بحدة يستحث دانبار على البدء بالسير ، ولم يكن هذا تصرفا لائقا ، فقد حرص روچرز على معاملة البريطانيين — ودانبار أحدهم — بمنتهى اللباقة والأدب .

وصاح روچرز يقول بصوته الأجش : هيا ... هيا إلى الأمام ..

وبدأنا نتحرك .

كنت وآفرى فى مؤخرة جماعتنا المؤلفة من عشرة

رجال ، ونظرت إلى روچرز على أمل أن أسمع منه كلمة وداع ، ولكنه خيب رجائى ، فقد بدا أنه نسى كل ما يتصل بوجودنا ، وسار فى طريقه لا يبالى ، حتى استدار فى اتجاه الربوة ، ثم جعل يصفر من بين أصابعه ليدعو چاكوبز وكونكاپوت .

وأخذ الماء يتسرب إلى ظهرى من فتحة الرقبة ، وكان آقرى يسير بجوارى متثاقلا ، بسبب الوحول التى تحيط بقدميه وتعرقل خطواته .

قال يطمئننى : سوف تحمد الله على أنك معى ولست معهم ، فرجالى الآن جياع ، ولكنك سترى منهم العجائب حالما يجدون ما يسدون به رمقهم .

وشاءت الأقدار ألا أرى هذه العجائب المنشودة منهم .

الفصل الخامس والثلاثون

لم أر أرضا أسوأ من شرق ممفراماجوج ، ولا إقليما أوعر منه على رجال تضطرهم ظروفهم إلى الإسراع . فالعادة أن تكون هناك علامات يستدل بها السائر على اتجاهه حين هبوب العواصف ، كغدير أو نهر يسير بجانبه ، صعوداً أو هبوطاً بمعونة البوصلة ، ولكن ممفراماجوج كانت غير ذلك : تلالها متقاربة متشابهة ، والريح تنحرف بينها ثم تدور فى دوامات ، وبدل أن ينزل المطر على جانب واحد من التل ، تراه يسقط فى كل الاتجاهات ، فتنمو الطحالب أيضاً فى كل مكان ، بدل أن تقتصر على الجانب الشمالى كالمعتاد . أما غدران الإقليم فترى أربعة منها فى مدى نصف ميل ، كل منها يسير فى اتجاه مخالف ، وقد ينحرف الغدير فى زاوية قائمة لغير سبب ، أو يستكمل فى سيره دائرة كاملة فى مسافة قصيرة . وكانت الوديان التى تجرى فيها الغدران شديدة الانحدار متغيرة الاتجاه وعرة المسالك ، كما لو كانت يد صانع مجنون هى التى حفرتها .

وسرنا بقية اليوم فى خط ثعبانى الشكل : نلف مع

الأخاديد ، وندور حول التلال والجروف . وبدأ الرجال يخرجون عن الصف بين آن وآن سعيا وراء الصيد ، مما جعل مهمة القيادة عسيرة فى السيطرة على شرودهم ، وإعادتهم إلى صفوفهم . وشعرت كأننا لم نتقدم شيئا مذكورا ، فثارت نفسى وتجددت هواجسى ، لبطء المسير وعويل الرياح وقسوة الأمطار وآلام التعب ، وتصورت أننى إذا تقاعست عن التقدم لحظة فلا بد أن تطأنى أقدام القادمين ورائى .

ولم تطل فترة العصر فى ذلك اليوم كثيرا ، فسرعان ما حولته سُتُر المطر وظلال السحب المنخفضة إلى غسق يبعث الحزن ويقبض القلب . ولحقت جماعتنا بجماعة چنكنز ؛ فإذا هم يتهيئون للمبيت ؛ عندئذ نظرت إلى الكرونومتر الذى أحمله معى ، فوجدت الساعة قد تعدت الثالثة بقليل ، ولما أخبرت آڤرى بالوقت ، انطلق فمه بسيل من اللعنات ، وقال يسأل رجاله : ما هذا ؟ لماذا تتوقفون ؟

قال أحدهم : سنعسكر هنا ..

صاح آڤرى فيهم بحدة : دعوا متاعكم على ظهوركم حتى نستقر على رأى .

وأسرع إلى حيث كان دانبار وتيرنر يساعدان رجالهما على الاستقرار فى المعسكر ، وقد اختاروا مكانا تنحدر بعده

الأرض نحو أخدود عريض ، لا تكاد العين ترى جانبه الآخر ، من وراء غلالة المطر ولقلة النور .

قال لدانبار : ألا نستطيع أن نتقدم قليلا ، فالساعة لما تبلغ النصف بعد الثالثة .

قال دانبار فى صوت خفيض متعب : الساعة لا تهم ، فالظلام يكاد ينتشر . ألم تر الأخدود الذى يمتد أمامنا ؟

وقادنا نحو حافة الأخدود ، وكان حقيقة أخدوداً وعرا ، عمقه نحو مائتى قدم ، وشاطئه من ناحيتنا شديد الانحدار قليل الأشجار ،أما من الناحية الأخرى فكان صخريا أشد وعورة وانحدارا . وكانت المسافة بين الحافة التى نقف فوقها والأخرى المقابلة لها ، لا تقل عن ستمائة ياردة ، وبين الحافتين يجرى نهر فضى اللون ، سريع الاندفاع .

قال دانبار : لو أقدمنا الليلة على عبور هذا النهر ، لتعرض بعضنا للغرق ، أوقد تضيع بنادقنا أو يبتل بارودنا على الأقل ، أما لو بقينا إلى الصباح ، فالراحة تعيننا على احتمال المشقات ، ونور النهار يساعدنا على تلافى الأخطار .

واستدار آفرى ورفع عينيه يفحص السماء ، ثم عاد ينظر إلى الأخدود فى تأمل وتدقيق .

وأقبل الملازم تيرنر يفحصه معنا ، وأخيراً التفت آفرى

إلى تيرنر ، وقال فى حيرة واضحة : لماذا تريد المبيت فى هذه البقعة ؟ إنها مكان لعين .

قال تيرنر : ربما كان ذلك ، ولكن الرجال أصبحوا على أسوأ حال ، وليس أسهل من أن تتحطم سيقانهم فى هذا المنحدر الوعر .

وسألني آفرى عن رأيي ، فقلت : إنه مادام الضوء كافيا ، فالواجب أن نعبر الأخدود الليلة ، إذ أن استمرار هطول الأمطار بهذه الشدة ، لابد أن يرفع مستوى النهر بعد وقت قصير ؛ وإذا انتهينا الليلة من هذه المهمة الشاقة ، فإن الرحلة تهون غداً ، فنستطيع أن نقطع مسافة أطول .

والتفت آفرى إلى دانبار ، وقال له بلهجة الاعتذار : وهذا رأيي أيضا أيها الملازم .

قال دانبار وهو يومئ برأسه : أنت وشأنك أيها السيد آفرى ، لن أحاول أن أمنعك من السير ، فكل منا مسئول عن جماعته ، وليس هناك ما يلزم أحدنا بطاعة الآخر .

ورأيت فى كلمته الأخيرة غمزة ، فقد كان يريد أن يفهمنا أنه حر فى تصرفاته ، وليس فى نيته أن يعمل بمشورة آفرى أو غيره .

قال آفرى : حسنا ! حسنا !

ثم أردف يقول بعد تردد قصير : سنحاول الصيد على الجانب المقابل من الأخدود ، ونبقى هناك حتّى تتمكنوا من اللحاق بنا فى الصباح .

فقال دانبار : لا داعى لانتظارنا ، فربما حاولنا أن نصيد أسماكا من النهر لإفطارنا ، أو بعض الحيوانات التى تهيم فى هذه المنطقة . . . لا تشغل بالك بأمرنا ، وسوف تجدنا على مقربة منكم قبل حلول الظلام .

وصاح آقرى فى رجاله يدعوهم إلى التقدم ، فلما رأوا الأخدود ، دكوا قلانسهم فوق رءوسهم ، وشدوا أحمالهم إلى ظهورهم بحرص .

قال لهم : لابد أن نعبر هذا الأخدود الليلة ، فخذوا حذركم فى النزول ، وتأكدوا من مواطئ أقدامكم قبل أن تتحركوا .

وتقدمنا آقرى إلى الأخدود ، وهبط على الجانب المنحدر منزلقا ، وقد أمسك بفرع شجرة حتّى لا يسقط .

وانزلقت خلفه ، وحاولت أن أغرس قدمى فى شبكة من الفروع الجافة ، فانكفأت على وجهى ، واصطدمت بإحدى الأشجار صدمة موجعة . وبينما كان آقرى يساعدنى على الوقوف ، لمحت وجهى دانبار وتيزنر ، وهما يرقباننا

من فوق حافة المنحدر ، فقلت فى نفسى : لعله منتهى الجنون أن نعبر الأخدود الليلة ، ولكن لا فائدة الآن ، فقد فات الوقت ، ولم يعد فى الإمكان أن نعود على أعقابنا .

وهبط الرجال وراءنا ، وهم يتعثرون ويسقطون مرة بعد مرة على المنحدر المنزلق المبتل ، وكنا كلما تعمقنا فى الأخدود ، يهدأ صوت الرياح ، ويرتفع هدير المياه ، فلما وصلنا فى النهاية إلى قاعه ، رأينا التيار الأبيض يغمر الصخور ويمر فوقها مسرعا ، كما اتضح لنا من شكل تلك الصخور كم هى ملساء ناعمة زلقة .

وخيل إلى ، عندما جذب تيار الماء قدمىّ من تحتى ، ثم ألقانى على صخرة فى برودة الثلج ، أن دانباركان أرجح عقلا منا ، ولكنى وصلت بالرغم من ذلك إلى الشاطئ المقابل دون أن تزداد ملابسى بللا عما كانت عليه فى البداية .

ونظرت خلفى إلى المنحدر الذى تركناه وراءنا فلم أر أحداً عليه ، وكانت قمم الأشجار الرمادية تكاد تختفى وراء ستار المطر المنهمر ، فلا تستطيع العين أن ترى منها شيئا فى عتمة الغسق .

وانحنى بعض الرجال على الصخور الواقعة عند حافة الماء ، يقلبها عسى أن يجد بينها ما يملأ به بطنه الخاوى ، ولكن

الجهود ذهبت سدى ، ولم يعثر أحد على ما يسد به رمقه .

وسمعنا اقتراحات بإقامة المعسكر على جانب النهر ، حتى يتأتى العثور على السمك فى ضوء النهار ، ولكن آقرى عارض الفكرة .

قال : ثقوا أن الصيد فى هذا النهر مستحيل ، ولن تجدوا فيه شيئا مهما فعلتم ، فالسمك لا يقبل على ابتلاع الطعم فى عاصفة كهذه ، والصيد لا يتحقق إلا فى برك هادئة التيار ، ولعلنا نمر غداً ببعض منها .

قال أحد الرجال فى تعجب : وهل توجد البرك فى منطقة كهذه ؟

وضحك آخر بصوت ضعيف لسخافة السؤال بعد ما مررنا ببرك لا حصر لها ، وظل يضحك ويضحك ، مثلما تفعل الفتاة الصغيرة حينما تصيبها نوبة ضحك لكلمة سخيفة لا معنى لها .

وضحكنا معه جميعا على سبيل العطف والمجاملة .

قال آقرى : حسنا ، لسنا فى أسوأ الحالات بعد ، فكلنا بخير ، ولم يمت منا أحد إلى الآن .

وبدأنا نشق طريقنا صاعدين الجانب الثانى من الأخدود ، فنتشبث بالأعشاب والفروع القليلة ، ونثبت أقدامنا بين

صخور حادة الأطراف موجعة . وكان الضوء أضعف من أن يكشف لنا أكثر من خطوات قليلة أمامنا ، وكنا كلما اشتدت وعورة الأرض وازداد انحدارها ، نتوقف برهة حتى تكف أرجلنا وعضلاتنا عن الارتجاف .

وعندما اعتلينا المرتفع ، نظرت خلفى ، فإذا بوهج أحمر ينبعث من الحافة الأخرى .

صاح آڤرى يقول : انظر ! والله إنه لمشهد لم تره منذ وقت طويل !! لابد أنهم يطهون أحذيتهم القديمة وسراويلهم المهلهلة !! ولو أن روچرز رآهم يفعلون ذلك ، لثارت براكين غضبه ، وصب عليهم من اللعنات أفظعها وأقبحها .

وزحف إلى الأمام يبحث عن مكان نعسكر فيه ، فوجد مخبأ صالحا وسط دغل فى حمى الصخور . ولعلمنا بصعوبة الحصول على حطب للوقود ، لم يمر ذكر النار على لسان أحد ، بل تزاحمنا جميعا فى المخبأ الصغير ملتصقين بعضنا ببعض ، ومن فوقنا الأغطية المبللة . وقد يتبادر إلى الذهن أننا نمنا بهذا الشكل طلبا للدفء ، ولكننا لم نكن نقاسى من البرد بعض ما نقاسيه من التعب والإرهاق ، فالعادة أن الجو إذا خلا من الصقيع ، لا تلبث الأجسام أن تحيط نفسها ببخار دافئ مقبول ؛

وكان معى نحو نصف كوب من حبوب الذرة ، ومع آفرى عشرين حبة تقريبا ، أما الآخرون فلم يكن معهم سوى القليل . فجمعنا الموجود كله ، ووزعناه على الجماعة حبة حبة ، حتى نفدت الكمية ، فنال كل منا ثمانى حبات ، ونال ثلاثة أنا منهم ، تسعا .

وبالرغم من شعورى بما فى امتيازى هذا من خسة ونذالة ، وجدتنى ألتهم حباتى التسع جميعا .

* * *

ظلت الريح تزأر طول الليل ، والأمطار تنهمر ، وتضرب الأشجار فتسقط أوراقها . وقبل أن ينبلج الفجر بوقت طويل ، كنا قد نلنا كفايتنا من النوم ، واستيقظ الرجال ، وأخذوا — وهم ما زالوا تحت أغطيتهم — يخففون من بؤسهم وتعاستهم بالحديث المثير عن أصناف الطعام التى تنتظرهم فى الأمونوأوزاك ، وما اعتادوا أن يأكلوه فى مثل هذه المناسبات . . ذكروا چون آسكن بائع المؤن الخاص بالمتطوعين ، وتمنوا لو جاء مع الرجال إلى القلعة ... تذاكروا النبيذ الأحمر الذى اختص آسكن ببيعه ، ثم « السجق » الطرى ولحم الخنزير الدسم ... فطائر الشكولاته وأقراص الجبن الأحمر . . . ثم السيجار اللذيذ الوارد من جزر المحيط الهادى ... ثم الروم المركز الذى يشرب من الزجاجة مباشرة ، فيبعث فى الأبدان والعقول نشاطا ونشوة .

ولما بانت أضواء الفجر ، وأمكننا أن نرى أيدينا أمام عيوننا ، كنا قد استرحنا قرابة ثلاث عشرة ساعة ؛ فزحف آفرى من وسطنا إلى الخارج ، وعصر الماء من قلنسوته المبتلة ، ثم طوى غطاءه فى لفة يقطر الماء منها .

قال : سنحاول الصيد من أول بركة نقابلها ، ولكنى أشك كثيرا فى فائدة ذلك ، فالريح ما زالت على حالها لم تتغير .

وكأنما طرأت فى رأسه فكرة ، إذ جعل يحصى على أصابعه بسرعة ، ثم قال : يا إلهى ! ما تاريخ اليوم ؟ أهو الخامس عشر حقا ؟

قلت : إنه كذلك .

قال : إن الهلال الجديد على وشك الظهور ، وإذا لم تهدأ هذه العاصفة خلال الساعات المقبلة ، فسيظل الجو سيئا طوال رحلتنا إلى الأمونو أوزاك .

وتعالت من الرجال المشغولين بطىّ متاعهم أنات الضيق ، وبصق بعضهم على الأرض غضبا .

وسار آفرى صوب حافة الأخدود ، وتوقف صوت خطواته على الأرض المغطاة بأوراق الأشجار ، وكان توقفها مفاجئا ، فساورتنى الشــكوك ، وقمت واقفا أستطلع الخبر .

ووجدناه على بعد خمس عشرة خطوة منا ، يقف جامداً ، وقد أسند إحدى يديه على فرع شجرة ، وظلت الأخرى منتصبة فى الهواء قرب قلنسوته . كان فى وقفة الصياد حين يقع بصره فجأة على غزال قريب . وظننت أنه عثر بالفعل على الغزال المنشود ، فالتقطت بندقيتى وتسللت نحوه ؛ ولكنه مرق فى لمح البصر متواريا وراء الدغل ، وسقط على ركبتيه ، وجعل ينظر إلى بوجه شديد الامتقاع .

وترامى إلى سمعى صوت مريع ينبعث من الأخدود الذى نقف أمامه ... صوت بشرى حاد ، تلته صرخات نصفها عويل ونصفها يشبه عواء الذئاب ، فاقشعر بدنى ، وأحسست بجلدى ينكمش على جسدى .

ووصلت إلى جانبه ، فأخذ بندقيتى ، وأفرغ ما بها من البارود والرصاص ، حتى لا تنطلق .

ونظرت إلى الأخدود ، فرأيت قاعه يعج بأشباح تتحرك ، واستطعت أن أتبين رجالا يرتمون منحدرين بين الأشجار على الجانب المقابل ،وآخرين يهرولون فى هرج على حافة النهر .

وهمس آقرى فى أذنى يقول : لقد نالوهم جميعا ! إنه كمين لن ينجو منه أحد !

وتكشفت فوضى الأخدود أمام عيني ، فرأيت فى أوله وآخره جماعتين من الهنود المصبوغين بالأسود والأحمر ، رجالها يختفون وراء الصخور وخلف جذوع الأشجار ؛ أما الجماعة التى تهبط المنحدر مسرعة فكانت من رجال دانبار وچنكنز وتيرنر ، وقد انبث بينهم بعض الهنود والجنود الفرنسيين فى ملابس أزهى خضرة من ملابس المتطوعين .

كان هناك ما لا يقل عن مائتى رجل بين هندى وفرنسى . وإذا أفلت متطوع من النطاق المحيط به ، وانطلق إلى الأخدود يبتغى الهرب ، ينبرى له أحد الهنود الكامنين وراء الصخور وخلف الجذوع ، ويشق جسده ببلطته .

ورأيت دانبار على حافة النهر يقاتل ثلاثة من الفرنسيين ، ويحاول أن يدافع عن نفسه بالسونكى ، والظاهر أن بارود البنادق كان مبتلا ، إذ لم تنطلق رصاصة واحدة من الفريقين على السواء . وفجأة خرج هندى من بين أمواج النهر المتدفق ، وانسل خلف دانبار ، وشج رأسه ببلطته ، ثم قفز فوقه قبل أن يسقط على الأرض ، وضغط بإحدى ركبتيه على جسده ، وفى مثل لمح البصر فصل رأسه عن جسده .

ومن بين هذا الجمع المختلط ، والفوضى السائدة ، انطلقت صيحات ألم ارتج لها قلبى . وتفصد العرق من بدنى . . .

كان هناك هنديان فى طرف الأخدود يمسكان متطوعاً من قدميه ورأسه ، وبينهما ثالث يقطع أوصاله وهو ما زال حياً يصرخ .

قال آڤرى : لا تسمح لأحد من الرجال بالقدوم إلى هنا ، وعليك أن تستحثهم على السير لفورهم ، فليس فى وسعنا سوى الابتعاد بأسرع ما يمكن ، وإلا ....

ولم يتم جملته ، إذ لم يكن هناك داع لإتمامها .

ولقد توالت هذه الأحداث كلها بمنتهى السرعة ، حتى إننى عندما عدت إلى المعسكر ، كان الرجال يحشون بنادقهم ، وهم ينحنون فوقها ، ليستروا البارود بأجسامهم من المطر المنهمر .

قلت وقد أقبلوا نحوى : أسرعوا بشد رحالكم وطى أغطيتكم .

فقال واحد منهم : ألا نمد لهم يد المعونة ؟

قلت : أعداؤنا مائتان ، ونحن أحد عشر ، ثم إنهم أبعد من مرمى رصاصنا ، ولو لحوا شعرة منا ، فلن يكون نصيبنا سوى الدمار الماحق . إن آڤرى يأمر بالرحيل فوراً .

وأقبل علينا آڤرى فى تلك اللحظة أصفر اللون متخاذلا .

قال وهو يتناول بندقيته : لم ينج واحد منهم ! لقد قضوا عليهم جميعا ، وهم الآن يلعبون الأكر برءوسهم !

* * *

من المستحيل أن يتنبأ الإنسان بالغيب ، فقد كان محتملا أن نصل بسلام ، لو لم نصد تلك البقرة الوحشية ، فلولاها لأمكننا أن نلحق بروچرز ، ولو حدث ذلك ، لقاسى هو المحنة ، الأمر الذى لا يرضى به واحد منا .

والواقع ألاّ فائدة ترجى من فرض مثل هـذه الاحتمالات ، ثم تقدير نتائجها ، فالتفكير فيها يملأ القلب بالجبن ، ويمنع الإنسان من الإقدام على أى عمل ينطوى على خطورة .

بدا لنا أنا وآقرى أنه من الأفضل لوغيرنا اتجاهنا إلى الشرق ، فمن المؤكد أن روچرز سلك هذا الاتجاه ، وإذا أسرعنا المسير قليلا فيمكننا أن نلحق به ، ونبلغه بما فعل الفرنسيون والهنود ، ليكون على بينة ، فيأخذ حذره .

ولقد ظلت الريح شمالية شرقية طوال اليوم ، وقطرات المطر تضرب وجوهنا ، فتضاعف ما نعانيه من مشقة فى سيرنا نحو الشرق . وكان الجوع قد صور لى أننى لم أشبع يوما فى حياتى ، ولن أشبع يوما إلى مماتى . وعلى الرغم من خلو بطوننا ، كنا نسير بلا توقف : نخوض مجارى الماء ، ونهبط المنحدرات زاحفين . . . نتعلق بالصخور والأشجار صاعدين ، وننتزع أرجلنا انتزاعا من الأراضى الغدقة ...

نفعل هذا كله ونحن لا نكف عن الالتفات وراءنا ، خيفة أن يكون العدو فى أعقابنا .

ولم نطرق حديث السمك مرة أخرى ، إذ كنا قد فقدنا رغبتنا فى أكله ، ولم يعد لدينا وقت لصيده ، ولا وقود لطهوه . وكانت مشكلة النار تقلقنا ، فرائحتها تسير أميالا مع الرياح ، وإذا أوقدناها ونحن فى اتجاهنا الشرقى هذا ، يشمها الفرنسيون الذين قتلوا دانبار ورجاله ، فيسرعون إلينا ليفعلوا بنا ما فعلوا بهم .

كانت رائحة النار بمثابة الفنار الذى يقودهم إلينا .

وتوقف المطر فى اليوم التالى ، وكان السادس عشر من شهر أكتوبر ، ولكن الرياح ظلت تهب من الشمال الشرقى عاتية ، فيتردد لها من بين غصون الأشجار وقممها عويل شديد . ورأينا بعد الظهر آثار أقدام تتجه إلى الجنوب الشرقى ، وكانت تدل على أنها جماعة يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثين وأربعين ، فتأكدنا أنها جماعة روچرز المكونة من ثمانية وثلاثين رجلا . وزاد يقيننا لصحة ذلك حين رأينا آثار بعض الأحذية فى الوحول ، وقد برزت أصابع أصحابها من ثقوب نعالها .

وتتبعنا تلك الآثار ، وقد طغى علينا سرور عظيم ، وعاودنا بعض الاطمئنان ، وازدادت سعادتنا حين أخذت

الرياح فى الهدوء تدريجيا ، حتى سكنت تماما عند الغروب .
وعندما تزاحمنا معا ونحن نرقد تلك الليلة ، لننال ما نستطيع
من راحة ، لمحنا بعض النجوم تلمع من بين شتات السحب ...
وكانت نعمة من الله ، فمنذ أن رأينا نهاية دانبار ، ونحن
لا نجرؤ فى نومنا على تغطية رءوسنا وأيدينا ، خوفاً من
المفاجآت ، وزيادة فى الحذر .

ولكن صفاء الجو جلب معه الصقيع ، فتجمدت أغطيتنا
المبتلة ، ولكى ننقذ أنفسنا من تلك المحنة ، كسونا أغطيتنا
بطبقة سميكة من أوراق الشجر .

وأقبل الصباح ، فخرجنا من تحت أغطيتنا زاحفين ،
وسرنا نترنح كالسكارى . وكانت الرياح قد انقلبت جنوبية
دافئة ، فأسرعنا السير مرحين ، يملؤنا الأمل فى قرب لحاقنا
بروچرز ، واحتمال عثورنا على صيد عندما يزداد الدفء ،
بالإضافة إلى سهولة الرحلة إلى الأمونو أوزاك .

ولم ير واحد منا أى فأل سيئ فى عثورنا على البقرة
الوحشية ، إذ لم تكن فى نظرنا أكثر من حيوان خرج يبحث
عن غذائه ، بعد أن هدأت العاصفة وساد الدفء .

وكان آقرى أول من رآها وهى تصعد ربوة أمام
الدغل ، فرماها برصاصة أصابت رأسها ، وما إن تهاوت

على الأرض ، حتى كنا نحن الأحد عشر رجلا نجثم فوقها في مثل لمح البصر .

ومع أن لحم البقر الوحشى عديم الدهن قليل الغذاء ، غير أنه لحم على كل حال ، ولم نكن قد تذوقنا لحما منذ أتينا على آخر ما معنا من السجق البولونى ، قبل هجومنا على سانت فرانسس بيوم واحد . وظللنا بلا طعام خلال هذه الأيام الأحد عشر الماضية ، لا نأكل شيئاً سوى قليل من حبوب الذرة ، فما إن سقطت البقرة حتى كان آفرى ينحرها ، والرجال يعملون مديّهم فى أكفالها .

قال آفرى وهو يحاول أن يمنعهم : تعرفون أن أكل اللحم النيئ طازجا يورث المرض ، ولن تستطيعوا السير وأنتم مرضى .

قال أحدهم : لقد أكلت ما هو ألعن من هذا وأسوأ !

واستمر ورفاقه فى تقطيع البقرة .

كانوا يعتزمون ملء بطونهم الخاوية ، ولم يكن من سبيل إلى منعهم من تحقيق هذه الغاية .

قال آفرى : الأفضل أن نسلخ جلدها لنصنع منه أحذية ، ونخرج الكبد لنطهوها ونسد بها رمقنا ، ثم نقسم الباقى فيما بيننا ، لنأكله الليلة حين نلحق بجماعة الصاغ . وبهذه الطريقة لا يمرض أحد منا .

وتراجع رجل عن الذبيحة وجلس القرفصاء ، وبين يديه قطعة من لحم تقطر دماً ، ثم قال : ليذهب الطهو إلى الجحيم ! كل ما حولنا خشب أخضر لا يصلح وقوداً .

وصاح به آفرى يزجره : اترك هذا اللحم يا هيجنز .

وأطاع الرجل فى تردد وتراخٍ .

قال آفرى : أستحلفكم بالله ألا تأكلوا شيئاً من هذا اللحم النيئ ، لقد مررنا بمنطقة فيها حطب يصلح وقُودا ، ولم نبتعد عنها بعد ، فتعال معى يا هيجنز أنت وبيترز وتاون نجمع نحن الأربعة بعض الفروع الجافة .

واستمر الرجال يسلخون أرجل البقرة فى بطء .

وصاح بى آفرى يقول : هيا بنا !

وكان بيترز وهيجنز أكثر الرجال تصميما على التهام اللحم نيئاً ، ولذلك تبعانا فى تراخٍ وكسل .

ونصحنا آفرى بحشو بنادقنا ، ثم قال : قد يكون ذكر هذه البقرة قريبا منا فى انتظار أنثاه ؛ وقد يثيره غيابها فيهاجمنا بوحشية .

وسرنا فى الطريق الذى جئنا منه ، وما إن قطعنا نحو مائتى ياردة ، حتى وصلنا إلى المكان الذى وصفه آفرى .

واخترنا شجرتين وبدأنا نشذب فروعهما ليسهل علينا حملهما ،

وكان عملا شاقا على رجال يفتك بهم الجوع . ومضينا فى عملنا حتى كدنا ننتهى من مهمتنا ، وفجأة رفع آقرى نظره إلى وقال متسائلا : ماذا تقول ؟

ولم أكن قد تكلمت .

قال : خيل إلى أنك جرحت نفسك !

ونظر إلى پيترز وهيجنز وهما يعملان بجد فى قطع الفروع ، ثم اقترب منهما وقال : ماذا حدث ؟ سمعت أحدكما يصيح ألما .

وتطلعا إليه فى دهشة واضحة .

وأدار آقرى رأسه نحوى ببطء ، وفى عينيه نظرة عجب ، ثم تركنا وخرج يعدو من الدغل متتبعا الطريق الذى جئنا منه ، ثم رقد خلف نشز من الأرض .

ورأيته يسترق النظر نحو المكان الذى ترقد فيه البقرة الوحشية ، وعندئذ تبلجت الحقيقة المروعة أمامى فجأة ، حين رأيته يرتمى على الأرض .

لقد وقعنا فى كمين ، كما وقع من قبلنا دانبار وتيرنر وچنكنز .

وألصق آقرى بطنه بالأرض ، وعاد زاحفا إلى الوراء ، ليستتر معنا بالدغل .

قلت : اقضوا عليهم ؟

قال وهو يهز رأسه نفيا : لا ... لن يقتلوهم ومعهم هذا اللحم كله ... سيأخذونهم أسرى ليحملوه لهم ، ثم يقضون عليهم عندما تنتهى مهمتهم .

وقام محنى القامة ، واتجه إلى اليسار .

قال : علينا الآن أن نلحق بروجرز . .

روجرز ! ...

كان مجرد ذكر هذا الاسم يبعث فى النفس شعورا بالأمن والطمأنينة .

الفصل السادس والثلاثون

زحفنا نعبر الطريق الذى جئنا منه كأشباح أربعة : نستتر بالمنخفضات ، ونحتمى بالصخور ، ونحرص على ألا نترك خلفنا آثارا تدل علينا ، حتى توارينا وراء ربوة صخرية ، وارتمينا على الأرض فى هذا المخبأ ، وجعلنا نرقب العدو من بين شجيرات الدغل : كانوا ثلاثين فرنسيا ، ومعهم اثنا عشر هنديا ، يسوقون رفاقنا السبعة نحو الشمال الشرقى . لقد جعلوا من زملائنا دوابّ ، وحملوهم قطعا ضخمة من لحم البقرة ، وحُزما من جلدها ، وكذلك رأسها وأرجلها ، فى حين اكتفى الفرنسيون بحمل بنادقهم ، وساروا خلف رجالنا ينخسونهم بسناكيهم ، وسط عاصفة من الضحك والتهليل .

ولم يكن فى وسعنا أن نفعل شيئا ، فلو أننا هجمنا عليهم لننجد منكوبينا السبعة ، ما توانوا لحظة عن شج رءوسنا بالبلط .

قال آقرى بمرارة : هذا يفسر ظهور البقرة أمامنا .. كانت تفر من طريقهم .

ونظر إلىّ فى يأس ظاهر وقال : من كان يتوقع أن يسبقونا هكذا .

قلت : أتعنى أننا كنا نتتبع آثارهم ؟

قال : لا ، طبعا ! لقد أقبلت علينا البقرة الوحشية من اتجاه مائل على خط سيرنا ، وهو بلا شك الاتجاه الذى قدمت منه هذه الجرذان الفرنسية . إنهم جزء من الجيش الذى أحاط بدانيار ، وقد أُرسلوا فى أعقابنا عن هذا الطريق المختصر ، ولولم يقابلونا هنا لواصلوا السير حتى يلتقوا بجماعة روچرز .

قلت : كنا سنلتقى بهم على أى حال ، فلماذا تلوم نفسك على صيد تلك البقرة ، ما كان لإنسان آخر أن يفعل غير ما فعلت .

وزادت تجاعيد الهم عمقا فى وجه آفرى الفتىّ ، فلم يكن فى الواقع أكثر من صبى ، لا يهمه الوقوع فى كارثة قدر ما يهمه ألا يرتكب خطأ .

وعندما غابت آثار الفرنسيين والهنود ، وتلاشى كل صوت لهم ، عدنا زاحفين إلى مكان البقرة ، نبحث عما يكون قد بقى منها ؛ ولكنا لم نجد شيئا ، ولو أن قطيعا من الذئاب انقض على تلك الفريسة ، ما نهش عظامها فخلاها من كل نسيلة من اللحم أو نتفة من الدهن ، مثلما فعل هؤلاء الناس ...

فقد أخذوا من رأس البقرة أنفها ولسانها ومخها وعينيها وأذنيها ، ولم يتركوا سوى جمجمة خالية من كل شيء .

قال آقرى : أعتقد أنهم أشد منا جوعا وبؤسا ... لكم تمنيت أن يقضى عليهم الجوع ويقتلهم عن آخرهم ؛ ولكن يبدو لى أن المحنة قد أصبحت من نصيبنا .

قال هيجنز بمرارة : لو أنك سمحت لنا بأكلها نيئة ، لامتلأت بطوننا الآن بما يسد رمقنا .

والتفت إليه آقرى يقول فى غضب شديد : أنت سنجاب غبى ، عديم العقل والتفكير ، بل إن السنجاب أرجح منك عقلا لأنه يفكر فى غده .... نعم كان من الممكن أن تملأ بطنك باللحم النيئ ، ولكنك لو فعلت ذلك ، لأصابك المرض ووقعت أسيرا ، ولن يطول بك المدى فى الأسر ، فغدا يمزقون جسدك بالبلط ... والله إن هذه الدنيا مليئة بالأغبياء ، الذين لا يحمدون الله على نعمة الحياة .

وكأنما خففت هذه الغضبة من ثورة نفسه إذ بدا بعدها أحسن حالا ، وبمنتهى اليقظة والنشاط تولى قيادتنا فى درب يتجه نحو الجنوب الشرقى . وتجلت لنا ضرورة الإسراع ، إذ بدت الرياح تغير اتجاهها عائدة إلى ما كانت عليه وقت العاصفة الماضية ، واكتست السماء بسحب داكنة تنذر بأمطار قادمة .

ولحقنا بجماعة روچرز قبل حلول الظلام بساعة ، وعرفنا بوصولنا إليهم ، حين مرقت رصاصة تصفر فوق رءوسنا ، ثم تلاها طلق يدوى بين الأشجار ، فيتردد له صدى وسط التلال . ووقفنا فى مكاننا ، ورفعنا البنادق عالية فوق رءوسنا ، وتلفتُّ حولى أبحث فى كل مكان عن حارس المؤخرة الذى أطلق هذه الرصاصة ، ولكنى لم أر أحداً ، حتى خرج كونكاپوت من وراء شجرة ، وأشار بيده إلى شخص خلفه . ولبى الإشارة الجاويش برادلى ومعه چيس بتشام ، إذ خرجا من مخبئهما يعدوان ، ووقف ثلاثتهم فى انتظارنا ... والحقيقة أن منظرهم هز مشاعرى بعنف ، فما كنت آمل مطلقا أن أرى هذه الوجوه العزيزة مرة ثانية . وعندما اقتربنا منهم نظروا فى دهشة إلى جمجمة البقرة التى يتأبطها آفرى .

وتطلع برادلى إلى ما وراءنا وقال : وأين بقية جماعتك ، يا سيد آفرى ؟

أجاب : وقعوا فى الأسر !

ثم أردف يقول بلهفة : كم يبعد الصاغ عنا ؟

والتفت برادلى إلى كونكاپوت وقال له : اذهب إلى الصاغ ، وأخبره بأن القادمين هم آفرى ولانجدون تاون ومتطوعان آخران .

ثم تناول رأس البقرة من آڤرى وقربه من أنفه ، ثم قال فى تعجب : إنه طازج ، فأين بقيته ؟

أجاب : أخذها الفرنسيون .

وانطلق فم برادلى بسيل جارف من السباب المقذع ، ثم أشار لآڤرى أن يسير أمامه ، فتبعتهما أنا وچيس .

سألتُ چيس : أما عثرتم على طعام إلى الآن ؟

قال فى بطء وتأمل : لا ..

وسار بجانبى صامتا ، ثم قال بعد تفكير : لا .. لم يكن الجو ملائما للصيد .

ورمانى بنظرة سريعة من تحت حاجبيه الغزيرين ، وقال : كيف هربتم منهم ؟

قلت : مجرد حظ ! ولقد نجونا مرتين : الأولى عندما قضوا على دانبار وتيرنر وچنكنز .

قال چيس فى رنة الحزن : دانبار وچنكنز والرجال جميعهم ؟ أمر محزن للغاية ! ولكنى سعيد أن تمكنتم من الهرب أنتم الأربعة ، ويحسن الآن أن تخبر الصاغ بما عندك .

ووجدنا المتطوعين يعيدون تنظيم صفوفهم ، وكان الصاغ قد أمرهم بالتفرق على شكل هلالى حين سمع طلقة كونكاپوت ، ووقف روچرز مع أوجدن والملازم جرانت فى الوسط ينتظرون قدومنا .

كان للمصاعب والمحن التي اعترضت طريق حياتنا خلال الأيام القليلة الماضية أثرها المضنى فينا ، فما إن وقفت أمامهم حتى غمرتني موجة عارمة من الحب والفرح ، كتلك التي كنت أشعر بها حين أرى أبي وأمي بعد غيبة طويلة .

وشملنا روچرز بإحدى نظراته الفاحصة .

وتأملته بدورى : كانت عيناه أكثر اتساعا من أى وقت مضى ، وفقدت قبعته ما بقى عليها من زينة ، ورُتق حذاؤه الممزق بشرائط من قماش؛ أما أوجدن فكان أحسن حالا . . . أصبح ضامرا نحيلا فحسب ، ولم يعد وجهه يشبه الجمجمة الخضراء .

قال روجرز : كيف نالوكم ياسيد آڤرى ؟

أجاب آڤرى : قتلنا بقرة وحشية ، ولما رجع أربعة منا للبحث عن وقود ، انقض الفرنسيون على الباقين .

سأله : أتقول رجع أربعة منكم ! لقد كان الفرنسيون إذاً أمامكم . . .

وأومأ آڤرى برأسه إيجابا .

قال روجرز : وكم كان عددهم ؟ وكم كنتم تبعدون عن مكان الحادث ؟ وأى طريق سلكوه بعد ذلك ؟

وأخبره آڤرى بكل ذلك ، فصاح بحدة فى برادلى يأمره بإرسال أربعة رجال يحرسون المؤخرة .

وعاد يسأل آقرى : أنستطيع اللحاق بهم ؟

وهز آقرى رأسه نفيا وقال : لا أظن ذلك ، فلديهم لحم البقرة يأكلون منه ، ثم إننا لا نستطيع التكهن بالمكان الذى قد نقابل فيه الجيش الأصلى ، ذلك الجيش الذى ذبح دانبار وتيرنر وجميع من معهم من الرجال ، ومثل بهم أبشع تمثيل .

وانتفض الصاغ وصاح : ما هذا الذى تقول ، وماذا تعنى ؟

وندت عنه أنة ألم ، كأنه أصيب بضربة قاصمة ، وقال : متى حدث ذلك ؟ وهل قضوا عليهم جميعا ، وكيف عرفتم بما حدث ؟

قال آقرى : رأينا الموقعة فى الصباح التالى لافتراقنا عنكم . . كنت قد عبرت الأخدود مع رجالى وبقى دانبار ومن معه على الضفة الأخرى ، وعند الفجر هجم العدو عليهم ، واضطرهم إلى الاحتماء بالأخـــدود حيث كمنت لهم بقية الجيش . . ولم ينج واحد منهم .

وحملق روجرز فى آقرى وقال له : أكنت من القرب بحث رأيت الموقعة ؟ كم كان عدد رجال العدو ؟

قال آقرى بصوت يرتجف ، وقد بانت عليه امارات الإغماء : رأينا نحو مائتين ، وكنا أحد عشر رجلا .

وشعرت أن الوقت قد حان لأدلى بنصيبى فى المسئولية .

فقلت : كانوا أبعد من مرمى رصاصنا ، فلم يكن لمعونتنا قيمة على الإطلاق ، ولو أنهم رأونا ، لقضوا علينا بدورنا .

وأومأ روجرز برأسه ، ثم نحّ ليجلو صوته ، وقال : هل أمعنوا فى تعذيبهم ؟

قلت : نعم يا سيدى إلى أبعد الحدود .

وسمعت همهمة بجانبى ، فالتفتُّ نحوها ، وإذا بكروفتون رابض على الأرض كالدب الصغير ، وقد قيدت يداه ورُبط بحبل طويل . وكان يهز جسده كالدب من جانب إلى جانب ؛ وهو ينبش الأرض بأظافره .

قال روجرز غاضبا : ألم آمركم بأن تبقوه دائما فى المؤخرة ؟ خذوه واربطوه فى شجرة ، ودعوه يحفر الأرض ما شاء .

قلت أسأل چيس : هل جُنّ ؟

أجاب : نعم .. عثر الصاغ على ما كان يخفيه فى حقيبته من لحم بشرى ، فأخذه منه .. ومنذ تلك اللحظة تملكه شيطان النبش فى الأرض ، وأصبح لا يفكر إلا فى حفر الأرض بيديه بحثا عن قطعة اللحم . ولولا ذلك الحبل الذى يسحبونه به كلما ساروا ، ما ترك مكانه ، وظل ينبش ويحفر دون انقطاع .

ورفع روجرز عينيه إلى السماء ، ثم أنزلهما إلى جمجمة البقرة التى يمسكها برادلى ، وقال : عظيم . . . إليكم خطتنا الآن . . . أمامنا تلآن بينهما وادٍ صغير ، وليس بيننا وبين حلول الظلام أكثر من ساعة ، فهلم بنا نسر إلى نهاية الوادى ، ثم نوقد ناراً ونهيئ بجوارها المعسكر . وفى خلال الساعة الباقية من النهار نحاول أن نصيد شيئا نطهوه مع هذه الجمجمة ونصنع منه حساء . وإذا كان أحد رجال آقرى قد تمكن من الهرب ، فسيعرف مكاننا من وهج النار وأصوات الطلقات . أما إذا كان الفرنسيون قد أصروا على متابعتنا إلى هذا المكان ، فلن نبخل عليهم بكافة صنوف الأذى قبل أن يتمكنوا من إلقاء نظرة واحدة علينا .

وكنا فى حاجة إلى طعام يكفى اثنين وأربعين رجلا ، فانطلقنا إلى الصيد فى دائرة واسعة حول المعسكر ، حتى جاء الظلام تصحبه أمطار غزيرة . . ولما التأم شملنا حول النيران ، كانت حصيلتنا من الصيد تتألف من ثلاثة أزواج من القطا وخمس بومات وصقر وغراب وقنفذ وثلاثة سناجب حمر . . . جميعها ممزقة الأوصال بفعل رصاص البنادق . . . ووضعنا الصيد كله مع رأس البقرة فى ثلاثة قدور مما جئنا به من سانت فرانسس ، وسلقناه على النار ،

ثم قسمنا السليق على الرجال بالتساوى على قدر الإمكان ؛ فكان نصيب الفرد منا ملء ثلاثة أقداح من الحساء . . . ولم يكن الحساء فى الواقع من الدسامة بحيث يضر من أسقمه الجوع مثلنا ، ولست أشك أيضا فى أنه كان يثير التقزز فى نفوس زملائى بهارفارد ، الذين أقاموا الدنيا وأقعدوها بسب الفطائر المحشوة بلحم الأرانب ... ولكنه كان شرابا ساخنا أفادنا كثيرا ، وبعث فى أوصالنا قوة على تحمل الأمطار المنهمرة دون تذمر ... بل إننا كنا أقرب إلى الشعور بالشبع حين جلسنا حول النيران نجرش ما بقى فى القدور الثلاث من عظام صغيرة .

وجعل روچرز يدور حول الرجال ، وهو يحذرهم بقوله : لا تبتلعوا هذه العظام وبطونكم خاوية . وإلا ثقبت معداتكم ونفذت منها ... لا تبتلعوا العظام ... لقد أصبحنا قريبين من الأمونوأوزاك ، فاصبروا قليلا ...

وعبثا حاول چيمس بتشام أن يقرض قطعة من جمجمة البقرة ، فلما أعيته الحيلة ، جعل يؤكد أنه على استعداد لبيع نفسه مقابل صحن ملئ بالثريد الساخن ، وسيكون الرابح فى هذه الصفقة .

* * *

كان المعسكر وسط دغل من أشجار الجوز البرى ، فلما طلع الصباح ذهبنا نبحث عما قد يكون باقيا من ثمارها ، وهى ثمار صغيرة ذات قشرة سميكة صلبة . وكان عملا شاقا ،

خصوصا عقب سقوط المطر ، فلم يكن فى استطاعة الرجل منا أن يجمع حفنة منها إلا بعد ساعة من العمل الشاق ، فإذا أزال قشورها لا يبقى من ذلك القدر ما يشبع عصفورا .

وبينما نحن فى بحثنا عن الجوز ، سمعنا صيحات الحراس القادمين بصحبة أندرو ماكنيل وأندرو وانسنت ، وهما متطوعان من السبعة الذين أسرهم الأعداء فى اليوم السابق . وكانا خلواً من البنادق والأغطية والقلانس وأكياس البارود وأقماعه ، ولم يكن عليهما من الملابس سوى السراويل ، أما نصفهما الأعلى فكان عاريا مليئا بالجروح والخدوش ، كأنهما وقعا فى براثن قطط متوحشة .

وتكأكأنا حولها نصغى لقصتهما . وبادرهما روچرز بالسؤال عما إذا كان الفرنسيون ما زالوا جادين فى البحث عنا ، وأجاب ماكنيل بالنفى ، وقال إنهم فى طريق عودتهم شمالا ، وإنهم جياع لم يذوقوا طعاما منذ أيام ؛ وملابسهم ممزقة كملابسنا ، حتى إنهم استولوا على ثياب وانسنت وماكنيل ليرتقوا بها ثيابهم .

وقال ماكنيل إن المتطوعين الخمسة الباقين لم يقتلوا بعد أو يعذبوا ، وانه على الرغم من جهله بلغة الفرنسيين والهنود ، استطاع أن يفهم من إشاراتهم أنهم يعتزمون الإبقاء عليهم أحياء ليحملوا لهم اللحم والمتاع على طول طريق عودتهم إلى

كندا، ثم يتركوهم بعد ذلك لعجائز القرية يفتنّون فى تعذيبهم .

وقال أيضا : إن الفرنسيين أعطوهم بعض قطع من العظام يقرضونها ، ثم ربطوا كل اثنين معا ظهرا إلى ظهر ، وقد تمكن ماكنيل من إخفاء جانب من عظمة حادة الطرف ، ولما أقبل الليل جعل يحك بها الحبل الذى يقيده مع وانسنت ، حتى تمكن من قطعه بعد ساعتين ، ثم حل وثاقه وانسل مع زميله مستتريْن بالظلام بعيدا عن الجنود النائمين .

قال : لولا ضوضاء الأمطار والرياح ما أمكننا أن نفلت منهم

وقال وانسنت : لست أدرى إلى هذه اللحظة كيف أمكننا الهرب .

وأردف ماكنيل يقول : ونحمد الله أن الصاغ أوقد تلك النار ؛ فبعد أن ابتعدنا عن العدو مرحلة كافية ؛ تسلق وانسنت ؛ عند منتصف الليل ؛ شجرة عالية ؛ فرأى وهجاً ضعيفاً يبدو من بعيد، وقد بعث فينا هذا الوهج قوة جديدة ، ومنحنا مزيداً من الجلد على احتمال السير إليكم .

وشعرنا ونحن ننظر إليهم كأنهم أموات واريناهم التراب ، ثم إذا بهم يشقون قبورهم ويبعثون منها أحياء .

قال ماكنيل يسألنا : ألديكم ما نأكله ؟

وأعطيناهما قليلا من الجوز البرى ، وكانت يدا ماكنيل

على أسوأ حال ، إذ تآكل اللحم من فوق أصابع يده اليمنى ، حتى بانت العظام وما حولها من أربطة العضلات .

وما إن تناول الجوز حتى رماه فى فمه ، وجعل يجرشه بأسنانه ، ثم يلوكه لبًّا وقشرا .

* * *

فى ذلك اليوم ، وكان الثامن عشر من شهر أكتوبر ، بدا الإقليم الذى نخترقه على شر حالاته : فالغدران ومجارى المياه تسير فى كل اتجاه ، ومهب الريح يتغير مرة بعد مرة ، حتى لم نعد نثق بدلالته . ومع أن بعض الناس يسترشد فى اختراق الغابات باتجاهات الطحالب النامية ومواقع المجارى المائية ، إلا أن معالم هذه المنطقة لم تكن تدل على شىء ، ولولا البوصلة التى نحملها ما أمكننا أن نسير فى الاتجاه الصحيح .

قال روجرز لأوجدن ، وهو يهز رأسه حيرة من أمر الأمطار التى تأبى أن تنقطع : الأفضل أن نبنى معسكرنا هنا ، ثم نحاول أن نطعم هؤلاء الرجال شيئا . دع نصفهم يصيد سمكا ، وكلف الآخرين بإشعال النار والحراسة . . . وعلينا أن نجفف أغطيتنا المبتلة ، حتى إذا تحولت هذه الزوبعة إلى موجة من الصقيع ، أمكننا أن نتقى بعض المتاعب المقبلة .

قلت لجيمس بتشام ألفت نظره إلى حديث روجرز : متاعب ! بعض المتاعب المقبلة !

قال جيمس بعد تفكير : الحقيقة أننى لا أفهم قصده ، ولكنه مصيب فى رأيه دائما ؛

ولمح روجرز سنجابا ، فأرداه ببندقيته ، ليتخذ منه الرجال طعما للسمك . .

وعند أول نهير وصلنا إليه ، أخرج الرجال الخيوط والشصوص ، وبدأنا نصيد فيه ؛ ولكن الأسماك كانت صغيرة لا يزيد طول أكبرها على خمس بوصات ، وأفواهها الصغيرة لا تتسع لشصوصنا الكبيرة . وبعد طول عناء أمسكنا بضع مئات منها . ولصغر حجم هذه الأسماك وضآلة قيمتها الغذائية ، أمرنا روجرز أن نطهوها بنوع من الطحالب له لون رمادى مخضر . وكانت هذه الطحالب ذات رائحة كريهة وطعم مقيئ ، ولكنها معروفة بدسامتها ، ويقال إن سلقها مع الطعام كطهوه بالدهن والدسم .

وأمضينا مساء ذلك اليوم فى صـــيد السمك وجمع الطحالب ، وكان الجوع قد أنهك قوانا وشل أصابعنا وأيدينا ، فكانت الأسماك تفلت منا ونحن نحاول تخليصها من الشصوص ، ثم تنزلق من الشاطئ إلى الماء قبل أن

تسعفنا أيدينا البطيئة بإمساكها ثانية . وكان من المألوف أن ترى الرجال يجثمون على أربع عند حافة الصخور يحاولون استعادة الأسماك الساقطة ، فإذا بهم ينزلقون إلى النهر ويتخبطون فى مياهه . ولم يكن فى ذلك المنظر المتكرر ما يبعث على الضحك ، إذ كان همنا كله ينحصر فى القبض على أى سمكة صغيرة كانت أو كبيرة .

وأخيرا نضج سليق السمك مع الطحالب الصخرية ، فإذا بالحساء يشبه حمأة فى أرض سوق السمك . . ولم نقبل على ذلك الطعام تلذذا بطعمه ، ولكننا أكلناه ليبعث فى أبداننا من القوة ما يوصلنا إلى الأمونو أوزاك . . . ومهما كان طعمه كريها ، فقد كان طعاما يملأ البطون على أى حال .

وظل حديثنا طوال الوقت مقصورا على الطعام الذى ينتظرنا فى الأمونو أوزاك . . . نوعه وصنفه ، وشكله وطعمه . . . وهل نجد هناك جون آسكن ، مورد الطعام المشهور ، وهل يأتى معه بما لذ وطاب من المآكل التى اعتاد المتطوعون أن يشتروها منه ؟ . . . وأكد بعضهم أنه لا بد قادم ، وتنبأ الآخرون بغير ذلك ، وذهبوا فى تشاؤمهم إلى القول بأن الطعام المنشود لن يزيد عن الجراية المعتادة للجنود : لحم مقدد وكعك وبن وشكولاته وسكر وروم

ولكن هذه التفاصيل كلها لم تكن ذات بال ، وكل ما كان يعنى الرجال أن يجدوا فى انتظارهم طعاما . . أى طعام . .

* * *

. . فى اليوم التالى وصلنا إلى نهر أثار مرآه فى صدر الغلام الهندى بيلى ذكريات قديمة ؛ ولكنه أبى ، ككل بنى جنسه ، أن يعترف بما يخالج نفسه قبل أن يتأكد منه . وكان بيلى طيبا وكذلك كان زميله بوب ، فقد دأب الاثنان على حمل أغطية أوجدن وأمتعته مع بعض متاع روجرز ، وكانا ودودين كجروين صغيرين ، نحيلين من قلة الطعام . . . بطناهما منتفخان لكثرة ما يأكلان من حشائش وبراعم وقواقع وثعابين صغيرة . . وكانت تبدو عليهما مظاهر السعادة ، كأنهما نسيا دنياهما القديمة تماما ، وتعلقا كل التعلق بعالمنا الجديد عليهما .

وكان النهر الذى لاقيناه رقراقا له خرير مسموع ، يختلف عن غيره بصفاء مائه البلورى ، وجريانه فى اتجاه واحد نحو الشمال الغربى . . . ووقفنا فى حيرة أمام ذلك ، إنه كيف يجرى هذا النهر نحو الشمال فى اتجاه ممفراماجوج ، بعد أن بعدت بنا الشقة عن مرتفعاتها ، وشارفنا مياه كونيكتيكات المنحدرة إلى الجنوب؟

وأخيرا أقر بيلى بأنه يعرف هذا النهر ، فقد سافر ذات صيف مع أمه من كونيكتيكات إلى ممفراماجوج متخذين هذا الطريق . وقال للصاغ إننا لو سرنا مع هذا المجرى ، نصل إلى بحيرة جميلة تتوسطها جزيرة ، وبعدها بميل واحد نجد نهر نولهيجان الذى ينحدر إلى نهر كونيكتيكات . وأكد الفتى أن المسافة بينهما قصيرة ، ثم وضع يديه على كرشه البارزة ، وقال فى رنة الاعتذار ان البطن الخاوى يعطل التفكير وقتا طويلا .

* * *

يعرف كل صياد أن هناك فترات من الركود يختفى الصيد فيها اختفاء تاما ، حتى ليصبح أمهر الرماة بلا حول ولا قوة أمام قسوة الغابة التى تبدو مجردة من حيوانها وطيرها . وتحدث فترات الركود هذه إذا طال الوقت برداءة الجو ، واستمر المطر أو الجفاف مدة أطول من المعتاد ؛ عندئذ تهجر الحيوانات والطيور مراعيها المألوفة ، وتتجه إلى أخرى لا تطرأ للصياد على بال ... فالقطا مثلا قد يهجر طعامه من براعم الجوز وأوراق التفاح الشائك وحسلاته ، ليتغذى على أوراق البلوط وثمارها ، الأمر الذى لا يمكن لصياد أن يتصور حدوثه ، ولهذا قد يموت صيادو الهنود جوعا وسط غابات مليئة بحيوانات وطيور لا يعرفون مكانها .

كنا نمر بإحدى فترات الركود هذه ، إذ لم يكن بالغابة سوى صنفين من البوم ، نوع صغير صوته كصرير المبرد فى الحديد ، وآخر كبير له عيون وحشية صفراء ... وكنا نعرض عن صيد البوم بنوعيه خشية أن تفزع طلقاتنا ما قد يكون موجودا من صيد أهم ، فضلا عن أن البوم أحقر أنواع الصيد شأنا ، وأقلها قدرة على تغذية آكلها ... فثلاثة أخماسها رأس ، وخمسها عظام ، ومعظم الباقى نعيق مزعج ... ولو أردنا أن نقدم لرجالنا الأربعة والأربعين شبح وجبة منها ، لاحتجنا إلى ثمانين بومة على الأقل ... ليس فيها من الغذاء أكثر مما فى الأسماك الصغيرة .. فكلا الصنفين لا دهن فيه ولا دسم :

ومع ذلك انتشر الرجال على جانبي النهر ، يسيرون فى بطء وحذر ، لعلهم يجدون غزالا أو بقراً وحشياً ، ولكن الحيوانات لم يظهر لها أثر ، وظلت البوم وحدها تطاردهم أينما ساروا ، وبين حين وآخر يلمحون نسراً يرفرف بجناحيه نحو هدف بعيد .

وظلت السحب الكثيفة تحجب السماء طول اليوم ، واكتست الغابة بحلة من العتمة المقبضة ، فانعكست كآبة الجو على نفوس الرجال كلهم إلا روجرز وأوجدن والصبيين ، فقد ظلوا على حالهم مستبشرين متفائلين ، ولكن استبشارهم

لم يجد صدى فى نفسى . وأدركت فجأة أنى لم أعد أومن بشيء : فقدت الأمل فى عثورنا على صيد ، وفى خروجنا من هذه الغابة ، وفى وصولنا إلى نهر كونيكتيكات . . . فقدت إيمانى بدفء الشمس ، واحتمال ارتداء ملابس جافة . . . ضاع أملى فى السعادة والراحة ، ويئست من العودة إلى بيتى وأهلى والزبابيث . . وحتى فى أثناء الراحة كنت أجلس شارد اللب حزينا ، كارها كل ما فى هذه الدنيا الكبيرة .

وكانت أحوال چيس بتشام وآفرى وبرادلى لا تختلف عن حالى : كنا لا نرد على ما يوجه إلينا من حديث ، وحتى إذا حدثنا روچرز بصوته الخشن وهو يسير باسما على طريقته القرصانية ، مؤكدا قرب خروجنا من الغابة إلى الأمونوأوزاك ، كنا لا نعلق على ما يقول بكلمة ، ونكتفى بالإطراق إلى الأرض صامتين .

وتحقق ما قاله الصبى بيلى ، وعثرنا على البحيرة والجزيرة وسطها ، ثم لقينا نهر نولهيجان الذى ينحدر نحو الجنوب الشرقى ، وسرنا واجمين صامتين ، كأننا أنصاف أحياء ، آمالنا معلقة بظهور غزال أو مهاة ، وعيوننا تبحث عنها دون جدوى .

وفى اليوم العشرين من الشهر ، انبعث أمل جديد ، رفع الروح المعنوية المنهارة : فبعد ما عبرنا أحد المرتفعات ، رأينا وراءه وادى كونيكتيكات ، يجرى النهر فى وسطه طويلا لامعا ، تعترضه المساقط المائية والمنحدرات السريعة .

كان ظهور هذا النهر يعنى قرب الوصـــول إلى الأمونوأوزاك وما فيه من طعام ، فضج الرجال بضحكات خائرة ، وتبادلوا الملح والفكاهات ، وهم يسيرون متعثرين نحو النهر البعيد .

* * *

تختلف سهول الكوهيز المجاورة لنهر كونيكتيكات عن سهول أى نهر آخر ، إذ تقع فى مستويين عظيمين على يمينه ويساره ، كأن النهر قد جرى مرة فى أعلاهما ورسب أرضا غرينية خصبة على جانبيه ، ثم انخفض بمجراه مرة أخرى إلى المستوى الأسفل ، ورسب أرضا ثانية عند قاع الوادى... فالشرفة العليا المستوية عريضة فى بعض الأماكن ، ضيقة فى الأخرى ، بتأثير مجارى النهيرات التى تنحدر نحو النهر الأصلى فتأكل بعض أجزائها وتترك الآخر ، مما يخلف مصاطب مرتفعة وسط السهل المنخفض .

كان السهل ضيقا متقطعا عند ملتقى نهرى نولهيجان

وكونيكتيكات ، ولكنه التأم واتسع نحو الجنوب ، حتى أصبح بعرض الوادى كله ... وكان جانب من هذه السهول ممهدا بطبيعته ، وجانب آخر مهدته أيدى هنود الشمال من قديم ، بعدما تبينوا أن أرض هذه المنطقة أخصب الأراضى التى يجوبون فيها وأغناها وأجملها .

ولما خرجنا من الغابة إلى السهل الضيق الذى يحف بمصب نوطهيجان ، رأينا الوادى ينحدر أميالا عدة ، تحده سلسلة من الجبال تشبه فى قممها الحادة المدببة ، جبال ممفراماجوج . وكانت السحب الداكنة ما تزال تغطى السماء ، ولكن ضوء النهار ، رغم ضعفه ووهنه ، بهر عيوننا وكاد يعميها ، فمنذ أن خرجنا من حلبة الرقص بسانت فرانسس ونحن نسير فى ظلال الغابات الكثيفة المعتمة .

وبينما نحن وقوف نحملق نحو الجنوب ، ونتساءل من أين ينحدر نهر الأمونوأوزاك وسط هذه الجبال ، حدث هرج فى مؤخرة الصف ، وإذا بكروفتون قد قرض قيوده وقطعها ، وعاد يجرى إلى الغابة التى خلفناها لتونا ... وكان يجرى كالحيوان على يديه وركبتيه . وصاح الرجال معا ينادونه ، فالتفت ينظر إليهم من خلف بعض الشجيرات ، كما يفعل الكلب العاصى ، ثم سار متباطئا نحو حافة الغابة ، وبعد أن تلفت حوله فى حذر ، انحنى على الأرض ينبشها بيديه ،

قال الملازم جرانت يستطلع رأى الصاغ : أأذهب لإحضاره ؟

وكان جرانت ضابطا طيب القلب دمث الأخلاق ، له عينان صغيرتان فيهما حوَل ، وكان دائما بدينا مستدير الوجه ممتلئ الخدين ، وظل كذلك حتى ذهبنا إلى سانت فرانسس ، أما الآن فقد ذهب شحمه وضمر لحمه وجف وجهه وتهدلت وجنتاه ، فأصبح أقرب إلى المومياء منه إلى الإنسان الحى :

وهز روجرز رأسه نفيا وقال : لن تتمكن من القبض عليه . . ولن يستطيع أحد اللحاق به ، فهو مجنون وباستطاعته أن يعدو إلى ما شاء الله دون توقف . .

واستقام كروفتون على قدميه عند حافة الغابة ونظر إلينا : كان كالدب فى وقفته ونظرته ، ولما لم يجد منا اهتماما بأمره ، ولم ير أحدا يتبعه ، قبع على الأربع مرة أخرى ، وجعل ينبش فى الأرض قليلا ، ثم التفت الينا فى توجس وحذر ، وبعدها توغل فى الغابة ببطء ، حتى اختفى فى غياهبها .

وكان لهذا الفراق المؤلم أثر سيئ فى نفوسنا ، فجعلنا يحملق بعضنا فى بعض فى شكل لا يبعث على الاطمئنان : ولأول مرة لاحظت أن روجرز محنى الظهر ، وكذلك كان أوجدن منذ مدة . وكنت أعزو ذلك إلى جروحه ، ولكنه

ظل منحنيا بعد أن تم شفاؤه . . وتلفتُّ حولى ، فرأيت أن الانحناء شائع بين الرجال ، فالملازم جرانت وچيس والجاويش برادلى پومپ الزنجى ومعظم الآخرين فى قاماتهم انحناء ملحوظ . . واتضح لى بعد إمعان أننى أيضا مثلهم ، وقد كنت كذلك منذ مدة لم أستطع تحديدها ، ولكنى لم ألاحظ ما أصابنى إذ لم يكن من عادتى أن أهتم بمظهرى . وأدركت السر فيما يدعونى إلى الانحناء على هذا النحو ، فقد كنت أشعر بألم ممض فى معدتى ، كأن أعصابها مشدودة لا ترتاح إلا بالانحناء . . . وحاولت أن أقيم ظهرى وأقف منتصبا ، ولكنى أحسست بتشنج فى أحشائى لم تخف وطأة آلامه حتى عدت إلى الانحناء ثانية .

ولم تكن ظهورهم المحنيّة كل ما لفت نظرى فى تلك اللحظة ، فقد اعتدت خلال الرحلة أن أرى رفاقى بلحاهم الطويلة وسوقهم العارية وملابسهم العجيبة ، وما لفوه حول أقدامهم من خرق وأسمال تحميها من الأشواك ؛ أما عيونهم فلم أرها على حقيقتها إلا فى هذه اللحظة : كانت غائرة تحيط بها دوائر حمراء داكنة ، حتى ليخيل إليك أنها ضغطت فى جماجمهم بحديد محمى . . . ومن وسط الدوائر الحمراء الداكنة كانت عيونهم تحملق فوق أنوف ذاب لحمها ،

فبانت كمناقير الطيور الجارحة ، وبين الحواجب تجاعيد عميقة توحى بهموم لا حدّ لها . . . وبهذه العيون الغائرة ، فوق الأنوف العجاف اكتسب الرجال – حتى چيس يتشام صاحب القلب الطيب – منظراً وحشيا مخيفا .

وتساءلت فى نفسى : هل تكون الوحشية التى نراها فى وجوه بعض الناس من فعل ما يعانونه من متاعب لا طاقة لهم بها ؟

الفصل السابع والثلاثون

سرنا بعد ذلك اليوم هابطين مع النهر إلى أقصى مدى في استطاعتنا .

وكان سيراً عسيرا بسبب فيضان النهيرات التي تعترض طريقنا ... ولم نصادف صيداً طوال الوقت ، كما لم نحاول صيد السمك من النهيرات الفياضة ولا النهر العكر ، خشية أن نضيع الوقت بلا جدوى ، وعلى ذلك جعلنا نسير ونسير بأمل ذلك الطعام الذي ينتظرنا في الأمونو أوزاك .

قال روجرز يجيب على سؤال لأحد الرجال : لم نعد بعيدين عن هدفنا الآن .

كان يتكلم بمرح ، فآمنا بقوله ، وجعلنا نستحث الخطى ونتعثر ونسقط ، ثم نقف لنسير من جديد .

وفي اليوم العشرين من شهر أكتوبر وصلنا إلى سهول الكوهيز الأصيلة ، وكان السير فيها أكثر مشـــقة على أبداننا الجائعة المنهكة من اختراق مجاهل ممفراما جوج . . . ولاقينا الأمرّين في تسلق المرتفعات ثم الهبوط منها ، وفي الدوران حول النهيرات والأخوار وخوضها . ٥ . وكانت

نظرة منا إلى الأفق البعيد توجع قلوبنا وتثبط هممنا ، بسبب البطء الشديد الذى نسير به ، ولم يكن مثل هذا اليأس ينتابنا ونحن نخترق الغابات ، إذ كانت الأشجار تحجب المسافات عن عيوننا ، ولكن السهل الذى خرجنا إليه ، كان يكشف أميالا لانهائية أمام عيوننا ، فنشعر أننا نسير ببطء القواقع .

وفى ذلك اليوم فقدنا الجاويش برادلى ، إذ جاء إلى روجرز يقول إنه ورجاله قد أشرفوا على الهلاك جوعاً ، ولذلك يفضل أن يجرب حظه فى الصيد بين التلال المتاخمة للسهول .

وكان فى منظره تحد واضح ، ولكنى لم أدهش لذلك ، فقد كانت الظروف المحيطة بنا ترسم على وجوه الرجال تعبيرات عجيبة لا تدل أحياناً على ما يعتمل فى صدورهم .

قال له روجرز : الأفضل أن تبقى فى صحبتى ، فلقد سرنا معاً وقتاً طويلا ، ومن المستحسن ألا نفترق ، فأنا لا أرى فى هذا الإقليم معالم المناطق الغنية بالصيد :

قال برادلى : ومع ذلك سنحاول الصيد فيها ، أيها الصاغ .

وانفصل رجاله عنا مبتعدين . . .

وكنا نتوقع أن يعود إلى اللحاق بنا مع هبوط الظلام ، أو يأتى فى اليوم التالى على الأكثر ، ولكن المساء أقبل وما زالوا غائبين . وكنا قد وصلنا إلى مخاضة سبق أن حدثنا عنها روجرز منذ أسابيع ، وقال إنها تقع بجوار جبل له قمة تشبه سرج الحصان ؛ وكان الجو بارداً ، وبدت التلال التى نعتزم اختراقها فى صباح اليوم التالى كأنها بحر خضم تجرى فيه أمواج زرقاء تنذر بالخطر . وبانت لعينىّ المقرحتين كأن الجبال تعلو وتهبط ، وقممها الحادة تتلوى وتتماوج .

وأقمنا فى الصباح كومة من الأحجار ، يستدل بها برادلى ورجاله على المكان الذى عبرنا منه النهر . ثم نزلنا إلى المياه الرقراقة السريعة نخوضها حتى وصلنا إلى الشاطئ الرملى المقابل . ونظرنا من موقفنا الجديد إلى المكان الذى خلفناه ، فإذا بصف صغير من الرجال يتجه نحو العلامة التى أقمناها للإرشاد .

قال روجرز : ها هو ذا برادلى قادم مع رجاله ، فيحسن أن ننتظره .

ووقفنا نرقب حركاتهم المتخاذلة وتقدمهم الوئيد ،

وكان من العسير أن نتصور أننا نحن أيضا كنا نسير ونتقدم فى تلك المنطقة بذات الإرهاق والبطء .

قال جرانت : إنهم ثمانية فقط !

وأمن أوجدن بقوله : نعم ، وليس بينهم برادلى !!

ولما كانوا فى الأصل عشرة غير برادلى ، فمعنى ذلك أنهم فقدوا ثلاثة رجال .

ورأيناهم يعبرون النهر فى أسوأ حال : إذا وقع أحدهم فى الماء ، يلقى عناءً شديدا حتى يعود إلى الوقوف على قدميه ، ثم يمضى به الوقت وهو يسعل ويلفظ ما ابتلع من ماء .. وكثيرا ما كان الرجل منهم يتعثر ، ويعود إلى السقوط مرة بعد مرة .

وأخيرا وصلوا إلى شاطئنا ، وخرجوا من الماء يزحفون فى ضعف كأنهم كلاب أوشكت على الغرق .

سألهم روجرز : أين برادلى ؟

أجاب كيلى الإرلندى ذو الشعر الأحمر : عاد إلى بيته وأهله أيها الصاغ ..

صاح روجرز يقول : بيته وأهله !! ؟ عم تتكلم ؟

أجاب كيلى : لقد ظل برادلى يؤكد أن سهول الكوهيز لا تبعد عن بيته فى مدينة كونكورد أكثر من يومين .. وأسرع

طريق إليها أن يتجه رأسا إلى كونكورد .. ووعدنا إذا سرنا معه بعشاء عظيم فى بيت أبيه !

قال روچرز : كونكورد ! ترى أين توهم موقعها ؟

أجاب كيلى : لقد أكد لنا الجاويش برادلى أن سهول الكوهيز تقع غرب الشمال الغربى لبيت أبيه فى كونكورد ، ولذلك حدد اتجاهه بالبوصلة نحو شرق الجنوب الشرقى .

قال روچرز بصوت مبحوح : ولماذا لم ترافقوه فى رحلته ؟

أجاب : لم نأنس لمنظر الجبال التى تعترض ذلك الاتجاه ، ولذلك قررنا أن نعود إلى طريقنا الأصلى ونتبع الصاغ .

والتفت روچرز نحو الشمال الشرقى ، ونظرنا معه من فتحة بين التلال ، فطالعنا الأفق البعيد وبه سلسلة من الجبال ، غطاها الجليد بطبقة فضية قاتمة ؛ فبدت كالسحب اللامعة .

وعاد روچرز يسأل كيلى : ومن رافقه من الرجال ؟

أجاب : پومپ هوپيل وليوپوت

ونظر روچرز إلى الجبال الجليدية البعيدة وقال : حسنا ! هيا بنا نستأنف مسيرنا إلى الأمونو أوزاك .

فقال كيلى فى صوت خافت : ترى ماذا يكون مصيرهم أيها الصاغ ؟

أجاب : فى غياهب التلال البيضاء !

وسكت برهة ثم قال : لقد لاحظت أخيرا أن براداى يربط شعره بشريط جلدى ويتزين ببعض الحلى الهندية ، ولعل أحداً من الناس يعثر فى الصيف القادم على قطعة من الجلد وبعض الخرز ، فلنضرع إلى الله أن يكون فى قلب ذلك الشخص بعض الإيمان ، فيدفن تلك الأشياء مع ما يجده بجوارها من بقايا العظام ... هيا بنا !

* * *

وتحققت نبوءة روچرز ، فوجدنا أنفسنا نسير فى درب مطروق لأول مرة بعد ذلك الدرب الذى سلكناه عند خروجنا من سانت فرانسس .

وسار بنا الدرب إلى سفح جبل مرتفع ، فرأينا وراءنا إقليما لا حياة فيه ، وأمامنا أرضا لا تقل عنه قفراً ، وبين هذا وذاك ينساب نهر كونيكتيكات وسط سهول خالية من كل كائن حى ...

وتذكرت فارنجتون وكامبل وكيرجل ، وتساءلت أين يكون مكانهم فى هذا الإقليم ، وهل ما زالوا ورجالهم أحياء ؟ أم تراهم يرقدون بلا حراك فى ركن بعيد . وأدهشنى كيف نسيت أمر هؤلاء الضباط ولم أعد أتذكر أسماءهم إلا بصعوبة...

وكان أمامنا وادٍ مشتجر يختلف منظره عن بقية الوديان التى مررنا بها ، وفى استطاعة العين أن ترى من بين أشجاره

مسافات طويلة نحو المكان الذى ننشده ، والطعام الذى أصحبنا فى مسيس الحاجة إليه .

قال روچرز : هاكم الأمونو أوزاك ... هاكم إياه !!

ثم شبك يديه فى حزام سترته الجلدية الممزقة ، وسار يخطر فى خيلاء من انتصر فى معركة طاحنة بعد جهاد شاق .

وأسرع كونكاپوت واليوزباشي چاكوبز يتسللان نحو النهر ، لعلهما يباغتان غزالا أو صيدا سمينا ، وكانا أكثر منا احتمالا للجوع ، فاحتفظا بنشاطهما وخفة حركاتهما ، فى حين أننا كنا نتعثر متثاقلين ، ودبيب أقدامنا على الأرض يحدث أصواتا عالية تنذر الطريدة وتدفعها إلى الفرار .

وأخيرا وصلنا إلى الأمونوأوزاك الموعود ، أو كدنا نصل إليه .

كان خيالى قد صوره لى جنة تجرى أنهارها بالشهد واللبن ، جنة يتخلص المرء فيها من كل أسباب الشقاء والتعاسة والجهاد الأليم ، فلما رددت الأجواء صدى طلق نارى ، أسرعنا نهبط المنحدر منزلقين ، كما لو كنا دعينا إلى وليمة عظيمة . وارتسمت فى مخيلتى وأنا أهبط المنحدر ، صورة غزال سمين ارتفاعه عشر قبضات على الأقل ، ووزنه يزيد على مائتى رطل . . غزال طويل عريض شحيم ، يصيب

منه كل واحد من رجالنا الثمانية والثلاثين رطلين كاملين من اللحم الخالص ، وكانت هذه الصورة التي رسمها خيالي أجمل مقدمة لما ينتظرنا من ألذ الأطعمة وأوفرها .

ولكن اليوزباشي چاكربز لم يستطع أن يصيد أكثر من نسر من نسور السمك ، وهو طائر حقير تفوح منه رائحة كريهة ؛ فسلقنا النسر جميعه برجليه وجناحيه وأحشائه فلم ينضج قبل نصف ساعة ، وصنعنا منه حساءً ساخنا نال كل رجل منه ملء قدح . وجاء دور تقسيم اللحم ، فوقف روچرز فوق صخرة مسطحة يرسم على جثة الطائر علامات يمكن معها تقسيمه إلى ثمان وثلاثين قطعة . وكان يمسك القطعة بيده المرتجفة ، ويخفيها وراء ظهره ، وعندئذ يصيح أوجدن باسم أحد الرجال ، فيقبل صاحبه ليأخذ نصيبه ... والنسر بصفة عامة ، لا يختلف عن كثير من الآدميين الذين يتمتعون بصيت عريض على غير أساس ، فهو بريشه وجناحيه رائع الصورة كبير الحجم ، فإذا تجرد من هذه المظاهر الخداعة ، يفقد ميزاته شكلا وموضوعاً ... وكان الجزء الأكبر منه يتألف من منقار ضخم وعظام وعضلات ورجلين ... فلم يستطع أحد منا أن ينال أكثر من قطعة لحم ضئيلة الحجم كريهة الطعم ، ولكنه كان لحما جامدا مطاطاً

يدوم فى فم الجوعان خمسة أمثال الوقت الذى يدوم فيه اللحم الطيب ، ولذلك وجدنا فى مضغه والتهامه متعة ترضى خيالنا الخصيب ، ولا ترضى بطوننا الخاوية .

وهبطنا الوادى ، فلم نجده — كما تخيلناه — يفيض بالشهد واللبن ، بل كان على العكس قفرا لا زرع فيه ولا ضرع ... وخضنا النهر مرة ثانية عائدين إلى نهر كونيكتيكات ، وسلكنا بعد ذلك دربا مهجوراً غسلته مياه الأمطار ، وسرنا فيه نجر أقدامنا بمشقة عظيمة ، فلم نقطع أكثر من اثنى عشر ميلا فى ذلك اليوم . وكان الرجل منا إذا تعثر وسقط على الأرض ، يظل جاثيا على يديه وركبتيه حتى يجد شجيرة يستعين بفروعها على الوقوف .

وكان ذلك اليوم هو الحادى والعشرين من شهر أكتوبر ، ولم نر فيه ولا فى اليوم الثانى والعشرين شيئاً يصاد ، لا نسراً ولا بومة ولا طائراً لا وحيواناً من أى نوع كان . ومضينا فى طريقنا نتعثر ونسقط ... ننكفئ على وجوهنا غير آبهين بما يصيبنا ، فكل خطوة نتقدمها تدنينا من الطعام المنشود فى الأمونو أوزاك . وبفضل تشجيع روچرز وصور الطعام التى تملأ خيالنا ، أمكننا أن نسير خمسة عشر ميلا فى ذلك اليوم .

كان روچرز يروح ويغدو أمام صف الرجال المتعرج ، وبين لحظة وأخرى يقول بصوت خشن كصرير المنشار . نظم خطاك يا كيلى ... ساعد زميلك فى النهوض من عثرته ... وأنت هناك يا ونسنت ، انهض وسر ... لقد أوشكنا على الوصول ... غدا نكون هناك بالتأكيد ... ماكنيل ! استيقظ من نومك يا ماكنيل ! ... لقد هانت المسافة وبتنا قريبين ...

وأمام تشنجات الجوع التى أصابت الرجال ، فأفقدتهم القدرة على الاتزان فى السير ، اضطررنا أن نعسكر بعد الظهر وكنت طول اليوم ، إذا ما اقترب الدرب الذى نسير فيه من حافة النهر ، أجد نفسى أميل بجسمى إلى الناحية الأخرى ، خيفة أن أسقط فى الماء . ولما حان وقت النوم ، ومددت جسدى على الأرض ، كانت يداى قد فقدتا حساسيتهما تماما وشعرت أن بالأرض قتادا يسبح فوقه جسدى المتعب ، وأردت أن أسأل چيس بتشام أهو يشعر بما أشعر به ، ونظرت من ركن عينى إليه ، فإذا به يرقد كالجثة الهامدة ، وقد برزت لحيته البيضاء قائمة فوق وجهه ، فعدلت عن سؤالى بعدما عجز لسانى عن وصف ما يدور بخلدى من أفكار .

وسمعت صوت روجرز يأتى من بعيـــد ... من بعيد جداً ... ولكم سمعت مثل هذا الصوت البعيد أيام مرضى فى صباى ، وكنت أسمعه يأتى من وراء الستر التى تحجب فراشى ، كأنه آت من خارج البيت .

كان يتكلم عن دخان ، وترددت كلمة « دخان » فى مسامعى مراراً ، ثم صحوت من نومى ، فقمت أزحف إلى المكان الذى يتحدث فيه روجرز مع أوجدن وجرانت وآقرى .

سمعته يقول بإصرار : أؤكد لك أنها رائحة دخان ... افتح فمك وأنت تتنفس ... تنفس بهدوء وبطء ... أليس هذا دخاناً !

وجعلت أشم الهواء وأستنشقه ، ثم وجدت الرائحة ... كانت رائحة خفيفة عطرية ... رائحة خشب يحترق .

قال أوجدن : يا للقديسين ! إنى أشمها الآن ، أيها الصاغ ! هى حقيقة لا شك فيها ... إنه دخان نار !

وسمعت جرانت يضحك فى عصبية ، ثم يشهق ليريح أعصاب أمعائه الخاوية .

قال روچرز بصوت يفيض سروراً : هناك مكان

واحد يأتى منه هذا الدخان ... لقد وصلنا ، وكنت على صواب ... ان الطعام هناك فى انتظارنا ! .. وبعد ظهر غد يصبح فى متناول أيدينا ! ... كنت واثقا من النصر فى النهاية ، وبفضل الله تمكنا من الوصول .

الفصل الثامن والثلاثون

وطلع اليوم الثالث والعشرون من شهر أكتوبر بسماء رمادية معتمة ، وريح صرصر تنذر بالثلوج ، وزحفنا الأميال الثلاثة الباقية من ذلك الدرب ، وتعثرنا غير آبهين برياح أو ثلوج ، بعد أن سمعنا طلقة بعيدة أعقبتها طلقتان سريعتان .

ولم يكن من سبيل إلى الشك فى أنها طلقات بنادق ، وأننا عدنا ثانية إلى أرض متحضرة ، تضم أصدقاءً ودفئاً ومأوىً .

ورفع روچرز ذراعيه انتصارا ، وأجاب على الطلقات البعيدة برصاصة أطلقها من بندقيته .

وسرت روح النصر فى الرجال ، حتى إن چيس بتشام صاح يقول بانفعال : ها نحن أولاء قادمون !

ثم أطلق رصاصة رأسية فى الهواء .

وصاح آفرى وهو يصوب رصاصة نحو غراب يطير فوقنا : أسرعوا بإعداد القدور للطعام !

وانحرف الغراب فى طيره ، وابتعد عن طريقنا فزعاً .

ومن بين الطلقات ، تعالى ضجيج الرجال وهم يصيحون

فرحا ، وجعل ماكنيل – الذى سلبه الفرنسيون بندقيته – يتوسل إلى زملائه أن يعيروه إحدى بنادقهم ، حتى يطلق رصاصة للتحية . وظل يطالب بحقه فى الاحتفال بالمناسبة السعيدة ، مع أنه كان أسوأ الرجال حالا ، فقد اضطر بعد أن سلبه الفرنسيون ملابسه ، أن يقضى النهار كله ملتحفا بغطاء آثرى ، حتى تقرحت كتفاه الضامرتان .

ومن شأن الجوع أن يشحذ حاسة الشم فى الرجال ، لذلك امتلأت خياشيمنا برائحة الدخان ؛ وكان باستطاعتنا أن نرى نهاية وادى الأمونوأوزاك ، وقد اعترضتها سلسلة من التلال ناحية الوادى الأكبر للكونيكتيكات ، وكانت المياه الهدارة لذلك النهر تطالعنا من بين الأشجار العارية البعيدة ، مع سحب الدخان التى تتصاعد أمام الأعشاب الداكنة ، كأنها غلالة عروس سمراء البشرة ، سوداء العينين .

وتقدمنا روچرز وهو يصيح بصوت أجش يلفت نظر الرجال الذين ينتظروننا بالمؤن ، وعندما وصل إلى ملتقى النهرين ، تعالى صوته يقول : روچرز ! إنها فرقة الصاغ روچرز عائدة من سانت فرانسس .

ومر برأسى خاطر عجيب : ماذا لو ظننا الرجال الواقفون على الجانب الآخر قطيعا من حيوانات الغابة ، فأطلقوا رصاصهم علينا من وراء الأشجار !

وصاح روچرز مرة ثانية ، واضطربت لصيحته ، فقد كان فيها رنين غريب ... رنين من الشك والتوجس ، وهرعت بأقدام متخاذلة إلى ربوة عالية تشرف على السهول ، وتكشف ملتقى النهرين ، حيث وقف أوجدن وجرانت واليوزباشي چاكوبزوكونكاپوت . وكان بوسط الربوة حصن خشبي متداعى الأركان ، بليت أخشاب أسواره ، وانتشرت الثقوب فى سقفه . ولم يكن فى هذا الحصن ما يهمنا ، إنما تركزت أنظارنا فى الدخان المتصاعد من الضفة المقابلة .

وتدحرج روجرز منحدرا إلى الشاطئ ، والأحجار تتبعه فى دوى عالٍ ، ثم قام من سقطته المؤلمة ومن خلفه الصبيان الهنديان كأنهما هيكلان عظميان ... ووقف ثلاثتهم يرقبون الشاطئ الآخر .

ونظرنا إلى ملتقى نهر الأمونو أوزاك بنهر كونيكتيكات ، فإذا بالمنطقة كلها خالية إلا من الأرض والماء ، وليس بالسهل أثر لآدمى . وفى مواجهة هذا المصب من الناحية الأخرى ، حيث يجرى نهر ولز بين شاطئين مرتفعين ، كان الدخان يتصاعد من الضفة الجنوبية متجها نحو الضفة التى نقف فوقها .

ولم نر بالقرب من النيران شيئاً : لا قوارب ولا مراكب ولا طعاما ولا آدميين ، فما معنى هذه النيران

إذاً ، وليس بجوارها أكداس المؤونة وصناديقها ؟ ... هل مرضت عيوننا المنهكة فلم تعـد ترى سـوى النيران المهجورة ؟ ... أم هى مجرد رؤيا مفزعة وليس هناك نار على الإطلاق ؟ ..

ولكن الرياح الباردة الرطبـة حملت إلى أنوفنا رائحة الدخان حادة نافذة وكلنا يعرف أن الروائح لا تأتى فى الأحلام ولا فى الرؤى المفزعة .

وأقبل الرجال الآخرون من الغابة يتعثرون ويئنون ويلهثون .

ونظر روچرز إلى أعلى النهر ثم إلى أسفله ، ورفع عقيرته يصيح بصوت أجش : إننا متطوعون ! نحن المتطوعون !

ثم خطف بندقيته من بيلى ورفع زنادها وأطلقها .

قال وفى عينيه يأس وقنوط : لقد ذهبوا ! وأخذوا مؤننا معهم ... جاءوا بها ثم عادوا لأمر يعلمه الله .

وحشا بندقيته بالبارود من جديد ، ثم أطلقها ثانية ، وصاح ينادى : عودوا ! عودوا إلينا .

وأحسست أن رجلىّ وركبتىّ تحولت إلى عجينة طرية ، وشعرت أن ذراعى أضحت من هشيم . ولست أذكر كيف هبطت إلى الشاطئ ، وأظننى انزلقت رأساً على عقب ،

مع عشرة رجال آخرين ، وزحفت من وسط هذه الكومة البشرية وأنا أشبه بجرو طريد .

صاح فينا روچرز يقول : أطلقوا بنادقكم ، ونادوا بأعلى أصواتكم ... انظروا إلى النيران ؛ إنها ما زالت تشتعل ، ولا يمكن أن يكونوا قد ابتعدوا أكثر من ميل واحد ! لابد أن نسمعهم أصواتنا ! ويجب أن نحصل على المؤن ... آه لو كان معى زورق الآن !

وتقدم إلى حافة الماء ، وخاض فيه إلى ركبتيه لعله يرى من سطح النهر مسافة أبعد .

وجعلنا نصيح ونصيح ، ونطلق الرصاص بعد الرصاص .

وكان روچرز يأمرنا بالصمت والإصغاء على فترات ، فنقف على أرجلنا المتهالكة نصيخ السمع فاغرى الأفواه ، ولكننا لم نسمع سوى خرير المياه المتدفقة فى النهر .

وترنح عمود الدخان المتصاعد من الشاطئ المقابل ، ثم حول اتجاهه مع مجرى النهر ، وبدأت قطرات المطر الباردة تسقط على الحشائش الجافة فيسمع لها هسيس يختلط بتمتمة الرجال وزمجرتهم .

وجلس اليوزباشى چاكوبز مع كونكاپوت القرفصاء على حافة الماء منكسى الرأس ؛ وتهاوى الرجال على الأرض

جالسين واحدا بعد واحد ، كأنهم تحولوا إلى أكوام صغيرة من العظام والخرق البالية .

وخرج روچرز من الماء ، وجعل ينعم النظر فى الرجال بعينيه الحمراوين المنتفختين ، فبدا فى تلك اللحظة مثل حيوان وقع فى الفخ . وبقى المتطوعون يحملقون فى الفضاء بنظرات تائهة ، بعضهم يئن من الألم ، وبعضهم يتمتم بصوت خفيض ، واستلقى الباقون على الأرض كالأموات .

وبدوا لعينى كأنهم حقيقة جثث هامدة ...

* * *

وتزايد المطر فى إصرار حتى غدا سيلا فى برودة الثلج ؛ ونظر اليوزباشي أوجدن إلى السماء القاتمة ، وقد أطبقت على الوادى فحجبت التلال المجاورة لنهر ولز ، ثم اقترب من روچرز وقال له : أتعنى أن حفنة من الجرذان القذرة حملت إلينا الطعام هذه المسافة كلها ، ثم لم تنتظر مجيئنا ؟

قال روچرز : بل انتظرونا ! انتظرونا إلى اللحظة التى سمعنا فيها طلقاتهم ... بل انتظرونا حتى سمعوا طلقاتنا ردا عليهم .. وقد تكون طلقاتنا هى السبب فى عودتهم ! فلعلهم ظنونا أعداء ، أو لعلهم لم يسمعوها ، لأن الرياح كانت تهب من ناحيتهم إلينا ... ولا أستبعد أنهم أطلقوا الرصاص وهم يغادرون المكان !

قال أوجدن : أيعودون ويتركوننا نموت جوعا هنا ؟ أيفعلون بنا ذلك بعد كل ما جرى لنا ؟

وكنت أرقب روچرز فى تخاذل ، فرأيت فى وجهه مظاهر غضب شديد ، خيل إلى أنه افتعله ليستر شعوره الحقيقى باليأس ، لعلمه بأنه لو سمح لهذا اليأس أن ينعكس علينا ، ويتملك نفوسنا ، لكان مصيرنا الموت جوعاً كما قال أوجدن .

صاح روچرز يقول فى خشونة : لا .. وعليهم اللعنة ! لا تكن غبيا .. فهم ما زالوا على بعد ميل على أكثر تقدير ، ولا بد أنهم سمعوا طلقاتنا كما سمعنا طلقاتهم ، ولسوف يعودون .

فصاح أوجدن يقول : إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا يردون على طلقاتنا ؟ إن القانون يحتم عليهم أن يجيبوا على طلقات المفقودين متى سمعوها .

وأمسك روچرز بذراع أوجدن يهزها ويقول : قلت لك إن الطعام سيعود ... سيعود إلى هنا ..

ورفع صوته عاليا يقول : إنى أضمن لكم عودته ، فاطمئنوا إلى كلمتى ... والآن أيها اليوزباشى أوجدن هيا بنا نسير جميعا إلى الحصن ، ونوقد النار ... هيا ... هيا .. أقم الرجال على أقدامهم وسر بهم إلى القلعة .

وأجابه أوجدن بنظرة صامتة ..

كنت أعرف ما يعتمل فى نفسه ، فقد بقينا فى الجحيم

يوما بعد يوم بأمل الوصول إلى هذا المكان الذى يرمز إلى النعيم ، ثم جئناه بعد أن فتك بنا الجوع ، فإذا بنا نجده قاعا صفصفا ، ليس فيه سوى نذر اليأس والهلاك .

وحملقنا فى الصاغ بدورنا كما حملق أوجدن ، فرأينا فى نظرته التى شملنا بها جميعا سخرية بنا واستصغارا لشأننا .

ولم أدرك أنه لم يعطهم تأكيداته بقرب عودة الطعام إلا كآخر سهم ينقذهم به من اليأس ، حتى رأيته ينهال عليهم ضربا وركلا ، لينهضوا على أقدامهم واقفين .. وكان يصيح بهم حينئذ قائلا : هيا .. قفوا على أقدامكم ! .. اصعدوا الربوة .. هيا إلى القلعة .. أوقدوا نارا عظيمة ... ألا تريدون الدفء على الأقل ؟ هيا قفوا ! .. هيا ! هيا !

وجعل يجذب الرجال من أذرعهم ، ويشدهم ليقفوا على أقدامهم ، وهو يقول مرددا : هيا قفوا .. إلى القلعة والنيران ! ... إنه مكان مريح على أى حال .. هيا قفوا .. هيا .. هيا ..

وظل يسوقنا ويصيح فينا ، ويجذبنا ويدفعنا ، حتى صعدنا الربوة ، ودخلنا أسوار الحصن المهدم .

وبهذه الكلمات الخشنة والهمسات المبتورة ، استطاع ذلك القائد الباسل أن يجمع رعيته من الهيا كل البشرية المتداعية ، ويعيد إليهم بعض مظاهر الحياة .

قال لاهثا : سأقوم بواجبى ، وعليكم أن تقوموا بواجبكم ، لقد نلتم من الطعام نصيبا كنصيبى ، وستقفون على أرجلكم كما يقف الرجال ، وتؤدون واجبكم على أتمه ، وإلا فضحتكم فى طول البلاد وعرضها . أنتم متطوعون فيجب أن تسلكوا مسلك المتطوعين ... الطعام آت لا ريب فى ذلك ... وأنا لم أحنث بوعد قطعته لكم على نفسى ... لقد وعدتكم بإحضار الطعام ... وعلىّ أن آتيكم به فى أقرب وقت . فحاولوا أن تخلقوا من هذا المكان مأوى صالحا لإقامتكم حتى أعود به إليكم ... لقد بتم على حال لا تستطيعون معها السير ، ومن حقكم أن تستريحوا ما دمتم عاجزين مرهقين .. فهيئوا هذا المكان للراحة ، واجعلوه صالحا لإقامتكم ...

وتوقف عن الحديث كأنه على وشك الانهيار لفرط التعب والإنهاك ، ونظر مليا إلى السور المتهدم والحصن المتداعى ، ثم عاد يقول : نظفوا هذا البيت .. إن أخشابه بالية من الناحية الجنوبية ، فاخلعوها من مكانها ، وأوقدوا بها نارا أمام الواجهة ، اجعلوا موقد النيران طويلا ، ولا تستهلكوا سوى الخشب البالى فقط ؛ أما السلم فأبقوا عليه لأننا فى حاجة إليه ... هيا ... لينهض القادرون على العمل ... دعونا نر منكم من لا يزال يستحق لقب المتطوع ...

دعوا العاجزين وشأنهم ... فلا يهمنى إن هم رقدوا إلى ما شاء الله ..

وسار إلى باب الحصن الخشبى ، ثم وقف مستنداً إلى جانب منه ، وجعل يفحص المكان من الداخل .

وقام جيس بتشام ، وقد احدودب ظهره ، وغطى الشعر الأبيض وجهه ، ثم سار خلف روجرز ، وهو يئن لفرط ما به من ألم .

قال له روجرز : أترى هذه المحفة الخشبية ؟ اضغط بها على الحائط الجنوبى حتى تهدمه ، ثم اسحب المحفة بعيداً ، وأوقد نيرانك .

واستدار ينظر إلينا بعينين غائرتين .

ولم يبق رجل فى مكانه ، حتى أندرو ماكنيل الذى كانت يداه على أشد ما تكونان من التقيح ، نهض هو الآخر يتعثر نحو الحصن الخشبى .

قال روجرز : هـذا جميل ! تول أيها اليوزباشى أوجـدن مسألة الحصن ، وأنتما أيها الملازمان آفرى وجرانت ، خذا بقية الرجال إلى السور ، واخلعوا ما به من أخشاب بالية ؛ أما السليمة فدحرجوها إلى الشاطئ ، لأنى أريدها هناك .

وفرك عينيه بيديه ، وكانتا من الغور بحيث تعلقت قطرات المطر بجفنيهما المتهدلين .

قال : اصغوا إلىّ ... إنى فى حاجة إلى من يعاوننى ، وسآخــذ معى اليوزباشي چاكوبز وتاون وبيلى وبوب وكونكاپوت .

وقمنا مبتعدين عن الجماعة ، وسرنا نحن الخمسة نتعثر وراءه منحدرين إلى الشاطئ ، ثم إلى نهاية السهل عند ملتقى النهرين ، وكانت أرضاً منخفضة بها ماء رقراق ... وظل روجرز طول الوقت يتحاشى النظر إلى الشاطئ المقابل الذى أطفأت الأمطار بقية ما كان به من نيران .

وركع روجرز على ركبتيه عند حافة الماء ، وجعل ينبش الأرض بأصابعه وسط مجموعة من النباتات الجافة ذات الأوراق المثلثة ، ثم نزع من وسطها حزمة من الجذور تبدو كثمار البطاطا الصغيرة ، وعرضها علينا ، ثم قال يسأل اليوزباشي چاكوبز : أتعرف هذه النباتات ؟

وهز چاكوبز رأســه نفيا ، وكذلك كونكاپوت وبيلى وبوب

قال : عظيم ! إنها جذور نبات اسمه الكاتنيس ويمكن أكلها عند الضرورة القصوى ، ولكنى لا أوصي بها ... نعم هى جذور الكاتنيس ...

وكررنا الاسم بعده ، وقطع كونكاپوت من الحزمة بعض ورقاتها ، ورفعها إلى شفتيه ، ولكن روجرز أخذها منه وقال : لهذا السبب لا أوصى بها الرجال الجائعين .. فالجوعان يتسرع عادة فى التهامها ، وهنا الخطر ! لا تأكلها كما هى وإلا أحرقت معدتاك .

وحملقنا فيه مبهوتين .

قال : هيا انبشوا الأرض ، واجمعوا ما استطعتم من هذه الدرنات ، ولكن احذروا أن تأكلوا الآن شيئاً منها .

ورحنا نخوض المستنقع نبحث عن الدرنات ونقتلعها ، ومضينا فى هذا العمل حتى لم يبق بالمستنقع شىء منها ..

قال روجرز وهو ينظر إلى كومة الجـــذور : هذا لا يكفى ، ونحن فى احتياج إلى كمية أخرى .

والتفت إلى چاكوبز وكونكاپوت يقول : أتعرفان التواهو ؟

وأجابا بالنفى ...

قال متضايقا : ولكن نساءكم يعرفنه ... لمَ لا تصغون أحيانا لأحاديثهن ؟

وحملنا كومة الدرنات من الماء إلى الشاطئ ، وهناك انحنى روجرز على أطرافه الأربعة ، وجعل يزحف بين

الحشائش الرطبة التى هرأها الصقيع ، كأنه كلب صيد يبحث عن أرنب ضائع .

وشققنا طريقنا وراءه وقد نكسنا رءوسنا تحت وابل المطر المنهمر .

وتوقف روجرز فجأة ، وجعل يحملق فى حزمة من الأوراق الطويلة الرفيعة تبرز من وسطها نورة عالية . وكان منظره أشبه بكلب صيد قذر منهك لا يستطيع مقاومة غريزة الصيد حتى آخر لحظة من حياته .

قال : هذا هو التواهو أو زنابق النمر .

وسحب سكينه وارتكز على مرفقيه ، وجعل يشق الأرض تحتها حتى استخرج بصلة كبيرة فى حجم التفاحة .

قال : هذا هو التواهو ! لا تأكلوها نيئة وإلا قتلتكم ... ادفنوها مع درنات الكاتنيس تحت عمق قبضة من التراب ، وأشعلوا النار فوقها طول الليل ، فيزول سمها . وفى الصباح أخرجوها وكلوا منها ، ولسوف تمدكم بشىء يقيم الحياة .

وبهذه الكلمات بدأنا زحفنا وراء أبصال زنابق النمر ، كأننا ماشية تسعى وراء ما يسد رمقها ؛ ولقد كنا بالفعل كالماشـــية . . . لا ذكريات للماضى . . . ولا آمال فى المستقبل ... كل همنا أن نأكل لنعيش .

* * *

وعدنا إلى الحصن بدرنات الكاتنيس وأبصال زنابق النمر ، فوجدنا الحائط الجنوبى كله قد أزيل من مكانه ، والنار يندلع لهيبها بطول الفتحة التي خلفها الحائط .

وكان أوجدن واقفاً يحرك النيران ، فلما رأى الدرنات ، لعق شفتيه .

قال روچرز : أين جرانت وآفرى ؟

أجاب أوجدن : نائمان . . . جميعهم نيام كالأموات . .

ثم أردف يقول وهو يزدرد لعابه : أتصلح هذه الأشياء للأكل ؟

وهز روچرز رأسه نفيا وقال : ليس الآن . . . ما عدد الكتل السليمة فى الخشب الذى خلعتموه ؟

أجاب : اثنتا عشرة كتلة . . .

قال روچرز وقد بدا عليه الارتياح : ساعدنى أيها اليوزباشى على حفر خندق طويل ندفن فيه ما أتينا به من بطاطس الكوهيز ! وهذا آخر عمل نقوم به الليلة .

والتفت إلى اليوزباشى چاكوبز وكونكاپوت يقول : إذا كنتما تأنفان من حفر الأرض معنا ، فلا أقل من أن تخرجا إلى الغابة بحثاً عن صيد . .

ودلف الاثنان خارجين كأنهما هيكلان عظميان محطمان .

وبدأنا أنا وروچرز وأوجدن نحفر فى الأرض خندقا طويلا ، وجعل الصبيان يرفعان التراب وراءنا ، حتى انتهينا من الحفر ، ودفنا الأبصال فى الخندق ، وكومنا الجمْر فوقها .

قال روچرز وهو يجلس القرفصاء : بديع ! ستمنحنا هذه الأبصال من القوة ما نحتاج إليه فى بناء العائمة .

وردد أوجدن الكلمة ، وقال بغباء : عائمة ! عائمة !

قال روچرز : وهل أستطيع بغيرها أن أصل إلى القلعة رقم ٤ ؟ لقد عادت مئونتنا إلى رقم ٤ ، وعلىّ أن أستعيدها ولو كلفنى الأمر حياتى . . . ولسوف أسوى حسابى مع أولئك الجرذان الذين عصوا أوامرى ، فلم يأتوا إلى المكان الذى حددته لهم ... إنهم لم يصلوا إلى مصب الأمونو أوزاك كما أمرت . . . إنما جاءوا إلى الضفة الأخرى من النهر ، حيث رأينا نيرانهم اللعينة ، وعلى ذلك لا بد لى من الذهاب إلى رقم ٤ .

فقال أوجدن بحدة : إنها تبعد ستين ميلا ، أيها الصاغ ، ولن تستطيع الوصول إليها وحدك .

قال روچرز بهدوء : سآخذ بيلى معى ، وربما اصطحبت رجلين آخرين على سبيل الاحتياط . . . هذا إذا وجدت من يقبل الاشتراك معى فى هذه المخاطرة .

قال أوجدن فى تأن وروية : حسنا ! أعتقد أننى قادر على الذهاب معك .

وقلت أنا : واعتقد أننى قادر على مرافقتك أيضاً .

وظننته لم يسمع حديثى ، إذ كان يقف ساهما يدلك بيده ظهر يده الأخرى ، فتنفصل القذارة فى فتات مستدير ، انكشف تحته أثر رصاصة قديمة التأم جرحها على شكل نجمة حمراء . .

وأخيرا نظر إلىّ وقال فى ابتسامة متعبة : جميل ! ولسوف نصنع منك متطوعا فى يوم من الأيام .

الفصل التاسع والثلاثون

مضت بقية ذلك اليوم ، كما مضى اليوم التالى كحلم مزعج : فالأمطار تنهمر فى ستار رمادى على أشجار معتمة وجبال داكنة ، والنهر العكر يجرى وسط أرض قاتمة ، والسهول الموحلة تبدو فى لون قذر يقبض النفوس .

ورقدنا بقية اليوم الثالث والعشرين فى شبه غيبوبة ، وفى باكورة الرابع والعشرين أخرجنا الأبصال والدرنات الساخنة ، ووزعناها بيننا بالتساوى ، فكان نصيبى أربعا منها فقط ، مع أننى كنت قادرا على التهام زكيبة منها ... ولو أن خبيرا بالطعام الفاخر رآها ، لتقززت نفسه منها ، ولكننى لا أعرف خبيرا ذاق ما ذقناه من جوع .. ولو أن أكثر الناس تخصصا فى التهام الأطعمة اللذيذة تعرض لما عانيناه من مسغبة ، لوجد فيما تمجه النفوس عادة من طعام — كلحم الكلاب والخيل ، أو الحيات والنوارس ، أو القطط الوحشية ، أو المنتن والسمك النيئ — ألذ ما فى الدنيا كلها .

وكرس روچرز ذلك اليوم بطوله للترفيه عن رجاله : فما إن انتهوا من التهام التواهو والكاتنيس ، حتى طلب منهم

أمرا عظيما ....طلب أن يتزينوا ويحلقوا لحاهم ويقصوا شعورهم ، ويشذبوا شواربهم ..

قال : أحب ، حين أحضر الطعام ، أن أراكم فى مظهر لائق .. إنى لا أكاد أعرف أحدكم من الآخر.. وإذا استمرت الحال على هذا المنوال ، وازداد شعوركم عمقا فى أثناء غيبتى ، فقد يظنكم من يأتون معى قططا وحشية ، فيلقمونكم بدل الطعام رصاصا من بنادقهم .

وكانت مهمة شاقة أن يتحرك الرجال من مكانهم إلى الشاطئ ،وكان أشق منها أن تجعلهم يغسلون وجوههم بالصابون الذى لولا طعمه الكريه ، ما ترددوا فى التهامه منذ وقت طويل . وكانت خيبة آمالنا فى أمسنا قد سلبت الرجال قواهم ، وشفراتنا علاها الصدأ لطول عهدنا بإهمالها ، إذ لم نكن قد أخرجناها من قُرُبها منذ الثالث عشر من شهر سبتمبر ، فضلا عما أصاب اللحى من تلبد بالحصى والرمال والقاذورات ، مما يعوق الحلاقة ، ويجعلها عذابا أليما .

ولما انتهى الرجال من غسل وجوههم الدامية ، وقص شعورهم الطويلة وتشذيبها ، أصبح منظرهم يدعو إلى غاية الدهشة ، إذ بدت الرءوس المقصوصة كالجماجم العارية ، وانكشف نحول الوجوه وضمورها المخجل بعد إزالة اللحى

عنها ... ومع ذلك فقد بعثت عملية التزيين فى الرجال روحا جديدة ، وجعلتهم يستعيدون شعورهم بآدميتهم رغم كل ما أصابهم .. وحين طلب منهم روچرز أن يعودوا إلى البحث عن أبصال الزنبق ، استطاعوا أن يجمعوا منها أضعاف أضعاف ما جمعناه فى اليوم السابق .

وسمح لهم روچرز بالعودة بعد ذلك إلى الكوخ الخشبى ، وهناك قضوا المساء راقدين بين نوم ويقظة . وبينما المطر يهطل فى الخارج مدرارا فيعلو له دوىّ على السقف الخشبى ، كان روچرز منهمكا فى حديث جدى مع آفرى وأوجدن وجرانت .

قال فى صوت مرتفع يقصد أن يصل إلى أسماع الرجال الآخرين : طبعا سأعود بالطعام فى مدى عشرة أيام ، ولكم أن تطمئنوا إلى وعدى . . . وإذا لم يوفقكم الحظ إلى غزال أو بقرة وحشية ، فأمامكم هذه الزنابق تقتاتونها ، وتأكدوا أنكم لن تصادفوا فى هذا المكان متاعب ذات بال .

والتفت إلىّ يقول : لقد أخبرتنى يا تاون ، ونحن فى كراون پوينت ، أنك درست الإنجيل ؛ أفلم تقل لى إن الإنجيل يروى قصة رجل سار أربعين يوما بلا طعام أو شراب ؟

قلت فى تثاقل : أربعون يوما ؟ . . أربعون يوما ؟ . .

أجل . . . أظن أنني قرأت في الإنجيل قصة رجل صام أربعين يوما . . . ولكنني لا أذكر من هو . . . قد يكون عيسى أو موسى أو ليشع . . . أولعلهم جميعا صاموا أربعين يوما . . .

صاح روچرز بلهجة الفوز والانتصار : أسمعتم ؟ أسمعتم جميعكم كلامه ؟ يقول تاون إن في الإنجيل رجالا ساروا أربعين يوما دون أيسر طعام . . . دون أن يأكلوا جذورا مشوية مثلكم ، ولا درنات الكاتنيس اللذيذة ، ولا أبصال التواهو الغضة . . . لا ياسادة . . . لم يتذوقوا شيئاً من هذا كله . . . هل تذوقوا شيئا منه ياتاون ؟

ونشط الحديث عقلي الراكد ، فأسعفتني ذاكرتي ببعض آيات من الإنجيل ، وقد جاء فيها على لسان موسى انه سار أربعين يوما بلياليها دون أن يتناول خبزا أو يشرب ماءً .

وسألني روچرز والحيرة تبدو على وجهه : خبزاً ؟ لم يتناول خبزاً ؟ هل يعني هذا أنه كان يأكل البطاطس ، أو اللفت ، والخس ، والجرجير ؟

قلت أفسّر له الآية : لا . . لا . . . بالتأكيد لا . . . إن كلمة الخبز ترمز إلى الطعام بجميع أنواعه ، وهذا ما كان يعنيه موسى . .

وبان الارتياح عليه ، وقال بصوت عال : أتسمعون

ذلك ؟ إن موسى سار أربعين يوما بلياليها دون طعـــام أو ماء . . . طبعا لم يكن فى وسعه أن يسير طول ذلك الوقت دون ماء على الإطلاق ، فهذا فوق قدرة الإنسان ، وأنا لا أريد أن أوهمكم بالمستحيل ، ولكن موسى نبى ، والأنبياء لا يتكلمون إلاّ صدقا ، ولذلك أعتقد أن المعنى المقصود بحديثه أنه لم يشرب من المـاء سوى قليل لا يروى عطشه . . . على كل حال هذا كلام الإنجيل ، ونحن لا نستطيع أن نناقشه ، إنما المهم أنه ظل أربعين يوما بلا طعام . . . أتصدق يا أوجدن ؟

قال أوجدن : أنا ؟ . . إنى . . .

وصاح روجرز قائلا : طبعا ! إن أوجدن يصدق هذا الكلام ، وجرانت يؤمن به وكذلك آڤرى ، بل كلنا نؤمن به . . والأمر كما ذكر تاون عن موسى تماما . . . والآن قارنوا بينكم وبينه . . . انظروا إلى المـــاء الذى عندكم . . . تذكروا كيف لم يمض عليكم يوم واحد دون أن يجد كل رجل من الماء كفايته وأكثر . . حتى هـذه اللحظة . . انظروا إلى الماء الذى لدينا . . ماء عذب من المطر المثلج الجميل . . . ترى كم كان يعطى موسى لقاء ملء كوب من هذا الماء البديع . . . ولا أقول ملء دلو منه ؟ تصوروا

البحارة حين تغرق سفنهم ، فيتعلقون بالأخشاب الطافية ، وتمضى بهم الأيام وهم على أتم الاستعداد لدفع أرواحهم ثمناً لقطرة ماء مما لديكم .. تذكروا موسى وليشع والبحارة الغرقى ، ثم احمدوا الله على أكداس التواهو الكاتنيس المشوية ...

وقاطعه جرانت بضحكة مكبوتة ، فانتقلت العدوى إلى الآخرين ، وإذا بالضحكات الخافتة تتردد هنا وهناك ، ثم تعلو شيئاً فشيئاً ، حتى تحولت إلى ضحك جماعيّ حقيقى ، دوّى له بين أرجاء الكوخ الخشبى صوت كالرعد .

ومثل هذا الضحك يقلب الجحيم نعيما ، وهذا ما حدث بالفعل ، فقد زال شعور الرجال باليأس ، وحل محله هدوء واطمئنان ، وشعرنا أن الأرض التى قادنا فيها روجرز هذه المسافات كلها ، لم تكن أسوأ كثيراً من تلك التى قاد فيها موسى شعبه من بنى إسرائيل ، ومثلما قاد موسى قومه إلى أرض السلام ، سوف يقودنا روجرز أيضاً إلى نفس المصير .

الفصل الأربعون

توقف المطر عن الهطول فى اليوم الخامس والعشرين من اكتوبر ، فبدأنا نبنى العائمة . وشعرنا فى بداية الأمر أن نقل كتل الأخشاب الاثنتى عشرة من مكانها عبر السهل إلى النهر ، مهمة تفوق طاقتنا ؛ إذ كانت عضلاتنا ترتجف ثم ترتخى لأبسط مجهود . وأيدينا تلين أمام الحمل الثقيل ، وأقدامنا تأبى أن تثبت على الأرض .

وكانت كل كتلة منها تقاوم حركتنا كأنما قدت من صخر ثقيل وأخيرا تعلمنا أن نصطف أمامها راكعين على ركبنا ، ثم نشدها وندحرجها نحونا ، فلا نكاد نحركها بوصات معدودات ، وكنا نخصص لكل كتلة خمسة رجال ، مع أن الرجل العادى يستطيع وحده أن يحركها بسهولة وبساطة .

وكُلِّف أكثر الرجال ضعفا ووهنا بأن يجمعوا فروع الصفصاف الغضة وجذور الحور الأحمر ، ليفتلوا من الجذور حبالا متينة تربط الكتل الخشبية بعضها ببعض ، ويجدلوا من الفروع لحمةً لسداة الجذور .

وأقمنا بوسط العائمة بعض الفروع ، وثبتناها بالحبال ،

لتكون مقبضا نتشبث به فلا نسقط فى الماء ، ومشجبا نعلق عليه بنادقنا وبارودنا وأغطيتنا لتكون فى مأمن من البلل . كما صنعنا مجاذيف بدائية من الفروع المجدولة وربطناها معا بجذور الحور .

وسار العمل بطيئا بين أنين الرجال وهمهمتهم ، حتى خيل إلينا أنه لن ينتهى ؛ ولكنه انتهى بالفعل صباح اليوم السادس والعشرين ، وخرجت العائمة تطفو جيداً فوق الماء ، بفضل جفاف العروق الخشبية التى صنعت منها . وجلس بيلى مكان الكشاف فى المقدمة ، وتربع روچرز فى المؤخرة ، أما أنا وأوجدن فقد أخذنا الجانبين ومعنا المجاذيف نجربها ، فوجدنا العائمة على حال لا بأس به ، تطفو ثابتة ولا تميل كما يحدث عادة فى العائمات الصغيرة .

وفى اليوم السادس والعشرين قمنا بمحاولة أخيرة لصيد غزال أو قنفذ أو أرنب ، ولكننا لم نعثر على شىء منها .. ولعل التوفيق خاننا بسبب تبلد إحساساتنا ، أو تكون حركاتنا الخشنة قد أفزعت الصيد الموجود ، أو أن روح اليأس التى ترفرف على جماعتنا التعسة نشرت ظلها على المكان وجردته من كل كائن حى .

وعندما أرخى الليل سدوله ، وعاد اليوزباشى چاكوبز

وكونكاپوت صفر الأيدى ، قرر روچرز الإسراع بالرحيل ... وفى فجر السابع والعشرين خرج معنا آڤرى وجرانت حتى العائمة ، فى حين وقف الباقون وراءنا يتسكعون ، كأنهم قطيع ضال ، ولما وصلنا إلى حافة الماء استدار روجرز فجأة إلى جرانت وقال له : أتْلُ علىّ الأوامر . .

قال جرانت وهو يحاول أن يقف منتصباً . إننى الرئيس المسئول هنا ، وعلىّ أن أبقى الرجال أحياء حتى يأتى الطعام ... سأجعلهم يجمعون الدرنات والأبصال بعد ظهر كل يوم ... وأرسل بعثات للصيد كل صباح .

وتوقف عن الكلام ، وجعل ينظر إلى قدميه فى جمود .

قال روچرز بحدة : أكمل الأوامر ! سواء أرضى الرجال أم لم يرضوا ...

قال : نعم ... سواء رضى الرجال أم لم يرضوا .

قال روجرز : ومهما كانت الفريسة ، فعليك أن تحتفظ بنصيب منها لفارنجتون وكورجيل وكامبل وأيڤانز ورجالهم ... إنهم أربعون رجلا يحتاجون إلى ما يأكلونه حين وصولهم إلى هذا المكان ، ولذا يجب أن يُحتفظ لهم بنصيب من الصيد ، أبقهم فى ذهنك دائما ... وإياك أن تدع أمرهم يغيب عن بالك ... هل فهمت ؟

وأومأ جرانت وآفرى برأسيهما إيجابا ...

ثم عاد روجرز يسأله : أما من شيء آخر ؟

قال جرانت : وإذا عدت بهؤلاء الرجال سالمين ، فسوف تمنحنى رتبة اليوزباشى .

فقال روجرز : أريد تلاوة الأوامرفقط ، أيها الملازم ! لا تحاول التفكير فى غيرها ! ما هى بقية أوامرى ؟

كان الرجال يقفون فى ضوء الفجر الرمادى على حافة الشاطئ وهم يرقبون روجرز بعيون متبلدة وشفاه مدلاة وقامات مقوسة .

وحك جرانت وجهه بأصابع كالمخلب ، وقال : على أن أبقى هنا عشرة أيام ، وأن أخبر فارنجتون وكورجيل وكامبل وإيفانز بأنك عائد فى بحر تلك المدة .

قال روجرز : عشرة أيام ابتداء من اليوم .

فردد جرانت قوله : نعم ... ستعود بعد عشرة أيام ابتداءً من اليوم .

وعاد روجرز يقول : سأعود إليكم بعد عشرة أيام من اليوم ، وبعد هـذه الأيام العشرة ، سيكون لكم كل ما تريدون من طعام .

فسأله آفرى : وماذا نصنع إذا لم تعد ؟

أجاب : لقد سمعت قولى ؛ ولسوف أعود ! ليس عليكم سوى الانتظار ! الانتظار فقط ؟

وأشار إلىّ وإلى أوجدن والصبي الهنــدى أن نعتلى العائمة ، فلما ركبنا ، دفعها إلى المياه العميقة وتعلق بها ، ثم صعد إلى مؤخرتها ، وقال لأوجدن : ادفع بها إلى وسط النهر .

وخرجت العائمة إلى التيار ، ولم ينبس واحد من الرجال التعساء المرتمين على الشاطئ بكلمة ، وظلوا يحملقون فينا ونحن نبتعد ، ثم تبعتنا عيونهم المجهدة بنظرات جامدة ، فيها لهفة وإرهاق ... ولعلهم كانوا يفكرون فى ذات الخاطر الذى يجول برأسى : تُرى ، هل يُقدّر لهذه العائمة الحقيرة الصغيرة أن تظل متماسكة أمام شدة التيار الذى يجرى وسط النهر ؟

وجعلنا نوالى ضرب الماء بمجاذيفنا الشبكية ، ولكن الماء كان ينفذ منها دون أن تتأثر العائمة بجهودنا ، فاضطررت إلى الركوع على ركبتى ، حتى لا أنزلق من حافة العائمة .

قال روجرز : لقد اتزنت الآن ، فدعها تسير !

وتوقفنا عن التجذيف ، وراحت العائمة تدور فى بطء ، ثم أخذت تسرع بالتدريج سائرة مع التيار . وفوجئت بأن المسافة التى تفصلنا عن الرجال ، تزداد

بسرعة ويغشاها ضباب خفيف . ولمحت بعضهم ينحنى على الأرض كالدببة ، وبدا الباقون فى أشكال شوهتها المسافة المتزايدة ، فصارت عجيبة ضخمة ، لا تمت إلى الآدميين بصلة ...

كانوا كقطيع من حيوانات عاجـــزة تزحف فى أقفاصها ، أو حفنة من السجناء لا حول لهم ولا قوة .

* * *

وتسرب الماء من بين الكتل الخشبية ، وتطاير رذاذه علينا عندما تماوجت العائمة فى منحدر سريع الاندفاع . كنا على أسوأ حال : إذا وقفنا أصابنا الدوار ، وإذا رقدنا ابتللنا بالماء ، وشعرنا بالبرد يكاد يجمد أجسامنا . كنا نتناوب إمساك المِدْرأة ، وعندما نتحرك من أماكننا لهذا الغرض ، نشبك أذرعنا فى الحبل الوسط كأننا مصلوبون . وقد يدفع التيار العائمة صوب أحد الشاطئين ، فنجذف بشدة كالمجانين ، حتى تعود إلى مكانها من وسط النهر .

وكثيراً ما كانت العائمة تدور حول نفسها وتتلوى . تارة نواجه مصب النهر ، وتارة منبعه ... وعندما ينحرف مجرى الماء يدفعنا التيار إلى الشاطئ ... نطفو مرة بين سهول ، وأخرى بين شاطئين صخريين قائمين كجدارين مرتفعين .

كانت السماء فى لون اللبن ، وضوء الشمس لا يصل إلينا أكثر مما يصل إلى كهف مهجور ، وبرودة الهواء المريرة تنفذ مع كل نفس ألتقطه ، فترسل فى مآقى آلاما حادة . . . حتى خيـل إلى أننا نمر فى وادٍ من جليد غير منظور .

قال روچرز : إن الجو ينذر ببرودة قارسة ، فعلينا إذا ما هبطنا الشاطئ للمبيت ، أن نربط العائمة فى ماء جار ، حتى لا يتجمد ما حولها فلا نستطيع الخلاص بها من الجليد .

ولما حل المساء هبطنا شاطئاً رمليا يجرى بجانبه نهير صغير ، وحاولنا عبثاً أن نثبت العائمة فى الماء الجارى ، وذهبت جهودنا سدًى ، مما اضطرنا إلى إرسائها فى ماء ضحل ، ولم يتحدث روجرز ولا أوجدن مما قد يحدث لو تجمد الماء حولها أو أخذها التيار فى أثناء الليل ، بل إن واحداً منا لم ينطق بكلمة ، إذ لم يكن هنـاك داعٍ للحديث ... ولكنى كنت على يقين بمصيرنا إذا وقع هذا الأمر أو ذاك .

قال روچرز : إن أفضل ما يمكن عمله الآن ، أن نقطع خشباً نوقد به النار ، ونقيم سياجا من الحشائش ، ثم نصنع

حبلا بطريقة ما لأربط العائمة بأحد طرفيه ، وأثبت طرفه الآخر حول وسطى .

وكانت طريقة النار والسياج تعمل عندما يخشى خطر التجمد : فالسياج يقام من الحشائش بارتفاع قدمين ، والنار توقد أمامه ، فتصير المسافة بين الاثنين دافئة طالما النار موقدة .

وبدأنا نوقد النار ونقيم السياج ، وذهب بيلى يجمع الأغصان الرفيعة الغضة ... وفى دفء النار جدلنا من الأغصان حبلا يصل إلى العائمة ، وربطنا طرفه فى عمودها الأوسط ، ولف روجرز طرفه الآخر حول خصره .

كانت ليلة مريرة البرد كما تنبأ روچرز ، فما إن انتهينا من قطع الحشائش للسياج ، وبدأنا نقطع الأخشاب للنار حتى بدأت متاعبنا ؛ إذ تجمدت ملابسنا المبتلة وتصلبت من شدة البرد ، وصار العمل بالبلطة عسيراً شاقا ، مع أن المجهود يبعث الدفء فى الأجسام . كانت ضرباتنا بطيئة متباعدة ، وأمكننا بعد عناء أن نسقط شجرة ميتة جافة ، فلما انتهينا منها انتابنى شعور بالضعف ، وأدركت السر فى بكاء النساء بعد انتهائهن من عملهن المضنى أمام طست الغسيل ، الذى يقصم الظهر .

واحترقت الشجرة عن آخرها قبل طلوع النهار ، وكان

من العسير علينا أن ننهض فى مثل تلك الساعة ثم نحرك أقدامنا بعثا للدفء ؛ فجعلنا نلتف فى أغطيتنا ونقترب من بقايا النار شيئاً فشيئاً ، حتى إذا أصبح الصباح كنا نرقد بالفعل فوق رمالها .

ولم تتركنى الأحلام المفزعة طول الليل ، وكانت حلما متصلا لا يتغير فى جوهره : فالعائمة قد أفلتت من مرساها ، واندفعت مع التيار بعيدا عنا ، وفوقها كومة من جثث الهنود تغطيها آلاف من العيون البيضاء المحملقة فى الفضاء . . ورأيت قبل أن أصحو من النوم مباشرة چون سنجلتون كوپلى يشير إلى تلك الجثث المغطاة بالعيون المحملقة ثم يعلمنى كيف أرسم أمواج النهر ، لا بفرشاة ، وإنما بمجـــذاف مغموس فى الدماء ! !

* * *

استمر الصقيع المرير إلى صباح اليوم الثانى ، فاضطررنا إلى المثابرة على إزالة الجليد المتراكم فوق كتل العائمة ، حتى لا نتزلق فوقه فنسقط فى الماء ؛ ولكننا قطعنا رغم ذلك مسافة طيبة ، وصلنا إلى شلالات هوايت ريڤر على نهر كونيكتيكات عند الظهر . وكان وصولنا تكتنفه الأخطار إلى أبعد حد . . . إذ كان روچرز غير واثق من متانة العائمة وقدرتها على المرور من تلك الشلالات ، ولذلك ظل ينبهنا

فى صرامة إلى وجوب الاحتراس .. وجعل يكرر تحذيره بصوت رتيب ، وبين وقت وآخر يقول : احترسوا من الشلالات ! احترسوا من الشلالات ! حتى صارت تلك الكلمة تطن فى أذنى طول الوقت ، وتصورت أن خرير الماء وضربات الأمواج تقول هى أيضا : احترســـوا من الشلالات ! احترسوا من الشلالات !

أما كيف نجونا بأرواحنا من وحشية تلك الشلالات ، فأمر لا أستطيع إدراكه . . . فبعد أن كان النهر أمامنا هادئا واسع المجرى ، سمعنا بيلى يصيح بصوت حاد رفيع ، فإذا بروچرز يقول : جذفوا ! جذفوا بشدة ! إلى اليسار ! ادفعوا العائمة نحو اليسار !

ورأيت سحابة من ضباب أبيض تصـــعد من بين الرذاذ ، ومن تحتها المياه تفور وتهدر ، وهى تتسابق فى سرعة مخيفة .

واندفعت فى تحريك المجداف الضعيف بأقصى قوة وسرعة ، حتى خلت أن عينى ستقفزان من محجريهما ، ووصل إلى أذنى صوت أوجدن خشنا مكتوما ، ورأيت روچرز راكعا على ركبتيه يعمل بالمدرأة فى نشاط جنونى .

واهتزت العائمة ، وانخفضت مقدمتها ثم ارتفعت ، ودارت حول نفسها فى سرعة مفزعة ؛ ومن أمامنا تعالى

هدير النهر وهو يهبط من منسوبه المرتفع إلى مجراه التالى العميق . وكان الشاطئ قريبا ، ولكنه لم يكن من القرب بحيث نستطيع الوصول بالعائمة إليه قبل أن تدرك الشلال .

وصرخ روچرز يقول : خذوا البنادق واقفزوا ! خذوا كل شيء ! خذوا أشيائى معكم واقفزوا !

وحاول أن يوقف العائمة بوضع المدرأة فى قاع النهر ، ولكن الضغط العظيم كسرها فى قرقعة مسموعة .

وخطفت أنا وأوجدن البنادق والأغطية والبارود من مشاجبها بوسط العائمة ، وقفز بيلى كسهم أسود وسط التيار الداكن المثلج . وأحسست بجسدى يصطدم بالماء القارس ، ثم بصخور غير مستوية تحت قدمى ، ثم بالماء يغمرنى وأنا متشبث بحمل ثقيل من البنادق والأغطية ، مفروض علىّ أن أنقذها من الضياع سواء أغرقت فى سبيل ذلك أم نجوت .

وإذا بيد تمسك بقميصى وتقيمنى على قدمىّ . لقد لحقنى روچرز كما لحق أوجدن .

وعندما وصلنا إلى الماء الضحل قريبا من الشاطئ ، أخذ بيلى حمولتنا من البنادق والأغطية . وبعد لحظات كنا جميعا نقف على الشاطئ الموحل المثلج ، وهدير الشلالات يدوى فى آذاننا ، ويملأ نفوسنا بالحزن والأسى .

وصاح روچرز يقول : انظروا !

كانت العائمة تسير وسط المياه المنحدرة ، وقد ارتفع جانب من جوانبها ، ثم انقلبت رأسا على عقب . وطفت مرة ثانية بعد أن انشطرت إلى ما يشبه رقم ٧ ، وانفصلت كتلة منها ، وظلت طافية على الماء . . وسرعان ما تفككت الكتل الباقية ، وجعلت تتقلب وتتمايل إلى أن وصلت إلى حافة الشلال ، ثم اختفت إلى غير رجعة .

قال روچرز : من حسن حظنا أن تركنا العائمة فى اللحظة المناسبة . . هذا بشير خير !

الفصل الحادي والأربعون

أذكر أنني سمعت ذات مرة حكمة تقول : إن الصائم يفقد شهوته للطعام بعد ثلاثة أيام من صومه ، فإذا أكمل ثلاثين يوماً ، يزول تعبه ويصفو عقله ويتطهر بدنه ، وتزيد مقاومته إلى ما لا نهاية له تقريباً ؛ ولكنى لا أومن بهذه الحكمة ، ولا أعترف بفوائد الصوم ، ولا أظن أننى سأصوم يوماً بعدما عانيته مع الصاغ روبرت روچرز فى أثناء حملة سانت فرانسس .

فبعد أن رأينا الماء يبتلع كتل العائمة عند حافة الشلالات ، جررنا أنفسنا على الشاطئ جراً ، وارتمينا على الأرض كالجثث الهامدة . وحتى روچرز غلبه الإجهاد فاستلقى على ظهره مدة قصيرة ، ثم قام على ركبتيه وقال : هذا المكان لا يصلح لإقامتنا ، فلن نستطيع البقاء دون نار وإلا تجمدنا من البرد . لا بد أن هناك كثيراً من الأخشاب والوقود عند مهبط الشلالات .

ووقف يتمايل ثم قال : هيا بنا إلى الشاطئ المنخفض عند المهبط !

وتحاملنا على السير وراءه ، فإذا الشاطئ يمتلئ فعلا بالأخشاب وجذوع الأشجار ، ولكنها لم تكن تصلح لبناء العائمات ، إذ كانت جذوعا من الخشب الصلب أو المتعطن ، رقدت بين صفوف من الفروع والأغصان وشظايا أشجار الصنوبر المختلفة حجما وعمراً ؛ وكلها مهشمة بفعل جليد العام السابق .

وصعد روچرز كومة من هذه الأخشاب ، ثم قال وهو يهز رأسه : كل ما نستطيع عمله اليوم ، أن نوقد ناراً نستدفئ بها ، وغدا نفكر فيما هو أفضل من ذلك !

وبنينا سياجا من الحشائش كسياج اليوم السابق ، وأقمنا ناراً عظيمة من قطع الخشب ، وخلعنا ملابسنا المبتلة المهلهلة ، ونشرناها مع الأغطية أمام النيران لتجف ، وكانت الملابس والأغطية فى حال يرثى له من التمزق والرتوق ، حتى لتبدو عديمة الفائدة فى ستر الأبدان وتدفئتها .

وكانت أجسامنا العارية لا تقل سوءاً عن ملابسنا ، حتى لقد خجلت من النظر إلى روچرز وأوجدن ، حين رأيت جسديهما أشبه برسم كاريكاتورى لما يجب أن تكون عليه أجسام الرجال ، أو كأنهما تمثالان نحتهما يد مثال لا يفقه شيئاً فى علم التشريح ، عضلات رفيعة كعضلات

القطط البرية ، وركب ومرافق مدورة فى عقد كبيرة ، وبطون ضامرة مجوفة ، وضلوع بارزة كسلسلة فقرية لسمكة متحللة لفظها البحر على الشاطئ .

كانت الندوب تغطى جسم روچرز : بعضها أحمر ، وبعضها أزرق ، وبعضها أبيض . . . منها ما يشبه أثر الرصاص ، ومنها ما يبدو كأنه ضربات مخالب أو نهشات أنياب ، أما جسد أوجدن فلم يكن به سوى أثرين لرصاصتين حديثتين ، لونهما أرجوانى ملتهب ، وحولهما دائرتان قرمزيتان .

ولما جفت الخرق التى نسميها ثيابا على المجاز ، ارتديناها وتقاربنا حول النيران ، نصغى لشلالات هوايت ريڤر وهي تهدد بلا انقطاع . . وبعثت النيران فى جسدى دفئا مخدّرا ، وملأ دوىّ الشلالات مسمعى فلزمت مكانى ساهما ، لا يهمنى إذا كنت أستطيع التحرك غدا ، أو لا أستطيع . . .

* * *

كان من حسن حظنا أن تحطمت العائمة عند شلالات هوايت ريڤر ، فلولا هذه المساقط ، ما وجدنا كميات وفيرة من حطب الوقود ، ولو أننا نزلنا ببقعة أخرى

تضطر فيها إلى قطع أخشاب للنار ، لكان من المحتمل أن يقضى علينا البرد والإجهاد ، إذ كانت قوانا نفدت بعد الجهد المضنى الذى بذلناه فى العائمة ، ولم يعد فى طاقتنا أن نضرب بلطة أو نكسر جذع شجرة . كان البرد مريراً بحيث تغطت جميع الأخشاب والفروع والأوراق والصخور بطبقة من الجليد الذى ظل يهبط طول الليل بفضل ما ترميه الشلالات من رذاذ .

ورقدنا جوار النيران حتى علت الشمس فوق الأفق ، وجففت بحرارتها لسعات الهواء البارد .

قال روجرز : يجب أن نأكل شيئاً ، لأننا لن نستطيع الصمود فوق العائمة وبطوننا خاوية .

وتساءل روجرز : أية عائمة ؟

قال : سنبنى واحدة !

فقال أوجدن : لست أعرف كيف نبنيها وأنا عاجز عن استعمال بلطتى ، ولو حاولت ذلك لهوت البلطة على رجلى فتقطعها !

قال روجرز : لا تشغل فكرك بذلك ! وسأصنع العائمة إذا وجدتم لنا الطعام ! أنصت ! !

وسمعت صوت سنجاب أحمر يأتى من منحدر الوادى

المعتم خلفنا ، وتجاوب معه سنجاب آخر بعيد ، وكان صوتهما يصل إلى أسماعنا واضحا . ورأيتهما بعين الخيال يحركان ذيليهما عاليـــا ، ثم ينزلقان على الفروع فى سرعة وخفة .

قال روجرز : ها كما الطعام ! حقيقة أن السنجاب الأحمر المشوى لا يكفى لقمة واحدة ، ولكننا فى أشد الحاجة إلى ما نضعه فى بطوننا !

قال أوجدن : أظننا قادرين على إصابة عدد منها ؛ أما كيف نحضرها فأمر لا أعرفه ، إذ ليس باستطاعتى أن أحمل أكثر من سنجاب واحد ! واحد فقط !

وأردف يقول وهو يأخذ بندقيته : أرى أن نغيّر حشو البنادق ببارود جديد ، فالظرف لا يسمح بالخطأ فى إصابة الهدف .

قال روجرز : أريد معونتكما فى جمع الحطب قبل أن تذهبا ، إذ ليس هناك سوى طريقة واحدة لإسقاط الأشجار التى نحتاج إليها فى صنع العائمة ، هى طريقة احراق جذوعها عند سطح الأرض .

وجمعنا أكواما من الحطب حول جذوع ست شجرات قريبة من مجرى النهر وتركنا روجرز وبيلى يضرمان النار

فيها ، وجررنا أقدامنا على الشاطئ صاعدين ، لعجزنا عن الانحناء لمساعدتهما فى إشعال النار .

وأردينا خمسة سناجب فى ذلك الصباح . وكانت مهمتنا شاقة ، لا لعجزنا عن الإسراع عند سماع صوتها فحسب ، وإنما لعجزنا أيضاً عن إصابتها وهى تتحرك ، فكنا نقبع حتى يقف السنجاب منها ساكناً ، ثم نركز البنادق والأذرع قبل إطلاق الرصاص . وكانت نوبات التشنج من الجوع أكثر حدوثاً عن ذى قبل ، فإذا ما انتابت الواحد منا وهو يصوب بندقيته ، لا يملك إلا أن يحنى قامته ، حتى تمر بسلام .

وعدنا قبل الظهر فإذا بروجرز وبيلى ما زالا يرعيان النيران حول جذوع الشجرات الست .

وسلخنا السناجب الخمسة وشويناها ، وأخذ كل منا واحدا ، وقسمنا الخامس بالتساوى بيننا . وبينما كنا نلتقط اللحم من هياكلها التى تشبه الفئران ، هوت أولى الأشجار فى دوى شديد .

وما إن انتهينا من أكلتنا ، حتى أمرنا روجرز بالعودة إلى الصيد ثانية ، وقال : استمروا فى الصيد وثابروا عليه ... أطلقوا الرصاص على ما تلاقون من طير وحيوان ،

وسأكون عند عودتكم قد انتهيت من قطع الشجرات الست إلى كتل تصلح للعائمة .

كنت أتصور أنى لن أستطيع صعود الوادى ثانية ، ولكنى صعدت ، متخذاً من بندقيتى عكازا أستند إليه ، أو أتشبث بجذوع الأشجار التى تقابلنا فى الطريق . . . وأحسست أن السنجاب المشوى لم يبعث فى القوة المرجوّة ، فقد كنت فى حاجة إلى نصف كبش أو فخذ ثور على الأقل ، لأسكت ما يعتمل فى أحشائى من آلام الجوع ... وتذكرت بشوق ما قاله كاب هوف عن الأوزة البرية ، من أنها تزيد على وجبةٍ لرجل ، ولاتكفى لرجلين ! كم كان جهله بالجوع عظيما ! إن أوزة برية لا يمكن أن ترد عنى بعض آلام الجوع !

وخرجت قطاة عظيمة من بين شجيرات غير بعيدة عنا ، وكان لأجنحتها دوى كالرعد ، لم تلبث أن هبطت وارتطمت أجنحتها بغصون شجرة قريبة ؛ مما أكد لى أنها حطت فيها .

وهمست لأوجدن قائلا : إنها على هذه الشجرة !

ويعتبر صدر القطاة عادة ، مقدمة تفتح شهوة الطعام لأكلة خفيفـــة ، أما عن أكلة كاملة ، فالقطاة كلها

لا تستحق الذكر ؛ ولكنها كانت أكثر إغراء فى هذه اللحظة من أى شيء فى الوجود .

وسألنى أوجدن إن كنت أراها ، فقلت : إنى لا أراها فعلا ، ولكنى أعرف مكانها .

فقال : اذهب وأت بها ! سأسير أنا إلى اليسار محدثاً بعض الضوضاء لألفت نظرها ، وتسلل أنت إلى اليمين ، فتستطيع رؤيتها وإصابتها من الخلف .

ورقد أوجدن على ظهره بين أوراق الشجر ، ورفع يديه وساقيه يلوح بهما ، ويطلق صوتاً متحشرجاً كالأنين ، وزحفت نحو اليمين وأنا أدعو الله أن ترى القطاة فى أعمال أوجدن ما يسليها ، فتصدر منها حركة ترشدنى إلى مكانها ... وكانت الأشجار عارية عن أوراقها ، ولم يكن بينها شيء يشبه الطير من قريب أو بعيد ، فكدت أنادى أوجدن أن نعتبر الأمر منتهياً ، لولا حركة بدت عند شجرة بلوط كبيرة ... وإذا بالقطاة تنظر إلى أوجدن ، وتتأمل حركاته العجيبة .

وأسندت البندقية جيدا ، وأحسنت التصويب ، وأطلقت النار ... وطارت القطاة المصابة فى عجز ، وانحدرت مائلة إلى الأرض ... وأسرعنا إلى المكان الذى سقطت فيه ، وكان بقعة صخرية خالية من الحشائش ، قليلة

الأشجار ، فلم نعثر على أثر للقطاة ، ولم يظهر لها شبح فى الأرض كلها .

قال أوجدن : أواثق أنت من سقوطها هنا ؟

فقلت : إننى متأكد من أنها سقطت فى المكان بعد إصابة قاتلة ..

قال مؤمنا على قولى : نعم ، لقد أصيبت فعلا ، ولكنى لا أظنها سقطت هنا ، وإلا رأيناها ... لا بد أنها حطت خلف هذه الصخور .

وذهبنا وراء الصخور ، وبحثنا عنها دون جدوى ، كنا ندور فى حلقات ، ولا نترك شجيرة أو صخرة إلا نظرنا تحتها ، ولكنها كانت قد اختفت تماما ...

قال أوجدن : أواثق أنت أنها أصيبت ؟

فأومأت برأسى فقط ، ففكرة ضياع هذه القطاة أعجزتنى عن النطق ، وخفت إذا فتحت فمى بالكلام أن أنفجر باكيا من اليأس .

وحملق أوجدن فى الأرض بعينين غائرتين ، وهمس قائلا : أظنك أخطأت الهدف !

واتسعت حدقتاه فجأة وصاح : هذا والله أغرب ما رأيت !

كان يحدق فى مجموعة من أوراق الباوط وقد اشتبكت

فى طرف شجيرة صغيرة ... وتحولت تلك الأوراق فى نظرى إلى قطاتى الضائعة ، كأنما مستها عصا سحرية .. كانت قطاة هائلة الحجم ، ولا بد أننا مررنا بها فى أثناء بحثنا لا أقل من عشرين مرة دون أن نراها .

وملت عليها وأخرجتها من مكانها ، فإذا هى ما زالت دافئة .

كانت أسمن ما رأيت من القطا فى حياتى وأجملها وأقدسها ، وقد أصابتها الرصاصة فى عنقها ، وأبقت على صدرها وجسمها سليمين .

ورفعت نظرى إلى أوجدن وقلت : إنى مدين لك بشكر عظيم إذ وجدتها أيها اليوزباشى ! إن شكرى لا نهاية له...

قال : كنت أعلم يقينا أنك أصبتها ! إنها إصابة بارعة ، يا لانجدون ! أجمل وأدق إصابة آمل أن أراها فى يوم من الأيام ...

* * *

كانت الأشجار الست قد سقطت على الأرض عند عودتنا ، وتحت كل شجرة ثلاث كومات من الحطب الذى أشعل لقطعها إلى كتل ملائمة نصنع منها العائمة .. وجلس روجرز على الشاطئ عاقدا يديه حول ركبتيه ، والصبى بيلى مستلق بجواره فى سبات عميق .

ورفع الصاغ وجهه إلينا ، وكان منظره عجيبا : فالسناج

يغطى وجهه ويديه بلون أسود ، وعيناه البيضاوان تبرقان وهو ينظر إلينا مستطلعا أخبار الصيد . فأخرجت القطاة أريه إياها ، فهمس قائلا : يالله ! هيا نأكلها قبل أن ينقلب الحظ علينا !

وأكلنا أحشاء القطاة أولا ، بعد تنظيفها وطهوها على الأحجار الساخنة ؛ ثم أكل كل منا نصف سنجاب مشطور بطوله . وجاء دور القطاة ، وكان تقسيمها بالتساوى أمراً عسيرا : إذ كنا نعرف أن لحم هذا الطير خشن جامد من العسير أن يمضغ إذا كان قد ذبح حديثا .. فقطعناها إلى نسائل رفيعة ، وقسمناها بما يرضينا جميعا ؛ أما هيكلها العظمى فقسمناه دون نقاش كثير إلى أربعة أقسام : ربع لكل منا .

وقبل أن ننام تلك الليلة ، كانت النيران قد أدت عملها فى الشجيرات الست ، وانفصلت الكتل الاثنتا عشرة ، ولم يعد ينقصها لتكون عائمة ، سوى أن ندفعها إلى الماء ، ونثبت بعضها ببعض .. وبدت لى تلك المهمة ، مهمة صنع العائمة ، أكثر صعوبة وتعقيدا من إدخال قنفذ فى ماسورة بندقيتى .

الفصل الثاني والأربعون

ما زلت إلى اليوم أحلم أحيانا ببناء تلك العائمة الثانية ، فأستيقظ من نومى على أنينى وتوجعاتى ، إذ أننا احتملنا فى أداء هـــذه المهمة جهوداً لا يتصورها العقل ، وماكنا لنستطيع أن نحرك الكتل الثقيلة بأذرعنا الواهنة ، لولا علمنا بأن العجز معناه الموت المحقق .

وغرسنا أوتاداً فى قاع النهر الضحل لنمنع الكتل من الاندفاع مع التيار ، ثم بدأنا نحرك كتلة منها بوصة بعد بوصة ، عبر الشاطئ المغطى بالحصى والأحجار ، وبعد ذلك دفعناها إلى الماء دون أن ندحرجها ، حتى لا تتحطم الفروع التى أبقينا عليها لنربطها بالحبال بعضها مع بعض ، فلا تنفصل بسهولة .

كنا نستخدم كل الطرق الممكنة : مرة نستعمل الروافع ، وأخرى ندفعها فوق كتل صغيرة مستديرة ، وأحيانا نرقد على ظهورنا — تحاشيا لتشنجات الجوع — ثم ندفعها بأقدامنا أو أكتافنا ، حتى غطانا السناج من رءوسنا إلى أقدامنا .

فإذا أوصلنا كتلة إلى النهر ، ثبتناها فى الأوتاد المغروسة فى القاع ، إلى أن نأتى بالثانية ، ونربطها بحبل طويل مجدول ، لكى نجذبها ثانية إلى الشاطئ إذا حدث أن أفلتت من مربطها ... وإمعاناً فى الحيطة كلفنا بيلى بحراسة الكتل فى مربطها ، حتى لا يسحبها التيار على حين غفلة منا .

وانتهينا من العائمة عند الظهر . فعلقنا البنادق والأغطية المهلهلة فى قوائم بوسطها ، وصنعنا مجاذيف جديدة ، كما جدلنا حبلا طويلا من الفروع الغضة على سبيل الاحتياط .

وكان روجرز مصرًّا على أن نجدل هذا الحبل الطويل ، وظل يقول مرة بعد مرة : لا نريد أن نفقد هذه العائمة ! يجب أن نحتفظ بها !

وكنا مؤمنين بصواب ما يقول من أننا لن نستطيع أن نصنع عائمة ثالثة . . .

ولست أدرى إن كان البرد المتزايد الذى ينذر بالصقيع ، أو كان الجهد العظيم الذى بذلناه فى بناء العائمة ، هو السبب ، ولكن الذى أعرفه ، أن كل ما أكسبتنيه قطعة القطاة ولقمة السنجاب من نشاط ، تلاشى عن آخره ولم يبق له أثر ... ولو أن حياتى توقفت على السير ميلا واحداً ، ما استطعت أن أقطعه بحال من الأحوال .

وعندما حان وقت الرحيل ، كان بيلي التعس يقاسي نوبة من التشنجات أعجزته عن الجلوس معتدلا ، فأرقدناه على فراش من الفروع بوسط العائمة . . فبدا بأنفه الحاد ، وعيونه المسبلة ، وشفتيه المتقلصتين على أسنانه ، أشبه بمومياء نُزعت عنها أكفانها . .

وفككنا العائمة ودفعناها ببطء إلى وسط التيار ، ثم ارتمينا فوقها كالأموات من فرط الجهد ، غير آبهين بالمياه الباردة التى تتسرب من بين كتل الخشب ، فتبلل أجسادنا المرتجفة . . وجال بذهنى فى تلك اللحظة أن أرسم فى يوم من الأيام صورة لنا أسميها « المطرودين » ولكنى عدت فتذكرت أن أعظم صورة فى الدنيا لايمكن أن تعطى سوى فكرة ضئيلة عما نحن فيه ، فلن تظهر فيها الرحلات التى لاتنتهى ، ولا البلل والارتجاف الأزليان ، ولن يحس الناظر إليها بوجيعة الجسم والروح ، ولا بالجوع الدائم والجهد المستمر والإنهاك الذى لا حدود له ولا نهاية .

ونهض روچرز على ركبتيه ، وسمعته يذكر شيئاً عن « شلالات » فأيقظنى حديثه من سباتى ، وصحت أسأله : شلالات ؟ ! أهناك شلالات أخرى ؟

قال بلهجة هادئة : ليست شلالات خطرة ! إنها منحدرات واتوكويتشى ، وتقع على سبعة أميال من هنا . . .

طولها خمسون ياردة ، وربما أمكننا المرور فيها بالعائمة ...
وتحاملت وأوجدن على أقدامنا واقفين .

وقال أوجدن : ولماذا ، بحق الله ، لم نذهب إليها ثم نبني العائمة بعدها ؟

أجاب روجرز : وهل كان في مقدورك أن تسير سبعة أميال ؟ ثم ماذا كان يحدث لهذا الصبي ؟ فضلا عن أنني شخصياً ، لم أكن واثقاً من قدرتي على السير مسافة بهذا الطول .

سألته : وهل نستطيع رؤية تلك المساقط قبل الوصول إليها ؟

قال : نراها ؟ طبعاً ! إن واجبنا يقضي علينا أن نراها ، وعلينا أن نراها !!

وأنعمنا النظر ، وأجهدنا العيون في فحص مجرى النهر الواقع أمامنا ... وبدأت السماء الملبدة بالغيوم ترمينا بقطرات صغيرة من الثلج ... وتصاعد من سطح الماء المتموج ضباب خفيف ، يشبه ذلك الضباب الذي رأيناه قبيل وصولنا إلى شلالات هوايت ريڤر ... وبعثت ذكرى تلك الشلالات في نفسي شعوراً بالإغماء ، إذ لو زاد سقوط هذا الثلج وتكاثف ، فقد لا نرى تلك المساقط إلا بعد فوات الأوان .

وبعد أميال ثلاثة ، قطع روجرز السكون بقوله : قد نستطيع المرور فيها فوق هذه العائمة !

وبعد ربع ساعة ، عاد يكرر نفس العبارة ... وتأكدت أن هذه المساقط لم تغب عن باله لحظة طوال اليوم ، فهى سبب إلحاحه الشديد فى جدل حبل طويل يثبت بالعائمة ... ورحت أتساءل فى نفسي عما عساه قد يحدث إذا لم نستطع المرور بالعائمة عبر المساقط ؛ ولكنى لم أجرؤ على التوجه إلى أحد رفاقى بهذا السؤال .

* * *

وفى نحو الثالثة مساء ، لمحنا المساقط من خلال ستار الثلج المتساقط ، فنحونا بالعائمة إلى الشاطئ الأيسر ، حتى تتسنى لنا فرصة دراسة المنحدرات المائية عن كثب .

وظننت لأول وهلة أننا نستطيع عبور المساقط بسهولة ، فالمياه السريعة لا يزيد طولها عن خمسين ياردة ؛ ولكن الأمل لم يلبث أن تبدد حين اقتربنا منها ، إذ تبينت أن العائمة لا يمكن أن تهبط سليمة إلا إذا أفرغت حمولتها إلى آخر أوقية منها ... ورأينا وسط الماء المنحدر زبداً يتصاعد مما يدل على انتشار الصخور الخطرة تحت سطح الماء ، وإذا اصطدمت العائمة بصخرة منها ، يذهب آخر أمل فى نجاتنا ،

وأرسينا العائمة على بعد ياردات من المنحدر ، وأسندنا جانبها فوق الشاطئ ، وبقوة مجاذيفها أبقيناها فى مكانها ، لكى تتسنى لنا دراسة المسقط الرئيسى القائم وسط النهر ، وكان عميقا داكنا تغطيه طبقة من الزبد .

قال روجرز : الأصوب ألا نجرب الهبوط ونحن بالعائمة !

فقال أوجـــدن : ولكن لابد من شخص عليها ، وإلا ضاعت فرصتنا الوحيدة ...

قال روجرز : لا ! ليست فرصتنا الوحيدة ! فالطريقة المثلى أن أسير أنا إلى ما بعد المنحدر ، ثم أقف عند مسقط المياه ، لأمسك بها بعد أن تهبط فارغة .

وفاجأ أوجدن تشنج فى أمعائه ، فوضع يده على بطنه ، وقال : لن تستطيع ذلك !

وتظاهر روجرز بأنه لم يسمع كلامه ، وقال : وهذا ما يجب أن نعمله ... فخذوا بيلى إلى الشاطئ ، وأفرغوا العائمة من المتاع والبنادق ؛ وسأمسكها لكم حتى تنتهوا من مهمتكم !

وتردد أوجدن قليلا . .

فصاح روجرز يقول بحدة : أيها اليوزباشى أوجدن ، لقد سمعت أوامرى !

وأسرع أوجدن ينفذ الأمر ، فجمعنا حوائجنا فى عجلة ، ثم حملنا بيلى من ذراعيه النحيلتين ، وسحبْناه إلى الشاطئ ، حيث رقد منطويا على نفسه ، كأنه جثة هامدة . . وثبتنا الحبل الطويل ، كما أمر روچرز بأقوى فرع بالعائمة بعد أن خبر أوجدن متانته ، ثم ربطنا المجاذيف بالأفرع البارزة منها . . . وكان الحبل متينا قويا كأحسن ما يكون .

إذ ذاك قال روچرز : والآن ، أستحلفكم بالله ألا تتركوا الحبل قبل أن أعطيكم إشارة بذلك . . فأنا فى حاجة إلى بعض الوقت حتى أصل إلى مهبط النهر ، وأخلع ملابسى وعندما أرفع ذراعى ، أطلقوا العائمة من عقالها مع التيار ، ودعوا الحبل مدلى وراءها ، حتى أمسك به إذا عجزت عن الإمساك بها .

وربط مجذافه بجانب مجاذيفنا بالعائمة ، ثم سار على الشاطئ مبتعداً .

وتعاونت مع أوجدن على وقف العائمة فى مكانها ، وتعلقنا بحبلها وهى تشـــدنا بإصرار ، كأنها تتوق إلى الإفلات منا . .

وأخذ روچرز بندقيته وبارودة وحوائجه ، وسار ببطء حتى غاب من أنظارنا وسط الغابة العتمة . . . وتكاثفت قطرات الثلج المتساقطة كأنها تريد المساهمة فى إخفائه عن

عيوننا . . . وخطر لى أنه من المحتمل جداً ألا أراه أو أسمع صوته مرة أخرى . . وأخذت العائمة تشدنا بإلحاح ، كأنها مصممة على الخروج إلى وسط التيار رغم أنوفنا . . وخشية أن تنتزعنا من موقفنا ، جلسنا على القاع الضحل وغرسنا أقدامنا وسط الصخور .

وتمتم أوجدن يقول : أراهنك أن طريقتى أحسن ! وكان من الأفضل أن يجلس أحدنا فوق العائمة ، إذ لو أصاب الصاغ تشنج وهو يسبح نحوها . . .

ولم يكن هناك ما يدعو إلى تتمة الحديث ، فسكت عن الكلام فجأة .

وتحركت أغصان الشجيرات فى دغل قريب من مهبط النهر ، وبرز روچرز من خلال ستار الثلج المتساقط ، وجعل يتلفت يميناً وشمالا يبحث عن مكان يصلح لمهمته . وعاد إلى الدغل ثانية ، ثم خرج إلى موقع صخرى أقرب إلينا من موقفه الأول . . وفى بطء يثير الأعصاب ، وضع بندقيته وغطاءه وبارودة على الأرض ، ثم راح يخلع ثيابه . .

واقترب من حافة الصخر يتأمل الشلال بإمعان ، فكان أشبه بذرّة وحيدة عارية لاحول لها ولا قوة ، أمام ذلك العالم الصاخب بالماء والثلج والغابات والتلال العالية المعتمة . . ثم رفع ذراعه يعطى الإشارة . .

وأفلتنا حبل العائمة وقمنا واقفين . . . واهتزت العائمة فى بطء وهى تتجه نحو التيار وتسير معه ؛ ولما وصلت إلى المنحدر ، ارتفع جانبها فوق الأمواج البيضاء ، ثم اندفعت إلى الأمام .

وسارت تهتز وتمايل ، حتى وصلت إلى منتصف المسافة ، فانخفض مقدمها ومرت فوقه موجة عالية غمرتها كلها من مقدمتها إلى مؤخرتها . . ولكنها طفت ثانية وسط الأمواج . . ثم بدت كأنها تلقى بنفسها لاهثة صوب منحدر المياه المسرعة . . وغطست متثاقلة فى دوامات المهبط ، ووقفت لحظات وقد مالت قليلا : نصفها فوق الماء ونصفها تحته . . . وانتظرنا أن نراها تتفكك إلى أجزاء ، ولكنها صمدت وعادت تطفو ثانية على سطح الماء فى بطء وجهد ، وهى تدور بخفة وسط خطوط الزبد المتدفقة .

ودلى روچرز نفسه من فوق الصخرة ، وسبح فى عناء وحركات عنيفة ، حتى بدا كأن نصفه الأسفل يريد أن يطفو على حساب رأسه الغاطس . . وتوقف مرة ليمسح الزبد عن عينيه ، ثم انقلب على جانبه ينظر إلى العائمة ، التى صارت الآن فى قبضة التيار تطفو مسرعة .

وغير اتجاهه . . وجعل يسبح نحو العائمة ، حتى اقترب جداً منها ، ومد ذراعه يمسكها ، ولكنه أخطأ الهدف ،

فضرب الماء بقدميه ثانية ، وأمسك العائمة بإحدى يديه ثم بالأخرى . . وبقى على هذا الوضع لحظات ، وقد أسند ذقنه على حافة العائمة وترك جسمه يحمله الماء وراءها . . وتوترت أعصابى فى تلك اللحظة ، إذ لم أكن أتصور أن إنسانا فى هذه الدنيا الواسعة يستطيع أن يصمد طويلا أمام عائمة كهذه ، بعد أن هرأه الثلج ، وامتص الجوع قواه ، وأضعف الجهد أطرافه . .

وكأنما أراد روچرز أن يرد على مخاوفى ، فشد نفسه بذراعيه ، وشبك يده فوق العائمة وتشبث بأحد فرعها ، ثم رفع نفسه قليلا حتى صار نصفه الأعلى فوقها . . . ورقد زمناً طويلا هكذا بلا حراك ، حتى ظننته فى غيبوبة ، ثم ثم تبينت أنه يحاول أن يرفع ركبته إلى حافة العائمة ونجح فى النهاية ، وزحف إلى وسطها ، ورقد منبطحا فوقها . . .

وهمس أوجـــدن : ما كنت أتصور أن ينجح فى الإمساك بها . . .

أما أنا فقد كنت أرتجف من قمة رأسى إلى إخمص قدمى ، وجف حلقى وجمد لسانى ، فلم أستطع أن أرد على ملاحظة أوجدن .

وأقام روچرز على ركبتيه ، وحل مجدافا من عمودها الوسطى ، وبدأ يدفع العائمة ببطء نحو الشاطئ .

الفصل الثالث والأربعون

تمتعنا بالدفء والحياة فى تلك الليلة بفضل الأخشاب المتراكمة بجوار مساقط واتوكويتشى ؛ وما إن بزغت أضواء الفجر الرمادية فى اليوم التالى التعس — وكان الأخير من أكتوبر ، وهو يوم خالد رغم تعاسته — حتى أرقدنا بيلى وسط العائمة متوسدا بعض الأغطية ومتلحفا بعضها الآخر ، ثم دفعنا العائمة إلى وسط النهر . . . وكان سقوط الثلج قد انقطع وأعقبته رياح عاتية شديدة البرودة تخز الأبدان كسكاكين مثلجة .

لم يكن — كما قال روجرز — بين واتوكويتشى ورقم ٤ شلالات أو مساقط ماء ، بل لم يكن هناك سوى البرد الخبيث الذى أصر على الفتك بما بقى منا ، بعد كل ما بذله الفرنسيون والهنود من جهد للقضاء علينا ، تعاونهم شياطين الغابات وأرواح الغدران الشريرة .

وكنا كلما أوغلنا فى السير تزداد السهول اتساعا والتلال بعيدا عن جانبى النهر . . . وظلت الرياح تعوى حولنا دون هوادة ، فيتردد صـــوتها فى أسماعنا كأنه عويل جن

الفلاة ، وقد أغضبها أن ترانا نفلت من قبضتها الرهيبة ،

وحدق روچرز فى السهول المتسعة حوله بعيون أدمعها البرد ، وقال : سوف نصل ! والله ، أعتقد أننا سنصل !

وما إن انتصف عصر ذلك اليوم ، حتى رأيته يقبض ذراع أوجدن ، ويقول فى صيحة عالية : انظر ! انظر ! !

ثم انحنى بسرعة وقد فاجأته نوبة التشنج ، ومع ذلك ظل يشير بذراعه كممثل يقوم بدور أحدب . . .

كان هناك على ضفة النهر ، وعلى بعد مائة ياردة ، رجلان يحتطبان ، ما لبثا أن قاما واقفين لمرآنا . . .

قال أوجدن ـ وهو لا يصدق عينيه ـ : يا للعجب ! إنهم الآدميون مرة أخرى ! !

ولم يتكلم روچرز ، لأن لسانه ـ على ما أعتقد ـ انعقد مثلما انعقد لسانى .

وكان الغريبان رجلين كما يجب أن يكون الرجال ـ لا هياكل بشرية مثلنا ـ يرتديان الملابس الكاملة ، ويطوحان فأسيهما فى قوة وصحة . . .

ورآنا الرجلان فاقتربا من الضفة مسرعين . .

قال روچرز يحذرنا بصوت مبحوح ، ونحن نوجه العائمة نحو الضفة : اسكتوا ، ولا تقولوا لهما شيئاً ! دعوا الحديث لى . . . لا تنطقوا بكلمة حتى أعرف كل شىء عن الحيوانات الدنسة التى هربت بطعامنا !

وخاض أحد الرجلين الماء وأمسك حبل العائمة ، وسحبها إلى الشاطئ . . وسأله روچرز : أين رقم ٤ ؟

ولم يردا على السؤال وظلا يحملقان فينا . . .

وعاد روچرز يقول : إننى روچرز ، فأين قلعة رقم ٤ ؟

وبدا الرعب عليهما ، وأجاب أحدهما : روچرز ؟ أتقول إنك روچرز ؟

وقال روچرز : نعم . . .

قال الرجل وهو يزدرد لعابه : لقد رأيتك كثيراً ، ولكنك تغيرت بشكل يدعو إلى العجب !

وهز رأسه ثم أردف يقول : لقد سمعنا أنك ميت ، أيها الصاغ ؛ وأظنها الحقيقة ! لقد قتلت ! وعلى أى حال ؛ أنت الآن فى رقم ٤ ، أيها الصاغ . . إن القلعة هنا ، وسنعاونكم حتى تصلوا إليها .

وبين حركات الانزلاق وخوض الماء التى يغشاها

الانفعال ، أعاننا الرجلان بأذرع قوية لا عهد لنا بها ، حتى أخرجانا من العائمة ، وحملا بيلى إلى الشاطئ وصفا حوائجنا فى كومة عالية ، ثم ربطا العائمة إلى وتد على الضفة . كانا ينظران بمنتهى العجب إلى أطراف الكتل المحروقة والحبال المصنوعة من الفروع ، ويحملقان فى روچرز بلا انقطاع كأنه أعجوبة من أعاجيب الزمن .

وجلسنا على الشاطئ حتى انتهيا من ربط العائمة ، ثم سألهما روچرز : ترى هل معكما شيء من الطعام ؟

ونظرا إليه مليا بضع لحظات ، ثم نهضا إلى الشاطئ يعدوان ، وعادا بعد دقائق خمس ومعهما ثلث زجاجة من الروم ، وقطعة من خبز فى حجم قبضة اليد ، وقالا : هذا كل ما لدينا يا أيها الصباغ ! كنا نحتطب ولم نحضر معنا طعاما كثيرا ! ولكن القلعة عامرة بالمؤن وفيها كثير من اللحم الطازج واللفت .

وكسر روچرز الخبز إلى أربع قطع وهو يقول : عجبا ! إنه خبز ! !

وأعطى كلا منا قطعة ، وأخذ لنفسه جرعة من الروم ، ثم ذهب إلى بيلى ونحصه ، وسكب قليلا من الشراب بين

شفتيه ؛ فلما فتح الغلام عينيه وسعل ، ناوله قطعة الخبز . وناولنا زجاجة الروم ...

وكان للقمة الخبز المشبعة بالروم فى أفواهنا حلاوة ونكهة لا يتصورها العقل ... كنت أحس بها تهبط إلى أحشائى فترسل فيها دفئا لذيذا ، كأنها تطمئن معدتى المتقلصة وقلبى الخفاق ورئتى المتعبتين ، وجسدى المرتجف ، إلى أن زمن العذاب قد ولى وراح ...

وقال روچرز للحطابين المذهولين : هيا بنا الآن إلى القلعة ، ويحسن أن تعاونانا قليلا على المشى . دعا المتاع هنا مؤقتا ، وليحمل أحدكما الغلام الهندى ، وسنستند عليكما فى السير .

وحمل أحدهما بيلى ، وأسلم الثانى إحدى كتفيه لأوجدن والأخرى لى . . وسار روچرز خلف الأول متحاملا ، يصطدم به مرة بعد مرة .. ومشينا إلى القلعة ، وظهر مبناها أمامنا مربعا منخفضا ، وسط رحبة من الأرض غطاها الجليد ... كانت نفس الفسحة التى رسمتها فى تكاسل ذات يوم من أيام سبتمبر الدافئة منذ أقل من شهرين .

ولم يكن على باب القلعة حرس ، وخلا من الجند ميدان تدريبها الذى اختلط جليده بطينه فتحول إلى وحول لكثرة

ما وطئته الأقدام . وقادنا مرشدانا عبر الميدان إلى ثكنة الجنود الخشبية التى يقوم فى طرفها الشمالى برج خشبى للمراقبة . . وجذب الرجل الذى يستند إليه أوجدن حبل المزلاج . ورفس الباب بقدمه فانفتح . .

كان بوسط القاعة وأمام بابها موقد حجرى عريض تشتعل النيران فيه ، وعلى الجانبين اصطفت أسرّة الجند ، وعلى الأرض المفروشة بالبطاطين جلس اثنا عشر من جنود المقاطعات يلعبون النرد .

ورفع الجند أنظارهم إلينا ، وصاح أحدهم غاضبا : أغلق هذا الباب !

فقال أحد الحطابيْن بصوت يخنقه الانفعال : لقد جئناكم بالصاغ روچرز .. إنه هنا !

وقام الجنود فى بطء واقفين يحملقون غير مصدقين ، ثم تغيرت تعابير وجوههم إلى رعب كأنهم رأوا عفريتا يقف أمامهم .

وسأل روچرز : من القائد فى هذه القلعة ؟

وأجاب أحدهم بصوت مبحوح : إننا غرباء عن هذا المكان ، ولا نعرف اسمه ، أيها الصاغ !

قال بلهجة آمرة : إذاً نادوه وأحضروه إلينا ...

وقفز ثلاثة منهم معا ، وهم يتعثرون لفرط سرعتهم ؛ فيتصادمون فى طريقهم إلى باب القاعة ..

وسار روچرز يترنح إلى الأريكة ، والجند المذهولون يفسحون الطريق أمامه .

قال للحطاب : ضع بيلى فوق البطانية ، وعد لإحضار ما تركناه من المتاع والبنادق ..

وسرت مع أوجدن إلى الأريكة الخشبية بصعوبة .. وقد كدت أختنق بالشعور العجيب الذى انتابنى حين وجدتنى فى غرفة مقفلة لها سقف وجدران ، وفيها نيران موقدة ..

وانفرج الباب بسرعة ، ودخل منه ضابط قوى البنية ، يرتدى حلة زرقاء مجعدة الثنايا ، وراح يفحصنا بعيون تطرف ، ثم قال : أيهم ؟ أى رجل فيهم ؟

وتقدم منا قائلا : أخبرونى بأن الصاغ روچرز هنا ! ولست أراه بينكم !

فقال الصاغ : أنا روچرز .. والآن ، أصغ إلىّ واكتب ما أمليه عليك من الأوامر فورا ، إذ ليس باستطاعتى إعادة الكلام .. قل لى ، ما اسمك ؟

أجاب الضابط : اسمى بيلوز ، ومهمتى أن أحرس مخازن الملك هنا ..

وضرب بيده على جيوبه ، وبدا الارتباك عليه ، ثم

أسرع خارجاً من القاعة وعاد بورقة وقلم ، ثم أردف يقول :
لم نكن نعرف . . . .

وتلعثم فى الحديث ثم قال : لقد سمعنا ... أين كنتم ؟!

فقال روچرز : أحضر زوارق وحملها بالمؤونة ، ثم اصعد بها النهر إلى مصب الأمونواوزاك .

قال بيلوز معتذرا : هؤلاء الرجال من جنود المقاطعات وهم فى طريقهم إلى العودة ، وليس هنا سوى ...

فقاطعه روچرز قائلا : هات رجالا من المزارعين ! هات أحسن من يجذف فى الزوارق ! استأجرهم إذا اقتضى الأمر .

فقال بيلوز متشككا : إن الجو سيئ ، وربما لو تحسن ..

وقام روچرز يتمايل على قدميه ، وانتصب فى وقفته ، وشد جسمه إلى أطول ما يستطيع ، حتى بدا كأنه يملأ فراغ القاعة ، وقال بصوت متوتر مبحوح : اليوم ! اليوم ! بل الآن ! استأجر رجالا وادفع لهم أجورهم فى هذه اللحظة ! أحضر كل مزارع إلى القلعة ! ألا تدرك أن هناك مائة متطوع يموتون جوعا عند مصب الأمونواوزاك ؟ ناد المزارعين هنا ! اضرب الطبول لجمعهم .. وسوف أتحدث إليهم ! هيا وحق الله ، أسرع !

وحملق بيلوز دهشاً ، واندفع نحو الباب ينادى أحد

الرجال .. وصرخ بأعلى صوته يقول : اجمعوا الصفوف ! ..
اجمعوا الصفوف !

ودخل ثلاثة جنود بينهم ضارب الطبل ، وأشار بيلوز إليه فعاد يجرى إلى وسط الميدان ، وهو يعلق طبله حول عنقه . . ولم تمض ثوانٍ حتى كان دوى الطبل يبعث الرعدة فى جسدى .

وصرخ بيلوز فى الجندى الثانى قائلا : أسرع إلى مسز بيلوز ، وأحضر منها دلوا من اللبن وزجاجة من الروم الخاص بى .

فقال أوجدن : وبعض الخبز . .

فصرخ بيلوز فى الجندى : وكل ما لديها من خبز !

وارتمى روچرز على الأريكة ، وحك وجهه الضخم بيد كبيرة بارزة العظام ، ثم مرر أصابعه خلال شعره ، وقال : اكتب أمرا بإرسال المؤن إلى أعلى النهر . . . خبرنى عما لديكم من أصناف الطعام . .

قال بيلوز : لحم خنزير مقدد ، ولفت ولحم بقرى طازج . .

فسأله روچرز : وما مقدار ما عندك من الخبز ؟

أجاب : ليس كثيراً ، فجنود المقاطعات هؤلاء . . .

وقاطعه روچرز قائلا : عليهم اللعنات ! ليذهبوا

دون خبز .! ضع كل ما تجده عندك من طعام فى زوارق ، ثم ابعث فى طلب المزيد ... هات الموجود كله ! يجب أن يُطعم رجالى ، وإلا فقسما بالله لأغيرن على كل بيت فى هذه المحلة !

وظل الطبل يدوى ويرعد . .

وخط بيلوز الأوامر على الورقة بسرعة ، وبعث بها مع الجندى الثالث الذى خرج بها من القاعة يعدو ... وتجمع عدد من الناس عند الباب ، وراحوا ينظرون إلينا بعيون جاحظة ...

ورفع روجرز صوته ليعلو فوق دوىّ الطبل المستمر ، قائلا لبيلوز : أخبرنى ! لقد كان المفروض أن يلاقينا الطعام عند مصب الأمونو أوزاك ، أفلمْ ترسلوا الرجال به ؟

أجاب هذا وقد بان عليه الوجل : طبعاً ! لقد كلف الملازم ستيفنس بهذه المهمة .

وسأله : وماذا صنع به إذاً ؟

أجاب : لقد عاد به بعد أن انتظر عدة أيام ، ظن فى آخرها أنكم قتلتم عن آخركم ، فلما سمع طلقات رصاص ذات صباح ، تصورها صادرة من الفرنسيين أو الهنود ، فاستقر رأيه على العودة بها ...

فقال روجرز يحدث المجتمعين كما يحدث بيلوز : أصغوا إلىّ ! لقد محونا مدينة سانت فرانسس من الوجود لأجلكم ، ويمكنكم أن تتقدموا إلى أعلى النهر ما شئتم ؛ حيث تعيشون فى سلام وأمان ؛ أما ذلك الملازم ، الذى أفزعه الرصاص الذى أطلقناه إعلاناً عن وجودنا ، وجعله يفر بمئونتنا منا ، فلى معه حساب عسير ... أهو موجود هنـــا ؟

فقال بيلوز مرتجفاً : لا .. لقد عاد إلى كراون پونيت .. إنك ذاهب إليها ، كما أعتقد ، أيها الصاغ ؟

قال روجرز بصوت مخنوق : لا ! لم يحن الوقت بعد !

وظل الرجال جميعهم يحدقون فيه مبهوتين ، وقد وقف فى ضوء النيران كالعملاق ، عارى القدمين تغطى جسده السحجات والكدمات ، لا تستره إلا نسائل متهدلة هى كل ما تبقى من ملابسه ، فسرواله الجلدى قد اتسع بضمور ساقيه وفخذيه ، وبقايا سترته لم تعد تكفى لتغطية الضلوع البارزة فى صدره التحيل ، ويداه تغطيهما آثار العائمة من ندوب وجروح وسناج .

قال بعد لحظة : لا ! سوف نرى الملازم ستيفنس فى كراون پونيت فيما بعد ! أما الآن ، فأعطونى بعض اللحم ... لحم بقرى سمين ، فسوف أعود ثانية إلى مصب الأمونو اوزاك ! !

الفصل الرابع والأربعون

كان مستحيلا أن يصدق عقلى أن ذلك الرجل الذى أيقظنى من نومى صباح اليوم التالى ، هو نفس الرجل الذى كان على شفا الموت جوعا وإرهاقا منذ أربع وعشرين ساعة فقط ! كان قد بكر ، قبل إيقاظنا ، إلى الزوارق يطمئن على حمولتها من المؤن ، ويتأكد من قيامها فعلا إلى الأمونوأوزاك . . . وآمنت فى نفسى بأنه رجل لايقهر ، وليس فى الوجود قوة تستطيع أن تدمره ، فهذا روچرز صاحب فرقة المتطوعين وقائدها ، وهو البطل الذى دمر سانت فرانسس ومحاها من الوجود . . . وهو الذى قادنا إلى الجحيم ثم أخرجنا منه . إنه الجبار الذى لا يمكن أن يقتل أو يغلب على أمره . وأحسست وأنا أنظر إليه أن روحه القوية هى السر فى عظمته ، وحتى إذا قدر لجسده أن يفنى ، فستبقى روحه معنا تقودنا وتدافع عنا وتحارب فى صفوفنا ، إلى أن تصل بنا إلى بر الأمان . . . .

وكان الوقت قد حان لأفترق عنه ، ولم يكن لذلك معنى سوى أنى سأسير منذ الآن فى حياة أكثر دعة

وهدوءاً . . . فأحسست كأنني أدير ظهري للمجد ، وأهجر ميدانه . . كنت شابا حديث السن مررت بمحن شديدة ، ومثل هذه الظروف تجعلنا نعترف بالبطولة فيمن قادنا وأنقذنا . . . أما اليوم فالذي أعرفه أنني لم أكن قد رأيت من روچرز في ذلك الوقت سوى نواحي العظمة في شخصيته ، وما كنت لأصدق أنه يستطيع في أي موقف من مواقف الحياة أن يكون أقل شأنا مما عهدته فيه خلال رحلة سانت فرانسس .

وأيقظني روچرز ثم قال : تعال ! إني في حاجة إليك بعض الوقت .

كان قد استعار حلة من الجلد أضيق من مقاسه ، وهو أمر طبيعي : إذ كان أضخم من عرفت من الرجال حتى كاپ هوف . وجلسنا نحن الأربعة نتناول وجبة فطورنا : روچرز وأوجدن وبيلي وأنا . . وبدأنا بفخذ كاملة من اللحم المقدد ، ومسحنا دسمها بالخبز ، وغسلنا حلوقنا بإبريق كبير من الشاي المركز . . وأحسست بعد هذا الإفطار أنني قد ازدردت كيسا مليئاً بالرصاص .

قال روچرز يحدثني : سأترك بيلي هنا ليسترد قوته ويسمن قليلا ، وعليك إذا ما رجعت من كراون پوينت أن تأخذه معك وتحتفظ لي به . . إني أذهب إلى پورتسماوث

من آن إلى آخر ، وسأطلبه منك عندما أحتاج إليه .
وقد تستفيد به فى ذات الوقت كنموذج لرسم الهنود ، فإن لهم جميعاً لونه وشكله .

وبعد أن انتهينا من الإفطار ، بدأنا نعد التقرير الذى سيقدم إلى القائد آمهرست .

كنت قد سمعت كثيرا أن تقارير روچرز يكتبها دائما غيره ، لأنه أمىّ لا يقرأ ولا يكتب . . ولكنها كانت شائعة لا أصل لها من الصحة ، والحقيقة أنه كان ضعيفاً فى الهجاء إلى حد كبير ، ولست أذكر أننى قابلت فى حياتى من يضاهيه فى هذا النقص سوى اثنين فقط ، هما وليام پوند التاجر ، ووليام شقيق چون ستارك . . ويعتبر الاثنان أجهل من تهجى الكلمات ، لا فى پورتسماوث وحدها ، بل فى العالم كله . . وفيما عدا هذا الجهل ، كان روچرز قديراً فى كتابة أفكاره بأسلوب سلس ولغة بسيطة مفهومة . . وهى موهبة لا تجدها فى كثير من الكتاب الذين اشتهروا بالقدرة الأدبية . . . وفضلا عن ذلك ، كانت أفكاره منطقية ، وإذا وضعنا فى اعتبارنا الظروف التى كتب فيها روچرز تقريره ، وأن أكلة طيبة أو أكلتين لا تعيد القوة الذهنية الكاملة لرجل ظل الجوع يهدمه يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة ، نجد أن تقريره لا يقل دقة ووضوحا

عن أي تقرير يكتبه عدوّاه العظيمان القائد توماس جيدج وسير ويليام چونسون ، وهما على أحسن حالاتهما .

وأملاني ثماني صفحات ، سرد فيها باختصار كل ما قام به من أعمال ، وما كان مفروضا أن يقوم به . وكان يراجع دفتر أحوال الرحلة كل لحظة ، ويصحح هنا جملة ، أو يزيد هناك كلمة ، حتى وصلت عند الظهر إلى الفصل الختامي ، وأنهيته بالعبارات التالية على لسانه إلى القائد آمهرست :

« سأصعد النهر بنفسي حالا ، لأنقذ من بقي من رجالي وأعيدهم معي ، وينتظر أن أتغيب في تلك المهمة نحو ثمانية أيام ، أعود بعدها مع الحملة إلى كراون پوينت . . وإذا أردتم سعادتكم مزيدا من المعلومات عن الرحلة ، فلديكم اليوزباشي أوجدن الذي يحمل هذا المكتوب إليكم ، فقد رافقني في كل لحظة خلال هذه الحملة ، وكان فيها أطيب مثل للجندي القدير .

وإني ، ياسيدي ، أقدم لسعادتكم أعظم الاحترام .

خادم سعادتكم المطيع

ر . روچرز

قلعة رقم ٤

أول نوفمبر ١٧٥٩ »

وما إن انتهيت ، حتى أخذ التقرير منى لينسخه بخطه . . كان لا يكل عن العمل ولا يمل . .

واستمر الرجال يفدون علينا ويزدادون عددا حوله ، ويتقدمون منه محدقين فيه طوال الوقت الذى قضاه فى نسخ التقرير . كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى رجل عظيم ؟ . وأظنه كان يضمر الغبطة بتقديرهم هذا ، إذ لاحظت اهتمامه الخفى بجموع الزوار المتزايدة طول الوقت الذى قضاه فى الكتابة ، فلما انتهى من توقيع التقرير بإمضائه ، طواه بعناية ، ثم وقف ينظر حوله بعيون تلتمع بالرضا . .

قال يخاطب القوم : والآن ، يا أصدقائى ، أظنكم تعرفون أن خطر الهنود قد زال ، فهل منكم من يريد استغلال هذا الظرف الطيب ؟

واستجاب عدد منهم بلهفة واهتمام قائلين باستعدادهم للتوغل صعودا مع النهر حتى سهول الكوهيز العليا ، التى يتحدث الناس بخصبها وجمالها .

صاح فى دهشة : الكوهيز ! : إنها لا شىء إذا قورنت بغيرها ! !

وجال بعينيه المضيئتين فى الواقفين بالقاعة ، وانطلق يصف بحيرة چورج والإقليم الواقع شمال الموهوك . . واستعاد

صوته قوته وحماسته ورنينه ، فجاء حديثه بليغا فى وصفه ، رائعا فى تصويره ، حتى جعلنا نشعر كأننا نرى النسور وهى تحلق فوق الجبال الشاهقة ، والغابات المليئة بأجمل الأخشاب وأمتنها ، والبحيرات الزرقاء الرائعة ، والغدران البلورية التى تزخر بأنواع السمك الممتازة ، والأرض الخصيبة التى تثمر أشجارها خير التفاح بعد عام من زراعتها ، والمراعى المفروشة بأفضل الكلأ لرعى الأبقار ، وتحويل ألبانها إلى قشدة ، وأعواد الذرة التى ترتفع كالأشجار طولا . . . أرض الضحك والسعادة والشمس الذهبية . بلاد الصيف المعتدل والشتاء الدافئ ، بل هى جنة الله فى أرضه . .

وكان يسير فى القاعة جيئة وذهابا ، يلوح بيده فى أثناء الوصف ، ويتحدث فى ثقة كأنما كلامه وحى من الله ... قال إنه شخصيا سيقيم فى أرض العجائب هذه ولاية صغيرة ، وسيطلب من الحكومة لنفسه ولضباط فرقته خمسة وعشرين ألف فدان كدفعة أولى ، فإذا ما انتهت الحرب فسيذهب إليها مع أحسن ضباطه وعائلاتهم وأفضل متطوعيه وأسرهم .. وسيكوّن له فى تلك الولاية جيشا قويا أكثر تنظيما وأخطر شأنا من أى جيش فى البلاد . ولن يكون الرجال الذين يرافقونه ضباطا فى جيشه فحسب ، بل سيعين منهم محافظين ومشرعين ليقيموا قانونهم الخاص . وسيعمل الجميع

معا فى مساعدة بعضهم بعضا . فيزدهر فى تلك البرارى مجتمع مستقل متحد ، يحبوه الرخاء ويسوده الرضا ... سيكون مجتمعا مستقلا بموارده عن كل تدخل أجنبى ، فيعيشون فيه آمنين من شر الاعتداء والطغيان ، ويأتيهم التجار من مونتريال وفيلادلفيا وشمال أمريكا ، ليشاركوهم متعة الحياة فى رغد وطمأنينة ، ويرسلوا البضائع إلى الغرب الأقصى ويأخذوا بدلها الفراء الثمين .. وستكون ولايته فى ملتقى الطرق الأمريكية ، فتنافس فى مركزها الحيوى ولايات البانى وبوسطون ونيويورك ..

ولم أر روچرز من قبل مثلما رأيته فى هذه اللحظة : خطيباً مفوهاً ، ورجل أعمال لا يبارى فى تنظيم المشروعات وإدارتها ، ثم مصوراً فذا يعرف كيف يخرج الآمال والأحلام فى أشكال ملموسة .

وانعكس سحر كلامه على الواقفين ، فظلوا يصغون إليه بعيون جاحظة وأفواه فاغرة ..

قال رجل له لحية كثة : ألا يوجد عندكم مكان لغير المتطوعين ؟

أجاب : بلى ! سنجد لك مكانا معنا ، ليس لك وحدك ، وإنما لكل رجل شريف يريد أن يلقى بنصيبه معى .. سوف أعمل على أن تنال أرضا بشروط طيبة سخية .

ووضع يده فى خصره وابتسم فى حياء ، وقال : كم منكم يريد الذهاب معى ؟

ولم يدهشنى ، بعد السحر الذى تركته كلماته فى النفوس ، أن أرى الرجال والنساء ، وحتى الغلمان الواقفين فى نهاية القاعة ، يتطلعون إليه من خلف أكتاف الكبار ، يقولون بالإجماع إنهم على أتم الاستعداد لمرافقته .

ولا غرابة فى ذلك ، فقد كنت أنا نفسى أريد الذهاب معه .

* * *

صحوت فى اليوم التالى عند الفجر على دبيب خطوات على أرض الغرفة العارية التى بتنا فيها مع روچرز وأوجدن . كان روچرز قد قام يطوى غطاءه ويشده إلى ظهره . ورأيته يتوقف عن عمله ويرفع زجاجة بنية اللون إلى شفتيه ، ويبتلع منها جرعات كبيرة باحتراس ، ثم يعود إلى جمع حاجاته . . وشرب مرة ثانية ونظر نحونا فى شرود ، ثم سار نحو الباب وهو يتمايل قليلا فى مشيته . وما إن وضع يده على مزلاج الباب ، حتى قام أوجدن من رقدته ، وقال : ألا من كلمة وداع ، أيها الصاغ ؟ وهل من أوامر أخرى ؟

وضحك روچرز ضحكة أخشن من المعتاد ، وقال : عودا إلى نومكما ثانية ! ناما يومين آخرين ، فالجو أسوأ

من أن يسمح بالمسير إلى كراون پونيت ؛ أما أنا فسأجلس بالزورق مرتاحا ، وأجرع ما يحلو لى من الشراب . . . استرح أنت وتاون حتى يصفو الجو ، وعند ما تصل إلى كراون پونيت ، أخبر القائد آمهرست بأنى سأغيب ثمانية أيام .

قال ذلك فى بساطة ، كأنه فى طريقه إلى الجانب الآخر من القلعة ، ثم تركنا وخرج ، وسمعناه يدعو بيلوز ليملأ له الزجاجة الفارغة . وبعد لحظة رن دبيب خطواته على أرض الميدان المغطاة بالثلوج ، ثم سمعنا صوته الغليظ يضعف شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً بابتعاد الزورق .

وبهذا الفراق ترك رفقتنا مؤقتا .

وصحت نبوءة روچرز عن الجو ، كما تصح نبوءاته عادة ، وكان المفروض حسب توصيته أن نظل فى مكاننا حتى يصفو الجو فنبدأ رحلتنا إلى كراون پونيت ؛ ولكن أوجدن أصر على المسير فى نفس الصباح . واعتقد أن خيال چينى كويت كان يلعب دورا كبيراً فى هذا الإصرار .

ولم تكن هذه الرحلة القصيرة الآمنة صعبة علينا . لولا الأمطار والثلج والأرض الموحلة . والحقيقة أن هذه المتاعب ما كانت تؤثر فينا ، إلا بما كنا نعانيه من ضعف

شديد بعد طول الجوع والإرهاق ، فما إن حل الظلام حتى كانت رجلاى قد تورمتا بشكل مخيف ، وحدث ذات الشيء لأوجدن . بل وازدادت آلامه عن آلامى بسبب جروحه التى لم يكمل التآمها بعد .

واستغرقت الرحلة التى لا تزيد عن أربعين ميلا خمسة أيام وخمس ليالٍ . . وفى اليوم السابع من نوفمبر ، كانت شمس الخريف الصفراء تسقط على وجوهنا ، حين وقفت للمرة الثانية ، بعد سبعة أسابيع من اليوم الذى وقفت فيه مع هنك مارينار وماكنوت وكونكاپوت ، ننظر إلى شبه الجزيرة الذى تقوم عليه قلعة كراون پوينت .

كان المنظر حزينا كئيبا ، فالثكنات الجديدة مغطاة بالثلوج ، حتى يخيل إليك أنها فطيرة شائلة عليها طبقة من السكر . . والخيام تلمع فى اصفرار باهت تحت أشعة الشمس الآفلة . . والأشجار التى لا عداد لها قد تغطت كلها برداء من الثلج الناعم .

واستبد الضيق بأوجدن ، ونحن نقف فى انتظار الزورق الذى سيقلنا إلى القلعة ، ونفد صبره إذ جعل يذهب ويجيء وهو يعبث بما يحمل من متاع ، أو يتحسس ذقنه الشائكة . . ولما استقر بنا المقام فى الزورق أخيراً أصبح

كالثعلب السجين : تارة يقفز ليحملق فى الشاطئ ، وتارة أخرى ينقل البارود والرصاص من مكانهما إلى الجانب الثانى ، ثم لا يلبث أن يعيد الحمل إلى مكانه الأول . مرة يحك جلد بدنه ، وأخرى يسعل لينظف حلقه . . . وكان شارد اللب لا يجيب على أسئلة ربان الزورق ، ولا يبادلنى الحديث إلا لماما ، وطول الوقت يركز أنظاره على الشاطئ ، كأنه يرى المكان للمرة الأولى . .

وما إن رسا الزورق حتى كان يتعثر كالأعمى فى طريقه على الشاطئ ؛ لا يلقى بالا إلى الضباط الذين وقفوا مشدوهين لمنظرنا كأنه لا يراهم ، ويقينى أنهم لو كانوا وقفوا فى طريقه ، ما تردد عن السير مخترقا جموعهم ، دون اهتمام أو إدراك لما يفعل .. كانت رغبته العارمة فى الوصول إلى القلعة ومقابلة القائد ، أشبه برغبة رجل يهرع إلى مورد الماء ، بعد أن كاد العطش يقتله .

كانت خيمة القائد آمهرست عند أول ميدان التدريب ، الذى تحيطه الثكنات العالية . وكانت خيمة كبيرة مزدوجة ، يصل جزئيها ممر مشترك ، وعلى جانبيها نصبت خيمتان أخريان ، إحداهما لمساعديه والثانية « لياوره » ، ووقف الحراس أمام الخيام فى ملابس رائعة الجمال ، تمنيت معها

أن تنشق الأرض وتبتلعنى لما أرتدى من ثياب مهلهلة أحسن بها علىّ بعض المزارعين الطيبين .

كانوا يرتدون معاطف قرمزية لها أحزمة بيضاء موشاة بالذهب .. صديرياتهم صفراء ، وقلاشينهم تكاد تخطف الأبصار ببياضها الناصع .. شعورهم المخضبة بالمساحيق تغطيها قبعات مدببة تحمل شارات براقة ترمز إلى فصائلهم ، وحول رقابهم بنيقات من جلد أسود لامع .. وأشهد أن عينىّ لم تقعا على أجمل من هذه الملابس ، رغم ما كان فيها من برود منفّر .

وتقدم أوجدن من باب الخيمة الوسطى ، وقال : معى رسالة إلى القائد آمهرست .

وخطا نحو ستار الباب ، فإذا بالحارسين يسدان الطريق فى وجهه بسنكيهما ، ثم زجر أحدهما ، وقال الثانى : اذهب إلى خيمة الياور أولا !

وتلاشى شعورى بالخجل من ملابسى ، عندما رأيت من ركن عينى نظرات الازدراء التى ألقاها علينا حراس الخيمتين الأخريين .

وتراجع أوجدن أمام الحراب المتقاطعة ، ونظر إلى الحارسين من قمة رأسيهما إلى أخمص قدميهما ، وقال وقد اختفت الابتسامة من وجهه : إنى أطلب منكما أن تخطراه

بوجودى . . فأنا اليوزباشى أوجدن من فرقة متطوعى جلالة الملك ، وقد عدت توا من سانت فرانسس ومعى رسالة من الصاغ روچرز إلى القائد آمهرست . . فهيا أبلغاه بوصولى ! أعيدا عليه ما قلته لكما . . .

وأرخى الحارسان حربتيهما ، ورفعا يديهما بتحية عسكرية أنيقة ، وقد احمرّ وجهاهما حتى صارا فى لون معطفيهما ، وانتصب ظهراهما فى استقامة ، ورفعا وجهيهما حتى بدا كأنهما يشيران إلى السماء بأنفيهما . . أما الحراس الآخرون فقد تسمروا فى أماكنهم ، وهم يتطلعون إلى الفضاء ، كما تقضى التقاليد العسكرية .

وصاح الجندى الذى جاء يرشدنا إلى خيمة القائد بأعلى صوته يقول : اليوزباشى أوجدن من فرقة متطوعى جلالة الملك عائد من سانت فرانسس .

وأزيح ستار الخيمة ، وظهر من ورائه وجه ضابط شاب وسيم ، وصاح قائلا : يا للداهية ! أوقفوا هذه الضوضاء !

ووقعت عيناه على أوجدن ، فأردف يقول فى صوت خفيض يفيض بالدهشة : يا إله السموات ! تفضل أيها اليوزباشى !

ورفع الستار أمامه ، ثم عاد يقول : أقصد ، انتظر لحظة واحدة ! هل أنت موبوء بالقمل ؟

ونظر إليه أوجدن باشمئزاز وقال : لم يحدث بعد ! وشكراً على هذه الملاحظة ، ولكننا جئنا لنرى القائد ، وسنراه ولو كنا موبوئين بالقمل !

وحملق الشاب فينا وقال : لا . . لا . . لقد أسأت فهمى ! سأخطر القائد فى هذه اللحظة بحضوركما . . ومن حسن الحظ أنه انتهى من عشائه ! فمنظركما — ولا مؤاخذة — يسلب شهوة الطعام ، ويقتل الرغبة فى الأكل ! أيها اليوزباشى ، لقد قمتم بعمل عظيم ! عمل عظيم جدا !

واستدار نحو الباب الثانى للخيمة ، فإذا به وجها لوجه مع رجل نحيل الجسم ، له حاجبان بنيان غزيرا الشعر ، وخدان تشيع فيهما تجاعيد عميقة كأنها حفرت بآلة حادة . . وكان يرتدى شعرا مستعارا ، ويضع فوق سترته العسكرية معطفا أخضر محلى بالفراء . .

قال له الياور : اليوزباشى أوجدن ، ياسعادة القائد ، وهو . . .

وأسكته القائد ، وتقدم منا وهو يمد يده إلى أوجدن ، الذى وقف جامداً كعمود مثبت فى الأرض ، وقال له : إننا سعداء بعودتكم أيها اليوزباشى !

وتراخى أوجدن فى وقفته ، وصافح اليد الممتدة

نحوه ، وقال : شكرا لكم ، أيها القائد ، شكراً لكم يا سيدى !

وجعل يعبث فى حقيبته بحثاً عن خطاب روچرز .

وتناول آمهرست الرسالة ورفعها إلى أنفه يشمها دون أن يرفع بصره عن أوجدن ، ثم قال له : در أمامى ، أيها اليوزباشى ، لأنى أحب أن أحتفظ بصورة حقيقية لك ، كما أنت الآن !

وأطاع أوجدن الأمر .

وصفر القائد صفيراً طويلا خافتا ، ونظر إلىّ وقال : ومن هذا ؟

أجاب أوجدن : هذا لانجدون تاون من كيتارى ، ياسيدى ، وكان يعمل كاتما لسر الصاغ .

وسألنى القائد : أجندى أنت أم متطوع ؟

قلت : متطوع ياسيدى .

قال : متطوع ! لقد انتهت الحملة ، ويمكن تسريحك الآن ، . . . حسنا !

وجلس إلى مكتب الياور ، وفض أختام الرسالة ، وجعل يقرؤها وهو يتمتم ببعض الألفاظ بين وقت وآخر .. قال وما زال يقرأ : كشفتم المدينة من فوق شجرة ؟ حسناً ! كان الهنود يعربدون ويرقصون . . . وفاجأتم

لمدينة عندما نام سكانها جميعا . . جميل ! خربتموها تماما ! عظيم ! عظيم ! خربتموها وحطمتم القوارب . . ها . . . وأشعلتم النار فى بيوتها . . يا إلهى ! قتلتم مائتى هندى على الأقل ، وأسرتم عشرين من نسائهم وأولادهم ؟ نعم . نعم . . نعم ، واستعدتم خمس إنجليزيات من أسراهم . . .

ورفع وجهه إلى أوجدن ، وقال : حدث ليلة أمس شيء مهم أيها اليوزباشى ، فقد جاء أحـــد هنود ستوكبريدج ، وعرفنا بأن النساء الخمس اللواتى ذكرهن الصاغ قد وصلن إلى مصب نهر أوتر ، ومعهن خمس هنديات . . فأرسلت إليهن الزوارق على الفور ، والمنتظر أن يصلن صباح غد .

وأفلت من حلق أوجدن صوت مختنق كأنه شهقة حادة ، فنظر إليه القائد نظرة حادة . . وتعالى صليل أسلحة الحراس خارج الخيمة ، وأزيح الستار ، ودخل ضابط فى ملابس أنيقة ، كلها قرمزية وذهبية وبيضاء ، ولمحت من ورائه جمعا من الجنود على مقربة منا ، ومن ورائهم عدد آخر يتقدم نحو خيمة القائد فى سرعة . .

قال آمهرست : أهذا أنت يا داركى ؟ لقد كنت يوما من المتطوعين ، ولدينا هنا ما يهمك . هذا اليوزباشى أوجدن عائد من سانت فرانسس ، وهو يرتدى آخر طراز للملابس

المتطوعين ! كلها ثقوب ! لعلك تحب أن تأخذ نسخة منها لتلبس مثلها ونحن ذاهبون إلى مونتريال ! !

وصافح داركى أوجدن ، وتراجع خطوة إلى الوراء كما فعل آمهرست ، ليلقى نظرة فاحصة على هندامنا .. وأقبل خادم يحمل شمعتين ، وعلى ضوئهما صاح داركى قائلا : غير معقول هذا ! غير معقول !

قال آمهرست بلهجة جافة : صدقت !

وعاد إلى خطاب روجرز يقرؤه ويتمتم : آه .. نعم .. وجرح اليوزباشى أوجدن جرحا خطيرا فى بدنه .

والتفت إلى أوجدن قائلا : وكيف حدث ذلك أيها اليوزباشى ؟

أجاب : الحقيقة يا سيدى أننى لم أكن واثقا من خلو أحد تلك البيوت من الأعداء ، فلما ذهبت أتبين الأمر ، وجدت أنه لم يكن خاليا ! !

قال آمهرست : هكذا ... هكذا ... !

وعاد إلى الخطاب يقرؤه ويقول : وأصيب بجرح خطير .. نعم ، نعم .. واستجوب الأسرى والمسجونين .. فرقة قوامها ثلثمائة فرنسى وهندى عند النهر .. وفرقة أخرى من مائتين .. نعم ، نعم .. ثم العودة إلى رقم ٤ .. الملتقى عند مصب الأمونو أوزاك .. عظيم ! .. هذه رحلة طويلة !

ونظر إلى أوجدن وقال : كيف تمكنت من اختراق هذه الغابات كلها ، وأنت مصاب بجرح خطير ؟ هل حملوك؟

أجاب أوجدن : لا .. لا ..

قال آمهرست بضيق : ألم تنزف جروحك ؟ كيف أمكنك ذلك ؟

قال : لست أدرى ياسيدى ، ولكنى كنت مضطرا إلى السير بأى ثمن ، فسرت !

قال آمهرست وهو يتنهد دون انتباه : بلا شك .. بلا شك ! دعنا نر ما حدث بعد ذلك .. وصلتم إلى سهول الكوهيز .. نعم ، وجئتم على عائمة إلى هنا .. أما المئونة المرسلة إلى أعلى النهر ... ما هذا ؟؟

وقام واقفا وقال وهو يقلب الخطاب ليرى آخره : الخطاب مكتوب فى قلعة رقم ٤ ، وفى أول نوفمبر ؟ ماذا يقصد بقوله إنه سيصعد النهر بالمئونة بعد وصوله إلى رقم ٤ ؟؟ لقد أرسلت الملازم ستيفنس بها .. أرسلت مئونة تكفيكم جميعا ! ألم تجدوها ؟

أجاب أوجدن : لا سيدى ! لقد صعد الملازم ستيفنس النهر بالمؤن ، ولكنه عاد بها ، لقد سمع رجاله طلقات بنادقنا ، فلم يهتموا بالأمر ولم ينتظرونا .. ولقد وجدنا

النيران التي خلفوها وراءهم مازالت مشتعلة ، وسمعنا صوت بنادقهم أسفل النهر ، وأطلقنا بنادقنا لنلفت أنظارهم فلم يهتموا بها . .

وأردف بصوت منخفض : على أننا كنا على وشك الهلاك جوعا . .

واحتقن وجه آمهرست حتى صار أحمر داكنا ، ونفر عرق فى جبينه المقطب ، وقال : داركى ! اقبض على الملازم ستيفنس وضعه فى الحجز . . نفذ هذا الأمر فوراً . .

وألقى على أوجدن نظرة باردة من عينيه الزرقاوين ثم قال : لا . . لا تضعه فى الحجز ، وإنما ضعه فى حجرة الحرس بالقلعة ، حيث يكون فى منأى عن الزائرين . .

وضرب داركى كعبيه أحدهما بالآخر ، وقال : سمعا وطاعة أيها القائد . .

قال القائد لياوره : خذ مذكرة ياچون باسم ستيفنس هذا . . إن الحياة مليئة بأمثاله ، ومهما احتطنا واحترسنا ، فلن نحول دون وجود مئات من أمثاله معنا . . إنه وأمثاله يستحقون الموت ، وروچرز وأمثاله يستحقون إقامة تماثيل لهم . . اكتب هذه الأوامر بعد أن تضعها فى الصيغة المناسبة ، ياچون !

وانطلق الياور الوسيم الشاب يكتب فى سرعة ، وشفتاه تتلفظان بالكلمات .

وعاد القائد ينقل نظره بينى وبين أوجدن ، وقال : جرت العادة أن تقدم مكافأة على مثل هذه الأعمال للرجل الذى تثبت كفايته ويتم نجاحه . . سينال اليوزباشى أوجدن حقه فى الوقت المناسب ، ولكنى أقترح أن أهديكما الآن طاقمين كاملين من ملابس المتطوعين . . داركى ! أكون شاكراً إذا تفضلت بتنفيذ هذا الأمر . . ملابس كاملة وما يتبعها يادراكى من قلانس اسكتلندية وقلاشين خضراء ، وحليات الأكتاف . . كل شئ . . هدية من صاحب الجلالة . .

وعاد إلى رسالة روچرز وقال : نعم . . لقد كنت مثلا طيبا . . نعم ، أيها اليوزباشى أوجدن . . ولقد وصلت إلى رقم ٤ فى آخر أكتوبر ، ولم يكن فى مقدورك أن تنال كفايتك من الطعام على ما أظن ؟

قال : لا ، ياسيدى ، كنا نستطيع السير فقط ، حتى البلطة لم نكن نقدر على استعمالها !

قال : ورغم ذلك سرت ثمانين ميلا بهذه الملابس ، وسط تلك العاصفة ؟

قال : أجل يا سيدى . .

قال : وهل توجعك قدماك ؟

قال : نعم يا سيدى . .

قال آمهرست : حسن جداً ! ولسوف أكتب للصاغ روجرز . . فاحضر لمقابلتى عصر غد ، بعد أن ترتدى ملابسك الجديدة ، وتسترد قدرتك على التفكير الصحيح . .

وأشار إلىّ وأردف : خذ هذا السيد يادارکی ، واصرف له مرتبا كاملا منذ اليوم الثالث عشر من سبتمبر ، فقد حارب معنا متطوعا منذ ذلك التاريخ . . والآن ! رافق السيدين إلى خيمتك ، ومر لها بما يريدان ، فلعلهما فى أشد الحاجة إلى كأس من الشراب ! . .

وحنى داركى رأسه وقال : تفضلا ، أيها السيدان . .

وتنحى جانبا يفسح لنا الطريق . . وعندما خرجنا من الخيمة ، كان فى انتظارنا مئـــات من الجنود النظاميين والمتطوعين ، يرتدون ثياب العمل أو ملابسهم العسكرية ، ويقفون على بعد منا ينظرون إلينا فى احترام عظيم .. ولم تكن نظراتهم هى تحيتهم الوحيدة لنا ، إذ بدأوا يهتفون لنا ، ويهتفون بلا انقطاع . . .

الفصل الخامس والأربعون

كنت أومن بأن طلبة كلية هارڤارد خبراء بشرب الخمر ، وكنت أعجب من قدرة صديقي كاپ هوف على احتساء كميات غير معقولة منها ؛ ولكني ما إن رأيت كيف يشرب اليوزباشيان چيمس تيوت وجوناثان كارڤر ، اللذان كلفهما داركي بالعناية بنا ، حتى أيقنت أن طلبة هارڤارد وكذلك صديقي كاپ هوف ، لا يزيدون جميعا عن أطفال مبتدئين فى بدعة شرب الخمر .

لم يتسلمنا اليوزباشيان تيوت وكارڤر إلا بعد أن مررنا بمحنة الاستحمام فى ماء البحيرة المثلج ، وقص لنا مساعد الحلاق شعورنا المشعثة ، ثم ارتدينا سترات جلدية جديدة خضراء ، تحلى أكتافها الأشرطة والعلامات الفضية ، وانحرفت القلانس الاسكتلندية فوق رأسينا بالزاوية الملائمة .. ولما تم كل ذلك ، أخذنا الضابطان للترفيه عنا .

وأعد اليوزباشي كارڤر الشراب بمنتهى الوقار : خلط الجعة بالروم ، وعطرهما بالسينامون ، ثم أضاف إليهما الزبد الساخن ، ليزيل سم السينامون على حد قوله .. وبدأ الضابطان

يشربان شاردى اللب . . . كانا يشربان كما ينفض الرجل منا رماد سيجارته دون انتباه .. وشربنا قبل العشاء قليلا ، وشربنا مع الأكل أكثر قليلا ، وشربنا بعده كثيرا جداً .. ورغم أننى كنت أشرب كأسا مقابل ثلاث لكل منهما ، فقد ثملت دونهما ،وأصبحت لا أعى ما يقال أو يحدث حولى ..

ولم أهتم فى الواقع بأمرهما ، إذ لم أكن أتوقع أن أقابلهما مرة ثانية ، وهو شعور إن دل على شىء ، فعلى أننى رجل غير موهوب فى قراءة الغيب .

كان تيوت شابا طويل القامة ، أشقر الشعر مختالا ، له رأس كالكمثرى وخدان بارزان ، وعليه سيماء الشباب المتهور الذى جرب فى شبابه ما لا يستطيع أن يجربه رجل فى حياته كلها .. كان قد وقع أسيرا فى أيدى الفرنسيين قبيل رحيلنا إلى سانت فرانسس ، وأطلق سراحه أخيرا عندما تبادل الفريقان أسراهما ، فانصب حديثه كله على وسائل الهرب التى كان يعدها قبل الإفراج عنه . وبالرغم من أن روچرز كان يضعه فى مصاف خيرة متطوعيه ، فقد كان تافه التفكير مدعيا كذاباً .

أما كارڤر فقد ذكرنى حديثه الناعم بحائك ثياب أعرفه فى كمبريدج ، وكان يعرف كيف يقنع الطلاب بأناقة ما يصنعه

لهم من ثياب تشبه الزكائب .. وكان فى صوته الناعم ونظراته المنكسرة فى أثناء الحديث ، ما يذكرك بقط مدلل يمد لك ذقنه لتدغدغها مداعبا ..

وعرفت منهما أن اليوزباشى ويليامز عاد إلى نيويورك بحروق بشعة فى وجهه وأن الجاويش ماكنوت فقد إحدى رجليه وتم شفاؤه ، ولكنى لم أسمع منهما شيئا عن هنك مارينار .

ولمحت شيئا من الارتباك والخجل يبدو على أوجدن وهو يتصنع عدم الاهتمام فى استفساراته عن قوارب النجدة التى أرسلت إلى خليج أوتر ، لتحضر من أسرناهم فى سانت فرانسس .

قال اليوزباشى تيوت يسأله فى براءة : أتقصد النساء الأسيرات ؟

فلما علت الحمرة وجه أوجدن ، انفجر تيوت وكارفر فى عاصفة من الضحك ، وكل منهما يضرب صاحبه على كتفه مرحا .. وجعلا يستفسران منا عن أشكال هنديات سانت فرانسس ، وكيف وزعناهن على الرجال ، فلما قلت لهما إننا طردنا الأسيرات وأرسلناهن وحدهن ، علا ضجيجهما أكثر من الأول فى شك من صدق قولى . وبدأ الاثنان نقاشاً ثملا حول مزايا نساء الهنود المختلفة ، وكان فى التنافس ما يقطع

بأنهما خبيران فى تلك المسائل ، وأن لنساء كل موطن مزايا على غيرهن فى المواطن الأخرى ..

وسألانا عما أحضرنا من أسلاب ، وهل جئنا بشىء مهم ثمين ، فلما أجبناهما بالنفى ، تعجبا لأمرنا ، واستفسرا لم لمْ نحضر فراءً من السنجاب الأسود الممتاز ، أو قلادة هندية ثمينة .

وأمام زجاجة جديدة من الخمر ، دخلا فى مناقشة حامية طويلة حول غيرة الهنود على زوجاتهم ومداها ، وقبل أن يصلا إلى رأى قاطع ، كان غطيط أوجدن ، وهو يجلس فى مقعده ، قد علا فوق حديثهما .. ورأيت من الأدب ألا نثقل عليهما أكثر من ذلك ، فهززت أوجدن حتى استيقظ ، وسار يتعثر ورائى ، ثم ارتمينا فوق كومة من الأغطية فى جانب من الخيمة ، ونمنا كالأموات .

وعند الفجر فتحت عينى فى نعاس غالب ، فرأيت تيوت وكارڤر يمزجان مزيداً من الخمر على ضوء الشمعتين الموقدتين ؛ وكان تيوت يقص على زميله كيف تدلهت حسناء هندية فى حبه ، حتى كانت تتبعه كالكلب الأمين أينما حل أو ذهب .. فيعقب الآخر بقصة هنديتين جميلتين تدلهتا فى غرامه هو الآخر ، وظلتا تتبعانه مثل كلبتين أمينتين أينما حل أو ذهب .

وأغمضت عينى وغطيت أذنىّ ، ورحت فى سبات عميق ، حتى علت الشمس فى كبد السماء .

* * *

كان الوقت أصيلا حينما صعدت مع أوجدن إلى الشاطىء المرتفع ، فتطلع إلى القوارب القادمة إلى كراون بوينت .

كان المسكين يرتجف انفعالا بعد ما قضى فى الانتظار يوما طويلا وهو شارد الذهن حائراً ، لا يبادلنى الحديث إلا لماما ، ولا ترتسم على وجهه سوى بسمات مغتصبة . .

وتهادت القوارب نحو الشاطىء المنحنى الذى قامت عليه خيام المتطوعين . . فلما اقتربت تبينت عقدة الشعر التى تعلو رأس سارة هادن ، ووجه السيدة الألمانية السمين المكتنز ، ثم شعر مزويك المشعث ، وجدائل چينى كويت المنسدلة على ظهرها المستوى ، وأخيراً رأيت رءوس الفتيات الهنديات الثلاث تلتمع فى ضوء الشمس . . . لقد وصلت الحمولة كلها سالمة . .

وازدحم الشاطىء بالجند والمتطوعين الذين أقبلوا لمشاهدة الأسيرات . ورغم لهفة أوجدن ، وجدته يجفل متراجعا إلى الوراء عندما احتكت القوارب بحصباء الشاطىء ، ورفع الرجال مجاذيفهم عن الماء .. وبدأ الركاب ينزلون إلى الأرض ، وقامت چينى من مقعدها ، وطوحت صرتها فوق كتفها ،

وأمسكت إبريقها بيدها ، ثم قفزت إلى الشاطئ ، ويممت نحو الطريق تشق لنفسها ممرا بين الجموع الضاحكة الصاخبة .

قال أوجدن بصوت مرتجف : حسناً !

وهبط الشاطئ يقابلها فى خطوات متصلبة غير متزنة ، ولكنها لم تعرفه بذقنه الحليق وسترته الجديدة ، ورمت من عينيها البنيتين نحوه نظرة جريئة ، ولو لم يمسك بذراعها لاستمرت فى سيرها غير عابئة به .

قال : چينى ! چينى !!

وألقت بصرتها على الأرض وصاحت بدهشة : ياللعجب ! كيف جئت إلى هنا ؟ وكيف حال جرحك ؟

قال : إنى بخير . . بخير ياچينى . . فكيف حالك أنت ؟ لست أدرى والله كم داعبنى الأمل ، ولكنى كنت أيأس من نجاتنا أحياناً ، فينحصر تفكيرى فيكم . . . وكنت خائفاً . . خائفاً . .

فقالت باستهانة : لقد كنا على أحسن حال ، وتيسرت لنا الأمور . . . كنا نحتمى من الأمطار بالمخابئ . . ولقد صدنا خمسة غزلان ودباً وستة سنانير وحشية .

وكان أوجدن يمسك بذراعها كمن يخشى أن تفلت منه ، ولكنه ترك ذراعها ليحمل عنها الصرة والإبريق .

قالت : هيا نصعد الشاطئ . .

وألقت نظرة غاضبة على مجموعة من المتطوعين وحفنة من النظاميين التفوا حولها يحملقون فيها ويسخرون منها .

سألها أوجدن : ماذا تحوى صرتك هذه ؟ إنها ثقيلة ، وما كان يجب أن تحملى شيئاً ثقيلا كهذا ياچينى . . هاتها أحملها عنك . .

قالت : لا . . سأحملها أنا . . إنها بعض حاجاتى ، أتيت بها من سانت فرانسس . . عقود وفراء .

وصعدت الشاطئ تتعثر مقبلة نحوى ، ثم التفتت وراءها إلى فتى هندى من ستوكبريدج ، كان يسير على مقربة منها .

قال أوجدن وهو يتبعها : لم يكن معك شىء من هذه الأشياء عندما تركنا سانت فرانسس . . وعلى كل حال ، سيحملها لنا أحد الجنود ونحن فى طريقنا إلى الوطن .

صاحت : الوطن !

وعادت تنظر خلفها إلى الفتى الهندى ، ثم التفتت إلى أوجدن وضحكت فى وقاحة وجرأة .

قال : لقد حصلت على إذن بترك الجيش ياچينى ، وباستطاعتنا لو أردتِ أن نسير اليوم إلى وطنى بولاية چيرسى .

قالت . چيرسى ؟! چيرسى ! لن أستطيع الذهاب إليها ، فقد قررت أن أرافق أمى .

قال : لقد خطر لى أنك قد تريدينها معنا ، ولست أرى مانعا يمنعها من مرافقتنا ، ففى بيتى متسع لها . .

قالت : لا . . لا . . لا أستطيع الذهاب معك .

صاح : لاتستطيعين الذهاب معى ؟ ! ولمَ ؟ أصغى إلىّ ياچينى . .

ودحرجت الفتاة مقلتيها الى أعلى فى دلال ، كما فعلت أمام روچرز فى حلبة الرقص بسانت فرانسس ، ولكنها فى هذه المرة كانت توجه إغراءها إلى الفتى الهندى وتبسم له .

وتتبع أوجدن نظراتها ، ثم التفت إلىّ فى يأس ، وعاد ينظر إلى چينى فى ارتباك وغباء ، وقال : لا ، يا چينى ! لا . . . انتظرى ! انتظرى ياچينى . . لا يمكن أن تفعلى ذلك ! أنت . . أنت . .

واستدارت إليه تقول : لا يمكننى أن أفعل ماذا ؟ إنى أعمل ما أحب كما أريد ، وليس لأحد على حق ! لم أطلب من واحد منكم أن يأتى بى من سانت فرانسس ! إنى ذاهبة إلى ستوكبريدج لأعيش فيها . .

وهمس أوجدن : ستوكبريدج ! . . ستوكبريدج !

ونظرت إليه متحدية ، فلما لم ينطق بكلمة ، نادت الفتى الهندى فأقبل مسرعاً . . وحملت صرتها تحت إبطها

اليسرى وأمسكت ابريقها بيمناها ، وأسرعت تجرى وراء الفتى ، وقد ناء جسدها تحت حملها الثقيل . .

وتحسس أوجدن حزامه وبلطته وقلنسوته ، كأنما يشك فى وجود هذه الأشياء ، ثم أطلق ضحكة عالية ، وقال : ما رأيك فى هذا ؟! إنها بيضاء فى ظاهرها ، هندية فى قلبها ! لعنها الله من فتاة قذرة !

والتفت إلىّ فى توجس ، كأنما يحس بالعار لمجرد ذكره لاسمها ، وقال بصوت خافت : لقد كانت . . . لقد كانت تعطف علىّ كل العطف . . وأعتقد أنه لولا عنايتها بى ، ما بقيت حيا إلى اليوم .

وانتابنى فى تلك اللحظة شعور ظل يراودنى مرة ، بعد مرة ، وهو شعور خانق يحس به كل من اشترك فى الحرب أو انتظم فى سلك جنودها ، أى الحنين للأهل والوطن . .

لقد سئمت نفسى وحشية الحرب ، ولم أعد أفكر إلا فى الوطن والأهل والأصدقاء . . إنهم الوحيدون فى هذه الدنيا الذين أضع ثقتى فيهم ، وأيقنت بأنه لأهون علىّ أن يقتلونى ويمثلوا بى أبشع تمثيل ، من أن أشترك فى أى حرب أخرى . .

الفصل السادس والأربعون

وعندما أخذت بيلى من قلعة رقم ٤ ، تبعا لأوامر روچرز ، لم يبد على الصبى شىء من الاستياء لتركه أصدقاءه الجدد بالقلعة ، بل تبعنى فى استسلام ، شأنه فى ذلك شأن غلمان الهنود الذين إذا وقعوا فى الأسر بحثوا عن سيد يتعلقون به ويتبعونه دون تذمر ..

وتقدمت مع بيلى إلى الشرق بسرعة وسهولة ، وكنا نسير وسط غابات أشجارها جرداء .. ووقفت عند تقاطع وانبارتون لأستفسر من حانة فلنتلوك عما إذا كان الجاويش ماكنوت قد عاد إلى بيته أم لا .. وتبين لى أنه لم يعد بعد ، كما لم يستطع فلنت ، صاحب الحانة ، ولا خادمها ، أن يرشدانى إلى أخباره .. وكل ما قالاه أنهما سمعا بأنه أرسل إلى المستشفى فى ألبانى .

وكان فلنت يعتبر ولاية ألبانى وسكانها الهولنديين ، أشد خطرا من الفرنسيين والهنود ؛ فلما قلت له بما سمعت من أن ماكنوت فقد إحدى ساقيه ، أومأ برأسه فى حزن وقال : لست أشك فى ذلك ؛ فهؤلاء الهولنديون يأخذون كل ما يمكنهم أخذه ممن يقع فى براثنهم من أهالى نيو انجلند ،

فإذا كان ماكنوت قد فقد ساقا واحدة هناك ، فمعناه أنها كل ما استطاع الهولنديون أن يسلبوه منه .

ثم قال فى تيه وإعجاب : هناك شخص واحد من نيو انجلند يجب على الهولنديين أن يبتعدوا عنه . إنه الصاغ روچرز وأيم الحق .. ففى مقدوره أن يسلخ جفون عيونهم ، وإذا حاولوا أن يغشّوه فى التجارة ، فلن يتورع عن حشو جيوبهم بسندات لا قيمة لها ..

وأنعمت النظر فيه ، فلم أر فى وجهه سوى آيات الإعجاب والفخار .

قلت : وكيف يحصل الصاغ على هذه السندات ؟

قال ضاحكا : يطبعها بنفسه !

قلت : اسمع ! إن الصاغ صديقى ، ولقد أنقذ حياتى من موت محقق .. وطبع السندات الذى تتكلم عنه يعتبر تزويرا ، ولكن ، لعلك لا تدرك ما فى قولك من إهانة للصاغ ..

قال بلهجة الاعتذار : لم أقصد بكلامى سوءا .. ولكنها الحقيقة . فكثيرون فى هذه المنطقة يقومون بطبع سندات مالية ، ومنذ أربع سنوات أو خمس وقف الصاغ أمام محكمة بورتسماوث العليا متهما بهذه التهمة .

صحت : الصاغ روجرز ؟ هل حوكم الصاغ على ذلك ؟

قال يطمئنني : إن القضية لم تأخذ مجراها ، فقبل رفعها أسرع الصاغ إلى پينج ونيتورث العجوز وأخذ ترخيصا منه بطبع السندات ، وفى ذات الوقت بدأ ينظم حربه على الهنود .. ولم يعد هناك من يهتم بفعلته السابقة ، فنسى الناس أمرها .. والله إن الصاغ لأمهر من أن يقع فى مأزق كهذا .

قلت غاضبا : إنك مخطئ ولا شك ، ولعل الأمر اختلط بينه وبين شخص آخر ..

وألقى علىّ فلنت نظرة تعجب ، وأنا أغادر الحانة غاضبا مستاءً لأستأنف رحلتى مع بيلى .

وهدأ غضبي بالتدريج ونحن نخترق المحلات والمزارع فى طريقنا إلى إيپنج ونيو ماركت .

وبالرغم مما كنت أشعر به من حنق على فلنت وأمثاله ، ممن يروجون هذه الشائعات المضحكة على البطل العظيم ، أخذت بوادر الشك تتسرب إلى قلبي فتقلقنى .. قلت فى نفسى : على كل حال ، أنا لم أعرف من ذلك البطل سوى جانبه العظيم ، والأبطال رجال ، ولم يخلق الرجال الكاملون بعد.

* * *

يممت مع بيلى شطر خليج جريت باى ، حيث سبق أن تركت أنا وهنك مارينار قاربنا مع مزارع فى دورهام على نهر أويستر ، وكل أملى أن يكون هنك قد عاد واسترد القارب

وهو فى طريقه إلى بورتسماوث .. فإذا لم يكن ذلك ، وإذا لم يكن المزارع قد سمع خبرا منه ، فمعناه أن هنلك قد أصبح فى حال لا تسمح له باستعمال القارب ، وفى هذه الحالة لاتعود هناك حاجة لتركه ؛ ويمكننا أن نأخذه أنا وبيلى لأنفسنا .

كانت صدمتى عنيفة عندما وجدت المزارع ما يزال يحتفظ بالقارب ، فقد كنت أحب هنلك حبا عظيما .. ولما سألت الرجل عما إذا كانت لديه أخبار من صديقى ، هز رأسه نفيا ، وقال : ولا كلمة .. الحقيقة أننى فقدت الأمل فى رؤية أحد منكما مرة ثانية .

وأردف يسألنى ، وقد بدا الاهتمام عليه عندما رأى بيلى : من أين جئت به ؟

قلت : من سانت فرانسس .

قال : أعرف ذلك ، ولكن أين عثرت عليه ؟

قلت : كنت هناك ... ولقد أعارنيه الصاغ روچرز .

قال : يا إلهى ! يا إلهى ! أكنت مع الصاغ روچرز فى سانت فرانسس ؟ لقد سمعنا كثيرا عن هذه الحملة .

وكان يجد مشقة فى البحث عن كلمات لأسئلته ، فأدار دفة الحديث إلى أحوال الجو أثناء رحلتنا .

فقلت له : كان فظيعا جدا .

قال فيما يشبه السرور : لقد نزل عندنا مطر غزير أيضا ،

وبعد برهة من التفكير قال : وماذا حدث لزميلك الذي سألتني عنه ؟ ذلك الرجل الذى جاء معك فى القارب ؟

قلت : لقد أصيب بحروق شديدة من جراء انفجار البارود .

وهز الرجل رأسه وقد تأثر لحديثى ، ثم سألنى فى حياء إن كان بيلى يحب أن يأكل قطعة من فطير التفاح .

وأكلنا الفطيرة بعد أن نقلنا القارب من الجرن إلى النهر ، وكان الرجل وزوجته يقفان قريبا منا ويتظاهران بالانشغال عنا .. وعندما عرضت عليه أجراً نظير حفظه للقارب ، لم يرفض عرضى رفضا قاطعا فحسب ، بل احتج أيضا على شكرى له ..

قالت لى الزوجة بعد أن ركبنا القارب : لو جئت مرة ثانية إلى هذه الجهة ، فاعتبر بيتنا بيتك ، ولا تتردد فى قبول ضيافتنا ، وعندما ترى صاحبك الذى أحرقه البارود أبلغه أسفنا الشديد لما أصابه .

ووقف الزوجان صامتين عندما تحرك القارب بنا ، وكان فيهما شيء يبعث الراحة فى النفس . وأسعدنى أن أعود لهؤلاء القوم ثانية ، فأهالى نيو انجلند قوم كرماء طيبو القلوب ، بالرغم مما عرف عنهم من ميل إلى الصمت والتحفظ ..

* * *

انزلق القارب على صفحة الماء مسرعا ، وقد جلس بيلى فى مؤخرته ممسكا بالدفة ، حتى دار موغلا فى مياه بيسكاتاكوا ، وبان لنا بيت جدّى أمام مرساة پاپستوف فى أعلى النهر .. وكان أمرا من الغرابة بمكان أن أعود بالصبى بيلى من سانت فرانسس ، كما صنع أجداده يوم اختطفوا عمتى من بيتها ، وحملوها عبر فيافى ممفراماجوج وأخاديدها ..

يعتبر البيض وقوعهم فى أسر الهنود أمرا بشعا ، ومع ذلك لم أر شيئا من تلك البشاعة وأنا أعود ببيلى أسيرا إلى موطنى ، بل لعلى كنت أعتبر بيلى سعيد الحظ بهذا الأسر ، وكانت السعادة بالفعل تبدو فى نظراته .. وأدركت أن أولئك الهنود الذين أسروا أهلى لم يروا فظاعة فيما يفعلون ، بل ربما ظنوا ، كما ظننت الآن ببيلى ، أن أسراهم أسعد حظا مما كانوا عليه قبل الأسر .. ترى هل وَجَدَ أجدادى الذين أسرهم الهنود فى تلك المغامرة بعض السرور والغبطة ؟ وهل كان تصرف أولئك المتوحشين القادمين من سانت فرانسس أقل بشاعة من تصرف البيض من أمثالنا ؟

وانتويت أن أسكت على ما يجول بذهنى ؛ إذ كنت أعلم أن مثل هذه الخواطر والآراء تتنافى مع عقائد البيض ، ولا يجوز لى الجهر بها ، إذا أردت أن أتجنب مزيدا من المتاعب فى بورتسماوث .

واهتزت مشاعرى لمرأى المراعى الممتدة على جانبي النهر العريض ، رغم ما فعله الخريف بنضرتها وجمالها ؛ فالنهر يختلف عن غيره من الأنهار بما يخلفه من أثر على كل من عاش على شاطئه : كان عميقا سريع الجريان ، لا تتجمد مياه موانيه فى بورتسماوث ، وعلى ضفتيه خلجان واسعة تحيطها مراع خصيبة الأرض ... وكانت مياهه الرمادية المحْمَرّة تندفع إلى البحر ثم تعود وترتد فى دوامات يعلوها الزبد والموج، كأنها تغلى وتفور بلا انقطاع . وكان فيها شبه بمياه المحيط ، لا فى حركتها الدائمة وبرودتها القاسية ، ولكن فى جوها المنعش الباعث للنشاط . وكان للنساء على شاطئيه شعر أسود كشعر الزابيث ، أما ذوات الشعر الأشقر فكن أندر من الكبريت الأحمر .

كان أول ما صنعت ، عندما عدت من مزرعة جدى منذ شهرين ، أن ذهبت لأرى الزابيث مباشرة ، ولو كانت لدى الجرأة الكافية ، لفعلت ذلك مرة أخرى ، ولكنى تغيرت ، فقد تعودت فى هذين الشهرين أن أطيع الأوامر ، لا أعمل ما أريد ، وإنما أعمل ما يراد منى . . كانا شهرين من الطاعة فى فرقة المتطوعين .

لقد قيل إن النظام يقوّم الشخصية ، ولكنى لا أظن

ذلك ، فقد رأيت جنودا فشلوا كل الفشل ، عندما رفع عنهم نير النظام .

وعلى أى حال ، كنت أحس برغبة ملحة فى رؤية أمى وأبى ، كما كنت أتوق لمقابلة أم هنك مارينار ، لأعرف ما لديها من أخباره .

* * *

ما إن مرّ القارب مخترقا مصب نهر جريت كرف ، حتى لاح أمامى الشاطئ تغطيه البيوت الرمادية ، ومن وسطها برز برج الكنيسة عاليا يتوج جزيرة هيرون ، وعلى صفحة الماء انتثرت الجزر الصغيرة تحمى ميناء بورتسماوث من طغيان المحيط .

ولطالما اشتهيت طوال الشهرين الماضيين أن أمتع عينى بهذا المنظر ، ولكنه بدا لى الآن أصغر مما كنت أتخيل ، وأقل شأنا .

وأدرت القارب شرقا صوب خليج مندام حيث يقيم هنك . ولم يكن بيته شيئا عظيما فى يوم من الأيام ، ولكنه ظهر لى الآن كأنه يسبح فى بحر من الوحدة والسكون ... وأرسى بيلى القارب وقبع فيه يحرسه ، ولم أر أحدا من سكان البيت ، فتقدمت إلى الباب وطرقته .. وفتحت لى أخت هنك ،

وكانت تدعى ليدى على اسم ليدى پيبريل زوجة سير ويليام پيبريل .. ولم تحدثنى الفتاة بكلمة ، ولكنها أفسحت لى الطريق لأدخل .

سألتها : هل مسز ماريندار بالبيت ؟

قالت : لا ، ولكن هنك موجود هناك .

وأومأت برأسها نحو غرفة صغيرة تجاور المطبخ .

ودخلت غرفة لا تزيد على مخزن صغير ، وكان هنك يرقد على سرير خشبى إلى جوار الحائط ، يحملق فى السقف ، وملاءات السرير معلقة فوقه كشباك الصيد .

قال بصوت رفيع باهت ، دون أن يحول عينيه عن سقف الغرفه : أهلا ! متى عدت ؟

قلت : عـــدت لتوى ، ولقد جئت بالقارب ، إذ قد نحتاج إليه .

وأغمض عينيه وقال : لا .. لا أريده ... خذه .

سألته : أيؤلمك الحديث ؟

قال دون أن يحرك شفتيه : لا يؤلمنى الحديث إلا إذا تحركت .. لقد نقلونى إلى هنا فى العربات على مراحل ... كانت رحلة طويلة ... طويلة جدا !

كان شروده يعصر قلبى بقبضة من الجليد ، فقلت وأنا

أحاول أن أبعث السرور فى نفسه : هنك ! هيا أسرع بالشفاء لنعود إلى الصيد ثانية ، إنى أرى الطيور هذا الموسم أكثر مما فى كندا كلها .

قال بصوت مجهد : نعم .. أتمنى ذلك .. وسوف أشفى .. كنت أومن بأنك ستعود ، وظللت أعلل النفس بذلك ، كما كان كاپ هوف يتوقع مجيئك بين يوم وآخر .

سألته : وكيف حاله ؟ أما زال يقنع بأتفه الأعمال كعادته ؟

قال : بلى ..

وأحسست فى لهجة حديثنا عن كاپ ، كأننا غبنا عن كيتارى دهرا ، لا شهرين فقط ..

قلت : أيقوم على علاجك طبيب ماهر ، ياهنك ؟

قال : ليس هناك أطباء ماهرون ، كلهم جهلاء ! يقول الواحد منهم إن خير دواء للحروق أن تطليها بالزيت ، ويجىء الآخر فيدعى أن الزيت أسوأ دواء ، ويؤكد أن العلاج الوحيد هو نسيج العناكب . وألعن هؤلاء كلهم أطباء الجيش .. ليتنى ما عرضت نفسى على أحد منهم ..

قلت : أهى الحروق التى تسبب آلامك ؟

أجاب : نعم ، إنها تأبى أن تندمل مهما صنعت بها .

ولم يسعفني عقلي بما أقول ، فبقيت صامتا .

قال يستأنف كلامه : إنها تؤلمني الآن ، أقصد أن آلامها خفت كثيرا عن اليوم الأول ، ولا أشعر بها إلا إذا سعلت . . . ماذا جـــرى لليوزباشي ويليامز والجاويش ماكنوت ؟

قلت ، وأنا لا أرى ما يدعو لمضاعفة آلامه بذكر الحقيقة : إنهما بخير . . على أحسن حال .

قال : جميل ! لقد خيل إلى أن لا مفر من بتر ساق الجاويش . . كما أني أكره أن يكون مصيري كويليامز ، فقد ذهب وجهه ولم يبق منه سوى القليل . . خبرني بأحوالك منذ افترقنا .

قلت بإخلاص : أحوالي كانت طيبة . . . طيبة جدا !

قال : ماذا تقول ! لقد سمعنا أنكم فقدتم قواربكم ، وبعد ذلك انقطعت أخباركم عنا . .

قلت : أي نعم . . لقد ضاعت القوارب . . تصور ! ولم تكن رحلتنا سهلة بأي حال من الأحوال .

فتمتم هنك : هذا ماسمعه كاپ . . وبودي لو أمكنك أن تروي لي أخبار الحملة كلها . .

قلت : لقد جئت بصبي هندي من سانت فرانسس ، وقد

أطلق عليه روجرز اسم بيلى ، أما اسمه الحقيقى فأصعب من أن ينطق .

وابتسم هنك فى وهن ، وقال : أحب أن أراه . . . بالتأكيد .

قلت : إنه يجلس فى القارب . . وسأحضره لك الآن ،

قال : لا . . أحضره مرة أخرى . . والآن ارو لى أنباء رحلتك ، فهذا أحب الأحاديث إلى نفسى . . هذا — طبعا — إن كان وقتك يسمح لك بذلك .

وأحضرت مقعداً من المطبخ ، وجلست أقص عليه كل شىء .

كان يرقد تحت الملاءات المنشورة مغمض العينين ، لا يكاد المرء يشعر بخجلات تنفسه .

وأخيراً أقبل أهل البيت من صيدهم ، بعد أن باعوا حصيلة يومهم ، ووقفوا بالباب ينصتون إلى القصة فى سكون . . وذهب الأمر بواحد منهم أن هبط إلى المرساة يغرى بيلى بالصعود إلى الشاطئ ؛ ولكن الصبى دفع القارب بعيداً ، وهو ينظر إليه فى شك وريبة .

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما انتهيت من القصة ، فقلت : وأظن أنى نسيت كثيراً من الحوادث ، ولكنى سأتذكرها وأرويها لك فى زيارة أخرى .

قال : نعم . . سأعرفها منك فيما بعد . . لقد مررتم بأوقات عصيبة ، وأنا سعيد بعودتك ؛ فقد غلبني الخوف ، وكدت أيأس من نجاتك . . . إني سعيد بعودتك .

وانصرفت من البيت فى سكون بعد أن أخبرنى أهل هنك بأنهم أرسلوا خبر وصــولى إلى أمى ، وأنها تنتظرنى للعشاء .

وناديت بيلى ، فأقبل بالقارب من غياهب الظلمة . . ورحنا نجذف حول منحنى النهر فى طريقنا إلى مرساة بيت أبى . . ولما اقتربنا ، شاهدت نارا موقدة لإرشادنا ، فحولت القارب نحوها ، ورأيت أبى وإخوتى فى انتظارى على الشاطئ .

وصاح أخى أوديورن يقول : إنه هندى أليف ! لقد أحضر لى هنديا مستأنسا !

وأمسك أبى بمقدم القارب يمنعه من الاصطدام بالمرساة وهو يقول : مرحبا بك فى بيتك يا ولدى . . لقد ذبحنا لك ديكا روميا ، عندما علمنا بوصولك ، مع أننا كنا نحتفظ به لعيد الشكر يوم الخميس القادم . .

الفصل السابع والأربعون

ومات هنك مارينار فى فجر اليوم التالى ... وارتاحت نفسى لخلاصه من آلامه ، فليس من العدل لمن أغرم بالغابات ، وعاش فيها طول حياته ، أن يُسجن بين جدران أربعة ، لا تؤنسه سوى الآلام ، ولا تربطه بالحياة غير أنفاس واهنة تتردد فى جسد محطم .

وذهبت أشيع جنازته مع أسرتى ، واستحال على أن أبعد بيلى عنى فى تلك المناسبة ، فصحبته معى .. ورآه أحد المشيعين فهمس لزميله يقول : متوحش قذر سفاك ! آه لو كان الأمر بيدى لذبحتهم جميعاً ! !

وأدهشنى قوله ، فلم يكن قد أصاب هذا الرجل ، الذى يفخر بأنه مسيحى طيب ، أى ضرّ من الهنود .. وعجبت لنقيض ذلك الشعور الذى يتبدى فى حب بيلى لى وعطفه علىّ ، رغم أننى ساهمت فى إبادة قومه وإفناء أفراد عائلته .

وكان الصبى يحيرنى فى أمور أخرى : فقد علمه أخى أوديورن كثيراً من الأشياء فى وقت قصير ، ومع ذلك تعبت كثيراً فى نهيه عن استعمال الألفاظ البذيئة التى تعلمها من

المتطوعين ، وكان يجد منتهى الصعوبة فى التمييز بين ما يقال فى حضرة الرجال ، وما يقال فى حضرة النساء .

كان يتبعنى أينما سرت فى شوارع بورتسماوث وطرقاتها .. وأعترف هنا ، أنى كنت أتعمد الإكثار من هذا السير متبختراً فى ملابس الجيش البراقة ، يطربنى أن يحملق الناس فى ، ويسرنى أن يستوقفنى المهنئون ببطولتى ، ينادوننى بالضابط تاون .

وتقابلت يوما وجها لوجه مع عدوىّ اللدودين : النائب العام كلاجيت والعمدة پاكر ، فضحكت منهما ساخرا .. واحمر وجهاهما ورقبتاهما كأنهما ديكان روميان ، ولم ينبسا بكلمة .. كنت مطمئنا إلى أنهما لن يستطيعا عمل أى شىء ضدى ، وليس فى وسعهما أن يتدخلا فى أمرى الآن ، بعد أن صرت بطلا من أبطال المتطوعين ، وعدت إلى الوطن وسترتى تزينها شارات الشرف ، بعد نصر عظيم فى سانت فرانسس . هذا ، إلى أنى زميل للصاغ روچرز العظيم ، وصديق للقائد آمهرست نفسه !!

كنت أفكر خلال تجوالى هذا وأعجب ، ترى كم من الوقت سيمضى حتى ألتقى بالبزابيث ، لترى ما حل بى من تغير ، فتعض بنان الندم على سابق معاملتها السيئة هى وأهلها

للمقاتل الشجاع الذى عاد من الحرب يتبعه أسير أحمر يجرى فى أعقابه طائعا مستأنسا ؟ ترى هل رأتنى من نافذة بيتها مثلا ؟ وهل أثار مرآى شجونها ، فقضت سواد الليل تبلل وسادتها بدموعها ؟ وهل تمنت أن يرق قلبى لها ويعود إلى سابق عطفه عليها ؟!

كنت أعلل النفس بأنها ستكتب لى خطابا كله خشوع وخضوع تدعونى لزيارتها .. فلما مضى أسبوع دون أن أسمع منها خبرا ، قررت أن أكون أكرم منها خلقا ، فاتخذ نحوها الخطوة الأولى ..

والحقيقة أنى لم أعد أطيق الصبر على بعدها ..

عندما ضربت المطرقة النحاسية اللامعـــة طرقات عسكرية ، على باب السيد المبجل آرثر براون ؛ فتحت لى أم البزابيث . . واستقبلتنى بدهشة وقور فيها بعض من حرارة الترحيب ، وصحبتنى على الفور إلى المطبخ ، حيث البزابيث وجين تفرمان اللحم وتطهوان الفطائر استعداداً لعيد الشكر ، شأنهما شأن نساء نيو انجلند أثناء هذا الموسم . .

وكانت حرارة الأفران قد أكسبت وجه البزابيث حمرة وجمالا أدارا عقلى . . . كانت أجمل كثيراً من صورتها التى ارتسمت فى خيالى طوال غيبتى عنها . .

وألجم لساني فسكتّ . . ولم يكن بي حاجة للحديث ، فقد بدأت الفتاتان تثرثران فيما يشبه تغريد الطيور ، وتصفان كيف علما بقرب عودتي من سام ليڤرمور ، وكان قد ذهب لعيادة هنك المسكين ، فعلم منه باحتمال رجوعي . . وجعلتا تصفان كيف عم السرور البلاد عندما نشرت صحف بورتسماوث أنباء تخريب سانت فرانسس ، وكيف كان الأصدقاء يسألونهما عن أخباري مرة بعد مرة ، ظانين أن لابد قد وصلتهما أخبار مني .

وقالت مسز براون في لهجة التأكيد : وسيكون باستطاعتنا الآن أن نقدم لهم ذخيرة وفيرة من الأنباء المثيرة .

وقالت اليزابيث وهي ترميني من ركن عينيها بنظرة جعلت قلبي يقفز من ضلوعي : كيف كانت ، وما شكلها يا لانجدون ؟؟

قلت : شكل ماذا ؟

قالت : الأمور كلها . . شعوركم وأنتم تقطعون الطريق الطويل ، وتقومون بهذا العمل الرائع !

قلت : لم يكن في الأمر روعة أكثر مما في الخروج إلى الصيد .

وخيم الصمت على النساء الثلاث ، وأدركت وجوب

الحرص فى إجاباتى ، وإلا أثرت مشاعرهن ضدى . . لذلك أردفت بسرعة : ولكن الهنود طبعا جعلوا الأمر يختلف عن الصيد فعلا . . . لقد جئت بواحد منهم معى . .

وصاحت مسز براون متعجبة ، وعصرت البزابيث كفيها انفعالا ، وحملقت فىّ بعينين كالليل الأسود الحالك ، وقالت : هندى !! أأحضرت هنديا معك ؟ أين هو ؟

قلت : إنه فى القارب على مرساة سبرنج . .

وارتسم الفزع فى نظراتهن ، فأسرعت أقول : إنه لايزيد عن صبى ، وقد صحبته وأنا قادم إليكن وتركته فى القارب .

وصاحت البزابيث تقول : ولمَ تركته يا لانجدون تاون ؟ سيتجمد من البرد هناك . . أتقــول إنك صحبته طول رحلتك من . . . ؟

وقاطعتها مسز براون تقول فى صرامة : سيغضب أبوك جداً ، يا البزابيث ، إذا شرع مستر تاون يقص أخبار مغامراته فى تلك الفيافى ولم يكن الصبى حاضرا هنا . .

والتفتت إلىّ تقول : لقد دعونا مستر ليفرمور للعشاء معنا ، وسوف يزداد سرورا هو ومستر براون بوجودك . . وأقترح أن تذهب البزابيث معك إلى المرساة ، لتأتى بهذا الـ . . . الهندى ، وسنبقيه فى المطبخ فى أثناء العشاء .

وكان واضحاً أنها تكره أن تذكر أى إنسان بلفظ بسيط مثل كلمة هندى مجردة من أى نعت أو لقب . . وجعلت أتخيلها وهى مع زوجها فى حرم غرفة نومهما وأعجب . . أتراها تصر على مخاطبته بمستر براون ؟! وانتهيت إلى أنها لابد فاعلة ذلك . .

ولم يكن بوسعى إلا أن أبدى ابتهاجى بدعوتها للعشاء ، واستعدادى لإحضار بيلى حالما تتهيأ الزبائن للخروج .

وغمرتنى السعادة وملأنى الكبرياء ، عندما انفردت بها ، رغم وجودنا فى الطريق العام .

قلت : لا يمكنك أن تتصورى كيف كان خيالك يتجسم فى أحلامى ، ونحن نمر بأحلك الأوقات ، ونكاد نموت جوعا وضعفا !

قالت : عجبا ! أكنت تحلم بى حقيقة ؟

صحت : أحلم بك ؟ لقد مرت أيام ، خصوصا قرب نهاية الحملة ، كانت أحلامى تتجسم كالحقيقة ، حتى لأكاد ألمسك وأسمع حديثك . وكم كان حديثك عذبا جميلا !

وتلفتت حولها خشية أن يسمع أحد حديثى .

وأردفت أقول : وعندما اشتدت المحن ، ونفد الطعام،

وخيل إلى أن نهايتى قد حانت . حاولت أن أبعث إليك برسالة من أفكارى عبر الأثير ، لعلك تشعرين بما أنا فيه ، وتمنيت إذا انتهت حياتى ، أن يسمح لروحى بأن ترفرف عليك وتراك ، قبل أن تصعد إلى مستقرها الأخير.

وتمتمت تقول : لا تتحدث بمثل هذه الأقوال .

فسألتها : ألم تشعرى باقتراب روحى منك يا اليزابيث؟

ولم تحر جوابا .

ولست متأكدا أفهمت ما أعنيه بكلامى أم لم تفهمه ، ولكنى كنت سعيدا بوجودى معها ، مثلما كنا قبل تلك الليلة المشئومة التى أفلت فيها الزمام ، وتحدثنا بما لا يصح أن يقال .

ولما وصلنا إلى المرسى ناديت بيلى ، فأقبل من غياهب الظلام كشبح قاتم صامت يلتحف رداءً أخضر . وأرادت اليزابيث أن تربت رأسه ، ولكنه أجفل منها مبتعدا . .

قلت : أرأيت إلى أى حد يصل غباء الهنود ؟

وسرنا عائدين إلى بيت آل براون ، وبيلى فى أعقابنا ملتفا بملاءته الخضراء . . وكان الناس يديرون رءوسهم ليشهدوا هذا الموكب الغريب . . وملأ السرور نفس

الزابيث ، وقالت : لن يكون للمدينة حديث غداً غير هذا ، يا لانجدون . .

وأحسست بكتفها ترتكز على ساعدى . . كانت فى سعادة عارمة ، وكنت أنا أيضا فى سعادة لا نهاية لها .

واستقبلنى مستر براون بالترحيب مثلما فعلت زوجته وبنتاه ، وقال فى لهجة تمثيلية حادة : أعدتَ من الحرب ؟ لقد استحققت شكر المجتمع وتقديره ! لقد أمنتم حدودنا من عدوان ذلك البلاء الأحمر ، وانتصرتم لله على المشركين والكفرة . .

ولم أشعر بوجود ذرة من الإخلاص فى كلامه ، وارتحت عندما حول اهتمامه إلى بيلى ، وقال فى بشر : كافر صغير أعمى البصيرة ، أقصاه جهله وسواد قلبه عن معرفة الله !

قلت : ولكنه لقيّة مفيدة ، فقد حمل بندقية اليوزباشى أوجدن وأغطيته مائتى ميل دون تذمر .. ليس لبيلى مزايا مطلقا ، ولكنه صبى ككل الصبيان . .

قال : بيلى ؟ أممكن أن يتخذ هؤلاء المتوحشون أسماء مسيحية ؟ أكان يدعى وليم ؟

قلت لا يا سيدى ، إن اسمه الحقيقى صعب النطق جدا ، ولذا أطلق عليه الصاغ روجرز اسم بيلى .

قال مستر براون فى جد : الصاغ روجرز ! إنه يحارب فى سبيل الله ، ويرفع سيفه من أجل غرض أسمى .. اسأل الغلام عن اسمه الأصلى ..

قلت : إن الهنود لا ينطقون بأسمائهم يا سيدى ، إذ يعتقدون أن النطق بها مجلبة للشؤم .

ووجه إلى مستر براون نظرة استنكار لأنى أتحدث عن عوائد الكفرة بهذه البساطة ، وحمدت الله أن أقبل سام ليفرمور فى تلك اللحظة ، وضربنى على ظهرى مرحبا ، وهو فى عجب من أمر بيلى .

ولزم الصبى مكانه جانبى وظل يقف فى كبرياء ، رغم النظرات التى تكتنفه من كل جانب ، والأحاديث التى لم تنته عنه .. فقد وصفته مسز براون بأنه مسلٍّ للغاية ، وأكدت ابنتاها أنه غاية فى الجمال والظرف .. وسألتنى الزابيث عما إذا كنت أهبه لها عبدا رقيقا .. وظننتها فى بداية الأمر تمزح ، ولكن نظرات مستر براون وزجته المتسائلة ، أكدت لى جدية المطلب .

وقال مستر براون : إنه يكون عطية من الله .. وسنلقنه كلمة الحق ، فتسمو روحه إلى الخلود ..

قلت أعتذر وأشرح الموقف : المشكلة أنه ليس ملكى ، وإنما ملك الصاغ روجرز ، وقد أراد أن أحتفظ به له حتى

يعود . . والأوامر يجب أن تطاع ، ولذلك فإنى مضطر للاحتفاظ به تحت مسئوليتى .

وزمت البزابيث شفتيها قليلا ، ونظرت إلى بطرف عينيها ، وهى عادة لها تثير كوامن إعجابى . . وظل مستر براون يحملق فى الصبى كأنما يريد أن يخرج بضربات السياط شياطين الجهل والكفر من قلب المتوحش الصغير . .

وكنت أشعر بمزيد من القلق فى حضرة أمثال المبجل آرثر براون من المتدينين المستقيمين ، ولكنى صبرت ، وعزيت نفسى ، كما يفعل الشباب أمثالى ، بأنى لا أبغى الزواج من مستر براون شخصياً ، إنما تنحصر آمالى كلها فى بنته .

واقترحت ربة البيت أن يجلس الصبى فى ركن المطبخ حتى ينتهى العشاء ، ولكن مستر براون احتج بأن الطاهيه الزنجية العجوز ستنفر من وجود كافر مثله معها . ثم عاد وأذعن عندما وعدته بأن أخفى الغلام وراء مقعد بالمطبخ ، فلا تراه الطاهية . ولكن لم يكن هناك داعٍ لإخفائه ، فعندما أخذت بيلى إلى المطبخ ، هللت العجوز مرحبة ، وقبل أن أغلق الباب ورائى ، وأنا عائد إلى المائدة ، كان الاثنان يثرثران كل بلغته ، فلا يفهم أحدهما كلمة مما يقوله الآخر ، ولكنهما كانا سعيدين جداً .

وما إن استقر بنا المقام أمام المائدة ، حتى أرسل مستر براون وزوجه وابلا من الأسئلة . كانا أشبه بغولين شرهين يتلذذان بأخبار ما أتيناه فى سانت فرانسس من تعذيب وقسوة ووحشية . ولكن أعصابى ارتاحت حين أبدى سام ليفرمور والفتاتان شوقهم لسماع ما لدىّ من أنباء بطولة الصاغ روچرز .

كان الحديث عن الصاغ يطلق لسانى ، فتكلمت بعاطفتى ، ورأيت سحر الحديث يستولى على ألباب الجماعة . . كانت اليزابيث تصغى بأنفاس مبهورة وعيون لامعة ، وقد انفرجت شفتاها قليلا ، مما أرضى غرورى وكبريائى ، لأنى أجدت الحديث فى حضرة حبيبتى ، فاستجابت معى وشاركتنى فى تقديسى لذلك البطل العظيم .

قال سام فى وقفة من الحديث : إنهم هنا يقدرون روچرز أعظم تقدير ، وكذلك آمهرست .

وقال مستر براون مؤمنا : نعم . . نعم ، ورغم أن روچرز من جيش المقاطعات ، فقد وصل إلى القمة !

قال سام : إن الضباط النظاميين لم يقدروا جيش المقاطعات حق قدره ، حتى أثبت لهم روچرز كفايته .

إنه رجل عظيم ! كل فرد هنا يعرف أنه قام فى هذه الحملة بما يعجز الضباط البريطانيين جميعاً .

قلت : بل ويعجز أى جيش آخر ، فما من رجل حىّ يستطيع أن يفعل مثله .

وقالت اليزابيث فى لهجة استعطاف : ما شكله ؟ صفه لنا يا لانجدون .

قلت : ليس وصفه بالأمر الهين . فعلىّ أن أصور لكم رجلا يقف فى النار ولا يحترق . يُدفن فى الجليد ولا يتجمد . يُقيد بالسلاسل تحت الماء ولا يغرق . . رجل يخرج من النار والجليد والماء حيا ، لينقذ معه رفاقه أجمعين ، ثم ينبرى لأعدائه ، فيفنيهم عن آخرهم . لست أدرى كيف يبدو فى شوارع بورتسماوث وطرقاتها ، ولكنى أعرف أنه يبدو كإله عظيم وسط المستنقعات الكندية التى يصل طينها إلى الأعناق ! !

قالت وهى تضم كفيها : إنك تبدع الوصف .

قلت : ربما استطعت أن أرسم لك صورته بالباستيل . أتعرفين الباستيل ؟ إنها أقلام ملونة تعمل من خليط أبيض الرصاص بالأصباغ المطحونة . كنت أرسم به أخيراً ، ولعلى أتمكن من أن أرسم به الصاغ فى يوم من الأيام .

صاحت : أرجوك ! ومتى تأتينى بها ؟

وقال السيد المبجل آرثر براون بصوت قاسٍ ونبرات عامرة بالتحذير : البزابيث !

وأدركت أنه ما كان من اللياقة ومن الأدب أن أتكلم عن الباستيل والتصوير فى حضرته وأمام زوجته وبناته ، لأنه موضوع شائك غير مأمون العواقب .

قالت مسز براون تخفف وقع ما حدث : ما كان يجب أن تغرى لانجدون بإضاعة وقته فى البدع والتوافه ، خاصة بعد أن تفتحت أمامه أبواب المستقبل الباهر ، وأصبح المجتمع كله ينتظر منه خدمات جليلة .

وقاطعتها قائلا : أستميحك عذراً يامسز براون ، ماذا تقصدين بحديثك عن المستقبل الباهر ؟

وانبرى زوجها يرد على سؤالى ، وهو يحنى رأسه لى فى عطف واضح علىّ : لقد حصلت ياولدى العزيز على أوسمتك ، وأصدقاؤك يأملون أن يظل صدرك دائما عامراً بأوسمة الشرف والفخار ، وأن يزداد عددها يوما بعد يوم يا لانجدون . . إنه ليسعدنا جميعاً أن الطريق متفتح أمامك ، وعن قريب تصبح ضابطاً نظامياً بجيش صاحب الجلالة . .

وكرهت أن أثير ذلك النزاع مرة أخرى ، فقد وطنت نفسى على أن أصير مصوراً ، واليوم أصبحت أكثر تصميما على تحقيق غايتى ، ولكنى كنت فى ذات الوقت أعتزم

الزواج من اليزابيث ، ولذلك آثرت أن أسلك طريق السلام في تلك اللحظة ، فقلت : إني شاكر لك طيب تمنياتك ، يا سيدى ، وأظن أن عمل الصورة التي وعدتُ بها اليزابيث لن يعطل مستقبلي بأى حال من الأحوال .

وانتصرت لى اليزابيث فقالت لأبيها : يجب عليه أن يفي بوعده ، لقد عقدت آمالي على تلك الصورة ، ولن يضير لانجدون أن يستعمل ألوانه ، ليبعث السعادة في قلب سيدة . . . ألا ترى ذلك يا سيدى ؟

فقال مستر براون في تسامح وكرم : لا . . لا . . لا ضرر مطلقا ما دام الأمر يقتصر على إرضاء السيدات ، أو التسلية في وقت الفراغ . . لا تتوان يا ولدى العزيز عن إحضارها حالما تنتهي منها .

قلت : سأفعل ذلك . .

ووفيت بوعدى . .

وأظنني رسمت ما لا يقل عن مائة صورة بالباستيل لروچرز ، قبل أن أخرج واحدة أرضتني بعض الرضا . . وكانت اليزابيث لا تكف عن سؤالى متى أنتهى منها ، وكنت لا أكف عن التسويف . . فطول تلك المدة لم أنقطع عن الذهاب إلى بيت السيد المبجل آرثر براون . لا أقل من

اثنتى عشرة مرة فى الأسبوع . ألقى فيها من أهل البيت ترحيبا عظيما . .

كنت أرسم من ذاكرتى ، وأعتقد أنى نجحت فى إبراز شخصية روچرز وتصوير ملامحه فى ضوء نيران المعسكر . . وهو الوضع الذى اخترت أن أرسمه فيه . . وكانت الصورة تمثل رجلا هائل الجسم يجلس على صخرة ، وهو مستسلم للتفكير أمام النيران الموقدة . . وأعتقد أنى وفقت فى شرح غرضى لاليزابيث ، ففهمت أننى أردت أن أقدمه لها كما كنت أراه دائماً : يقظا عندما ينام الجميع ، يفكر فى كل صغيرة وكبيرة ، ويحسب فرص النجاح والخيبة ، والحياة والموت ، ويعمل على أن يكون الفائز دائماً . .

وفرحت اليزابيث بالصورة الصغيرة فرحا عظيما ، وجعلت تتطلع فيها بعيون لامعة ، ولمست خدى باصبعها إعزازا وتقديرا . .

قالت : صورة رائعة تدل على موهبة عظيمة ، يا لانجلدون ، لأنها تروى قصة روحه الفذة . . والآن ارسم لى صورة أكبر من هذه لأتبين فيها ملامحه الحقيقية .

وكان فى إطرائها هذا ، نوع من التسليم بأنها لن تعترض على احترافى التصوير ، وبعثت موافقتها المقنعة فى نفسى سعادة غامرة ، فضحكت ، ووعدتها بالصورة ، وخرجت وأنا أتحرق شوقا للبدء فى عملها . .

الفصل الثامن والأربعون

كثيرا ما تؤثر الحرب فى مصاير الناس ، فترفع بعضهم إلى مراتب النبل ، وتدفع القليل منهم إلى الدمار ، أما غالبيتهم فقد لا يشعرون بوجودها ، شأن السياسة والتجارة التى لا يهتم بأمرها سوى المتصلين بها ؛ وعلى الرغم من قصر تجربتى فيها ، فقد خلقت فى نفسى رغبة فى مواصلة العمل دون كلل ، ما دام وراءه هدف أسعى إليه ، عازفاً عن توافه الدعة والمسرات : بعد ما كنت فيما مضى أعنى بها غاية العناية ، وأعطيها من الأهمية قدراً عظيما .. كنت إذا قارنت أشق عمل فى الحياة ، بما لقيت من عناء ونصب فى مستنقعات كندا اللانهائية ، تزول مشقته فى نظرى ، ويبدو أهون ما يكون .

وشيدت بمعونة بيلى قاعة للرسم فوق مرتفع بمزرعتنا ، يشرف على جبل أجاماتنيكاس وتلال روفر .. وبنينا القاعة من كتل خشبية ، وسددنا ما بين الألواح من فُرَج ، ثم غطينا جدرانها بالقش والملح ، لنعزل برودة الشتاء ونمنع لسعات رياحه القارسة .. ومع هذه الحيطة كلها ، وعلى الرغم من الموقد المشتعل باستمرار ، كانت رياح الشمال العاتية تنفذ

إلى القاعة ببرودتها الموجعة ، لتبعث الرجفة فى أبداننا ، وتجمد الألوان السائلة إذا ما أبعدتها عن دفء الموقد قليلا .. ولم يسلم من قسوة هذا البرد سوى ألوان الباستيل الجافة .

وابتعد الزوار عن معزلنا ، فنلت ما يتمناه كل فنان من هدوء ؛ وفى ذلك المخبأ النائى الخشن رسمت أولى لوحاتى بالطباشير الأحمر والباستيل .. كانت لوحة نصفية لروچرز بحجمه الطبيعى .. رسمت أجزاءً منها من ذاكرتى ، وأجزاءً أخرى من الرسوم الصغيرة التى كنت ألتقطها فى أثناء الحملة . وكان البرد يشتد علىّ أحيانا فتتصلب أصابعى على الأقلام وأكاد أتوقف عن العمل ؛ ولكن ذكرى روچرز وهو يسعى من شجرة إلى شجرة عند شلالات هوايت ريڤر ، ليغذى النيرانِ ، التى أنقذت حياتنا ، بالأغصان الجافة ، ثم ذكرى أوجدن وهو يترنح بين الغلامين رغم جراحه القاتلة ، وذكرى أندرو ماكنيل وهو يحك قيوده بشظية العظم الحادة ، حتى تعرت أصابعه من الجلد واللحم وانكشفت أربطة عضلاتها .. هذه الذكريات وغيرها كانت تمر أمامى فتهون علىّ آلامى ، وتعيدنى إلى التصوير أعمل فيه بلا كلل ولا ملل .

كنت فنانا مبتدئا ، فاعتمدت على تجاربى المحدودة فى اكتشاف أسرار الألوان ، وأفضل الأساليب فى استعمالها ،

ومع ذلك أعتقد أنني أحسنت رسم روچرز بردائه الأخضر وقبعته السوداء ذات الحلية المعقوفة ، وقد شد على صدره حزام متاعه ، وأمسك بندقيته بقبضته الضخمة .

واستنفدت الصورة من وقتي شهورا وشهورا ؛ إذ كان اليأس يتملكني أحيانا فأتركها مدة طويلة ، ثم يستيقظ الأمل في نفسي ، فأعود إليها بهمة جديدة . . وجاءت أنباء هزيمة الفرنسيين في مونتريال قبل أن أنتهي منها ، فبلغ من تقديسي لبطولة روچرز حدا لا مزيد عليه ، واعتبرته صاحب الأمجاد كلها في انتصارات بلادنا . . أما القائد آمهرست فلم يعد في نظري سوى عجوز مغمور عديم الحيلة والقوة .

وكنت أوزع عملي وجهدي بين صورتين : صورة روجرز وصورة أخرى غير كاملة لاليزابيث في ثوبها الصوفي ذي اللون البرتقالي . . تمثلها كما رأيتها في المطبخ يوم عيد الشكر ، وهي تنظر إليّ من طرف عينيها اللامعتين الصافيتين . كنت أقبل على العمل في هذه الصورة كلما أرهقني الجهد في صورة روجرز ، وشعرت بالحاجة إلى الراحة والترفيه عن نفسي . . وكان الشبه بين الصورة وصاحبتها قوياً جداً ، حتى كنت أديرها إلى الحائط خيفة أن تشغلني نظراتها الخلابة ، ثم أستدير إلى بيلي أرسمه في أوضاع وأشكال لا حصر لها .

ولم تكف إليزابيث لحظة عن سؤالى ، متى أنتهى من صورة روجرز ، ثم تزم شفتيها لطول الوقت الذى أستغرقه فى عملها . وأخيراً نلت جزائى عندما انتهيت منها وقدمتها إليها . . إذ راحت تنظر إليها فى إعجاب يثلج صدر أى فنان عاشق .

صاحت تقول : ما هذا يا لانجدون ؟ لم أكن أتصور يوماً أنك على هـــذه القدرة فى التصوير ! إنها فى جودة اللوحات الحقيقية التى يرسمها مصورون حقيقيون !

قلت باسماً : إنها لوحة حقيقية .

قالت تفصح عن غرضها : أقصد اللوحات الزيتية . . . ولعلك فى حاجة إلى بعض دروس فى الزيت لترسم به أيضاً .

قلت : إن للرسم بالپاستيل ، يا إليزابيث ، مزاياه العديدة ، فألوانه لا تتغير بمضى الزمن ، ما لم تطمسها الأيدى ، فى حين أن الزيت لا يلبث أن يتشقق ، وينطفئ بريقه .

قالت بلهجة طربتُ لها واهتز قلبى : لن تطمس يد لوحتك هذه . .

وعادت تقول بعد لحظة : لقد ضخمت أنفه ووسعت فمه ، يا لانجدون .

قلت : أنا ؟ لقد كنت أشعر وأنا أرسمه ، يا اليزابيث .

أننى جاملته على حساب الحقيقة ، وهذبت قسمات وجهه بدرجة ملحوظة ، فلقد خيل إلى يوم رأيته لأول مرة ، أنه أشد دمامة من أى مخلوق رأيته فى حياتى كلها .

قالت : ما هذا الكلام ؟ لا . . لا ! لست أراه دميما على الإطلاق . . إن وجهه يفيض بالعظمة : فم واسع دليل الكرم ، وأنف ضخم عنوان الأرستقراطية . . أنوف العظماء كلها كبيرة وضخمة . . لا . . لا أحب أن تصفه بالدمامة ، أو تهين لوحتى مرة أخرى ! وسأخفيها فى مكان لا يصل إليه نظرك .

ثم ضحكت فى حبور ، وربتت كتفى ، وجرت تصعد السلم مسرعة .

وعادت بعد لحظات متوردة الخدين فاتنة ، يلفها الضحك والسرور ، مما سُرَّ له قلبى واهتز وجدانى .

قالت : أرسمت لوحات أخرى يا لانجدون ؟

قلت : نعم . . رسمت بيلى مرات عدة ، وخططت دراسات كثيرة للهنود ، وهو ما كنت أتمناه دائماً كما تعلمين .

ونظرت إلى وقالت فى ضيق : هنود ! ظننتك ترسم لوحات لأشخاص !

قلت أعترف : لقد رسمت شخصا . . من الذاكرة . .

قالت : شخص أعرفه ؟

فلما نظرت إليها فى هدوء وثبات ، أسبلت جفنيها وسألتنى بلطف : أهى لوحة جميلة ، يا لانجدون ؟

قلت : أكثر من جميلة . . . بديعة ! صورتك وأنت تنظرين إلىّ من فوق كتفك . كلما رأيتها قفز قلبى بين ضلوعى . .

قالت باحتجاج لطيف : لانجدون ! !

ثم عادت تقول : وماذا أرتدى فيها ؟

قلت : ثوبك البرتقالى . .

وتقطب جبينها بسرعة وقالت : لا ، لا . . إنه ثوب من الصوف حقير . .

قلت : أعرف ذلك يا البزابيث ، ولكن لونه يكسب الصورة تناسقا جميلا فى الألوان ، خصوصاً مع اللون الأزرق الجميل للقدر الموضوعة على نضد المطبخ . .

وشهقت تقول : فى المطبخ ! ! المطبخ ! يا لانجدون ! كيف يطاوعك قلبك على إتيان عمل كهذا ؟ لدىّ أثواب جديدة . . . هناك الثوب الحريرى الأصفر ، الذى ينوى مستر بلاكبورن أن يرسمنى به .. إنه لونه بديع ! فلماذا لم تصورنى به ؟

قلت محتجا : ولكنى لم أرك ترتدينه مطلقا يا اليزابيث ! أما البرتقالى فقد ظهرت به أمامى عشرات المرات ، ولونه يوحى بالدفء والاستقرار العائلى ، وليس به شىء من التصنع أو الافتعال ..

ورأيتها ، لعظيم دهشتى وبالغ يأسى ، تنفجر باكية .

وأخذت يدها المنقبضة بين يدى ، وقلت أستعطفها : اليزابيث ! انتظرى حتى ترى الصورة ، وستغيرين رأيك بعد ذلك بلا شك ، وإنى فخور بما فعلت .. إنها أول ما أنظر إليه عندما أدخل قاعتى ، وآخر ما أمتع النظر به وأنا خارج منها .. سآتيك بها .

والتفتت إلىّ وقالت : لا أطيق أن تقع عينى عليها ، لا تأت بها ، فقد يراها أحد ، ويرى ذلك الثوب الشنيع ! ويرى المطبخ ! . . . المطبخ !

قلت : ولكنك لا تكفين عن دخول المطبخ والخروج منه طول النهار ، ولذلك أعتبره أحب غرفة فى البيت كله .

ولم يُجْدِ منطق فى إقناعها .

قالت : سيقتلنى العار ! سأموت عاراً لو رأى الناس صورتى فى المطبخ ..

قلت : أى ناس ؟

قالت : آل وينثويرث أو آل أتكنسون أو آل وارنر

وماسون ونيزرف .. ترى ماذا يقول الصاغ روجرز نفسه لو رآها ؟

قلت : أستحلفك بالله . .

وقبل أن أتم حديثى فتحت كفها المطبقة بين يدىّ وقالت ضارعة : عِدْنى أن تمزقها .. عدنى أن تحرقها !

قلت : إنى لا أفهمك .. الصورة جميلة جداً .

قالت : أرجوك يا لانجدون .. أرجوك . .

واستجبت لرجائها بطبيعة الحال .

وفى اليوم التالى مزقت الصورة إلى أربع قطع ألقيتها فى ركن القاعة ، بين الصور الأخرى التى أرميها جانبا قبل أن تتم

* * *

كانت لوحتى لروجرز سبب مجئ كوبلى إلى كيثارى ، إذ أقبل على بيت أبى يوم أحد من شهر مارس ، وطرق باب قاعتى المنعزلة .. وعندما دخلها صاح يقول : يا إلهى ! منذ متى وأنت فى هذا العمل ؟

كانت القاعة مليئة باللوحات التى عُلِّق أغلبها على الجدران : فهذا كونكابوت فى حالة سُكر بيّن وحلية الحذاء تزين ضفيرة شعره ، وهنا صف من المتطوعين المتشابكى

الادرع وسط التيار الصاخب ، وهناك زورق مقلوب فى دوامات النهر الصفراء بعد أن لفظ جثتى امرأة وطفلها .. وذلك صف من الجثث الحمراء ترقد بين خرائب سانت فرانسس .. ثم هذا أسطول من الزوارق ينزلق بسرعة فوق صفحة الماء تحت سماء الخريف ذات الألوان الحمراء والقرمزية والصفراء .. وذلك هندى يقطع أوصال عدوه فى قاع أخدود ، وبجانبه آخر يشهر خنجره فى وجه رجل أعزل يختفى وراء بقرة وحشية مسلوخة . . . ثم متطوعان نحيلان منفوشا الشعر كالحيوانات ، يحفران الأرض بحثا عن الأبصال المختفية فى مستنقعات كونيكتيكات ..

ودار كوبلى بالصور يتأملها ، ثم عاد يقول : كُنْتَ والله فى شغل شاغل ! آه ! لقد رأيت الصورة التى رسمتها للصاغ ، إذ تعطفت مس براون علىّ برؤيتها .. فأين تعلمت الرسم بالپاستيل .

قلت : من الكتب .. وما رأيك فى صورة الصاغ ؟

قال متعجبا : من الكتب ؟ إنك لا تتعلم هذه الأشياء من الكتب ، وإنما تكتشفها بنفسك ! ماذا عندك غير هذه المجموعة ولوحة روجرز ؟ أمن لوحات أخرى ؟

قلت : أشياء لا أهمية لها .. لا يصح عرضها عليك .

قال : هكذا !

وسار إلى نضد التحضير ، وشم الحجر الذى أطحن فوقه الألوان ، وتناول قلما وحكه على يده .. ثم سألنى قائلا : كيف تمزج هذه الألوان ؟

قلت : هذا مزيج من رواسب الصلصال الأبيض مع مادة لاصقةمن مستحلب شمع التوت البرى . .

قال : من علمك صنعها ؟

قلت : لم يعلمنى أحد . . إنى أعد ألوانى بنفسى ، وقد وجدتها لا تزهو بغير هذه الطريقة . والقلم الذى تمسكه الآن إحدى تجارب كثيرة أستعين فيها بمواد تتوافر فى بلاد الهنود التى أعتزم زيارتها يوم أشرع فى تصويرهم .

فأنعم النظر فى مفكرا ، وقال : هكذا ! هكذا ! وعمّ أسفرت تجاربك ؟

قلت : نتائج لا بأس بها . . هاك صورة صنعتها بتلك الألوان .

وأخرجت من درج المكتب صورة فتاة هندية عارية ، تركع أمام الطبل العظيم بساحة سانت فرانسس ، وعلقتها على الحامل البدائى الذى أرسم عليه . وحكّ كوپلى فكه بيده ونظر إليها مقطبا ، وعاد ينظر إلى القلم الذى بيده ، ثم وضعه على النضد وسار إلى الحامل ، وأنعم النظر فى الصورة عن

قرب . فقلت معتذرا : إنى لا أستعين على الإطلاق بالمواد المثبتة للألوان .

وتراجع إلى الوراء خطوة ، ثم هز رأسه وقال بلهجة قاسية : أرنى غيرها .

وهوى قلبي بين ضلوعى . . إن الصورة لم تعجبه ، مع أننى أعتبرها أفضل ما صنعت يدى . وقدمت له صوراً أخرى أقل أهمية ، ووضعتها على الحامل ، الواحدة تلو الأخرى .

ولكنه استوقفنى قائلا : أهذه أولى صورك ؟

قلت : لا . . لقد سبقتها محاولات عدة .

قال : وماذا تصنع بتلك المحاولات ؟

وأشرت إلى ركن القاعة خلف الموقد ، فسار إليه وأخذ قبضة من تلك الرسوم وجعل يستعرضها . وبعد سكوت طويل اقتربت منه أنظر فوق كتفه ، فإذا بى أراه يفحص صورة البزابيث بعد أن أعاد تنظيم قطعها ووضع كل قطعة فى مكانها .

قال : لماذا مزقت هذه الصورة ؟

قلت : إنها لا شىء . . انس أنك رأيتها ، أرجوك . .

وألقى بالصورة إلى ركنها وتمتم فى غيظ ، وعاد يفحص الصورة المعلقة على الحامل من قرب ، حتى كاد أنفه يلمسها ، وكانت تمثل خمسة قوارب مشحونة بالهنود . .

قال فى انفعال : أصغ إلىّ : لايصح أن تعمل هذا . .

قلت : آسف جدا . . كنت أظنها جيدة ! . أين مواضع الخطأ فيها ؟ .

قال : خطأ ؟ مواضع الخطأ فيها ؟ إنها مخيفة . . ماذا تبتغى من رسمها ؟ أتظن أن أحداً يدفع مالا فى مثل هذه الصور ؟ يا إلهى ، يا رجل ! يا إلهى !

قلت : أهى صور جيدة أم رديئة ؟

قال : لاتجدون . . يجب أن تغادر هذه البلاد فورا ! يجب أن تذهب إلى لندن بلا أدنى تردد . .

وحسبته يتفكه بالحديث فضحكت قائلا : ومتى تريد أن أسافر ؟

قال : كلما أسرعت كان أفضل .

ورأيته جاداً فى حديثه ، فقلت : وكيف أسافر إلى لندن ؟ ومن أين لى المال الضرورى للرحلة ؟

وعادت فكرة الزابيث إلى خيالى فى مثل لمح البصر فقلت : ولكنى لا أرغب فى السفر .

قال : سيان أرغبت أم لم ترغب ، يجب أن تذهب بسرعة . أرنى بقية تلك المجموعة .

ورحت أضع الصور واحدة بعد واحدة ويدى ترتعش ، ثم قلت : هل ترى فيها جمالا أو فناً ؟

فصاح يقول فى ضيق : يا إلهى ! طبعاً فيها كثير من الفن والجمال ، ولست أدرى كيف استطعت أن تخرجها بهذا الشكل ! لقد أصبحت تعرف عن ألوان الباستيل الآن ، أكثر مما يستطيع أحسن خبير فى هذه البلاد أن يعلمك . . نعم . . يجب أن تذهب إلى لندن يا لانجدون .

قلت : دعنا من هـــذا الموضوع ، والأفضل ألا نعيد الكلام فيه .

ولم يعر قولى التفاتاً وقال : هل رأى هذه الصور أحد غيرى ؛

قلت : بيلى ، الصبى الهندى ، وهو لا يهتم بأمرها كثيراً . . وفيما عدا كما ، لم يرها إنسان .

وضرب كوپلى صدرى بسبابته ، وقال : لا ترها لأحد وإلا اتهموك بالجنون . المفروض علينا ألا نرسم الأشياء كما نراها ، وليس مسموحاً لها أن تظهر على الورق كما هى فى الحقيقة . . فالرجال لا يموتون كما يموتون فى الطبيعة ،

والجندى لا يستطيع الموت كما يجب أن يموت ، وكما يموت فعلا .

وتناول اللوحة التى بها صف الموتى الهنود بسانت فرانسس ، وقال : انظر ! انظر كيف تصلبت هذه الذراع وارتفعت فى الهواء ؟

قلت أدافع عنها : ولكنها كانت هكذا !!

صاح : طبعا ، طبعا . ولكنه محرم عليك أن ترسمها كذلك ! إنك تعرف كيف يموت أحد الضباط عادة فى المعركة : راكعا على يديه ورجليه يلفظ الدم تحت شجرة ، أو وراء دغل ، حيث جرّه زملاؤه بعد أن تلطخ بالطين والأوساخ . ولكن مثل هذا المنظر — وإن كان حقيقياً وواقعياً — لا يجوز تصويره مطلقا . فالموت يجب أن يحدث بجمال وروعة ، وفى وضع متناسق متناسب . فالقائد يجب أن يموت فى درع رومانية ، مستنداً إلى ضابطين عظيمين يلبسان خوذتين يونانيتين ، ومن ورائه دخان كثيف وأعلام مرفوعة ومدفع مقلوب . ويجب أن يكون هناك سبعة جنود على الأقل يرفعون أيديهم إلى السماء بسيوف مشرعة قصيرة . هذا إلى صورة إله الحرب يسبح على ستار حريرى أصفر معلق بالحبال ، وتتدلى منه شذائب طويلة . فإذا رسمت ذلك كله

يا بني ، نلت استحسان النقاد كلهم . عليك أن تتعلم كثيراً ، يا صديقي !

قلت في تهكم أسأله : في لندن ؟

قال : لا . إني أحدثك بقليل مما يعلمونه في لندن ، ولك بعد ذلك أن تنسى منه ما تشاء .

وهززت رأسي نفيا لفكرة لندن ، وأصر كوپلي على عناده فقال : تُرى هل تعرف أين توضع اللوحات عادة في بلادنا ، يا لانجدون ؟ وفي أي القاعات تعلق ؟

قلت : أعتقد أنها توضع في أحسن البيوت ، وتعلق في أوسع القاعات وأجملها .

قال في تأن وتأكيد : إن اللوحات محكوم عليها بالتعليق في قاعات الجلوس ، وما من أمريكي يتصور لوحة في غير ذلك المكان ، والقيمة الوحيدة التي يعترفون بها ، هي مدى الشبه بينها وبين صاحبها . فهل يرضيك أن تنال شهرة على هذه الأسس ؟

ولما ترددت في الإجابة ، سألني رأيي في لوحات جرينوود ، وهو من أعظم الرسامين الأمريكيين ، وقد اشتهر بتصوير أغنى أهالي پورتسماوث ، ومنهم چون لانجدون وآل كات وآل موفات .

قلت إنى لا أرى فى لوحاته سوى الجمود والصلابة .

صاح : جمود فقط ؟ إن الأجســام التى يصورها تبدو كأنها صنعت من جليد قُدّ بالفئوس ! الشعر مثل حديد مصبوب ، والعيون كخشب الأبنوس !

ثم قال وهو يقبض يده فى عصبية وضيق : تأمل الملابس التى يصورها فى لوحاته .. حرير حقيقى ! حرير يغطى الأجسام العاجية ! أغلى الحرير وأثمنه ! ثمن الياردة منه لا يقل عن اثنين وأربعين شلنا ! .. ولو أن سيدة ممن يرسمهن جرينوود اشترت جوربا حريريا لهذه المناسبة ، تجده يحرص على إبراز تلك الحقيقة فى وضوح .. وإذا ارتدت واحدة شيئا من الدنتله ، تراه يخرجها فى لوحته من أحسن الأنواع وأثمنها ! لقد أرضى كل رجل رسمه بإبداعه فى تصوير ملابسه ، وجعلها تنطق بارتفاع أثمــانها وجودة نسيجها ! إن لوحات جرينوود ورسومه تبرز الثراء والجاه والملبس الثمين ، ولذلك اشتهر الرجل بأنه أحسن رسامى أمريكا !

وأنهى حديثه بتمتمة غيظ كالحشرجة .

وسار بعد لحظة من السكوت إلى صورة كونكاپوت المثبتة على الحائط يفحصها بعينين شــبه مغمضتين ، وهو

يترنم بأغنية معروفة ، ثم قال : أكاد أشم رائحة الروم تفوح منه !

وكأن خاطرا مر بفكره ، فطلب ورقة ووضعها على النضد ، ثم رسم « بالطباشير » الأبيض خطوطا بسيطة عليها ، تمثل مدخل بيت ذى سلم أنيق يصعد إلى شرفة واسعة ، بها نافذة عالية مقوسة ، وخطّ على جانبى النافذة مستطيلين ، وقدم لى القلم ، وقال : املأ هذين المستطيلين بصورة هندى .. هندى نموذجى .. هندى وسيم فى أبهى زينـــة .

ورسمت ما طلب ، ووضعت بضعة خطوط ملونة على درجات السلم فازداد جمالا وحياة ولمعة .

وأخذ كويلى الرسم ولفّه ثم وضعه بجانب قبعته ، وقال : والآن .. لنفرض أننى أطلقت يدك فى لوحة لثرى من أهل هذه الجهة ، وطبعاً لا بد أن يكون من رجال الجيش ، فمن تختار لهذه اللوحة ؟

قلت على الفور : السير ويليام فيپس أو السير ويليام پيپريل .

قال : لقد طلبت إليك أن تختار من أهل هذه الجهة ، فلماذا تذهب بعيداً إلى محافظ مساشوستس ؟

قلت : إن فيپس مولود هنا فى كينّابِك . كان مربيا للماشية ، ثم تحول إلى بناء السفن فى نهرشيپسكوت فى ميان ، فهو أصلا من هذه الجهة .

ودهش كوپلى وقال : أحقيقة ما تقول ؟ ظننته مغفلا من بوسطون عجز عن القضاء على أعمال السحر بالحسنى ، فقتل مئات ومئات من الأبرياء .

قلت : ولقد كان فوق ذلك أسعد رجل فى العالم : تزوج أولا سيدة ثرية ، وعثر ثانيا على مركب غارق استطاع أن ينقذ منه ذهباً قيمته ثلاثمائة ألف جنيه ، ثم استولى أخيراً على بورت رويال من الفرنسيين .

فقال كوپلى بعد تفكير : ترى لو أعطيت الفرصة لتصويره ، فكيف ترسمه ؟ وفى أى وضع ؟

قلت : أرسمه نحيلا صبغته أشعة الشمس بلون داكن ، يقف على ظهر سفينة عارى الصدر ، وأمامه بحارة يخرجون الذهب من قاع البحر ، وهم شبه عرايا ..

وهز كوپلى رأسه ، وقال : ها قد عدت إلى سخفك مرة ثانية .. لو رسمته هكذا ما أمكن لأصدقائه أن يميزوه من بين بحارة السفينة ! ألم تفهم أسس التصوير الأمريكى بعد ؟ ألم يكن فيپس قائداً فى يوم من الأيام ؟

قلت : بلى ، ولكن ..

قال : ليس هناك مكان لكلمة « لكن » ! فالقائد الميت

يجب أن يكون محمولا على الأذرع ، والقائد الحى يجب أن
أن يمتطى صهوة جواد ..

قلت محتجاً : ولكن فيپس كان فى البحرية ! واستولى
على پورت رويال من البحر ، ثم إنه ..

قال فى عناد : كلامك لا فائدة منه ، وليس من حقك
أن تعمل ما تحب ، عليك أن تعمـــل ما يريده الناس ،
لا ما تريده أنت ! وقد تحب أن ترسم فيپس يرعى غنما
أو يروى عطشه من برميل ماء ، ولكن قل لى ، ما مصير
صورة كهذه ؟ لن يعجب بها أحد ، وسينتهى بك الأمر إلى
تمزيقها ، مثلما فعلت بصورة اليزابيث براون فى الثوب
البرتقالى ! فالسيدة يجب أن تكون مرتدية أحدث ما عندها ..
الثوب الذى يظهر أكبر كمية من لحمها ؛ والقائد يجب أن
يمتطى صهوة جواد لا مثيل له فى الجمال .. وأظنك مقتنعاً
أنه من العبث أحياناً أن تقف أمام الرأى العام وتعانده .

قلت مصدقا على قوله : نعم .. أفهم ذلك .

قال : أريد أن أعرف رأيك إذا كلفت برسم پيپريل
على صهوة جواد مطهم .. هل تقبل أداء المهمة المطلوبة
منك ، أم تعارض ؟

قلت : بل يسرنى أن أعطى فرصة لرسم أى شىء .

قال كوپلى : جميل .. جميل جداً .. إن معظم الفنانين

يشكون من إصرار الأغنياء على إظهار مزاجهم السقيم ؛ ولكن غنيا سقيم المزاج ليس أسوأ حالا من فنان عنيد يصر على أن يموت جوعا ، ولا يرسم لوحة تدخل السعادة على قلب إنسان آخر .. وأعتقد أن الفنان الذى يريد بلوغ غايته ، عليه أن يستغلّ يده فى أى عمل يعرض له ، ويرسم ما يريده الناس منه ، إلى أن تستقر به الأحوال ، ويشتهر اسمه ؛ وعندئذ يصبح فى مقدوره أن يعطيهم ما يعتبره فنا صحيحا .. إن الرجل الصغير هو الذى يتمسك بأهداب الفن ، ويرفض الفرص المتاحة له ؛ ولكن الرجل الصغير لا ينجح فى حياته مطلقا .

قلت : ماذا تريدنى أن أفعل ؟ لابد أنه أمر فظيع ..

قال كوبلى ضاحكا : إنها وسيلة إلى غاية .. لقد بدأ مستر بلاكبورن فى رسم جوناثان وارنر وزوجته وحماته .. وجوناثان — كما تعلم — تزوج حديثا بابنة ما كفيدريس .

وهززت رأسى مؤمنا على كلامه ، فقال : ثلاثتهم فى غاية السرور لانتقال ثروة ما كفيدريس إليهم .. ومسز وارنر أكثرهم سروراً . إنها ما زالت طفلة على كل حال ، وقد رسمت بضع صور تريد أن تنقل على جدارن بهوها الأمامى ، بشرط أن تنقل كما رسمتها تماما ..

قلت : وهل تحسن الرسم ؟

قال : طبعا لا ، ولكنها فتاة لطيفة ، وعن قريب تضع طفلها الأول .. وأخشى أن تجن إذا لم تجد من يرسم لها صورها بسرعة .. ولذلك فى نيتى أن أريها رسومك ، وأقنعها باختيارك لرسم جدران بهوها ، حتى يأتيك المال الكافى ، فتسافر إلى لندن .

الفصل التاسع والأربعون

كانت رسوم مسز وارنر أسوأ ما يتصوره العقل ، ولكنى وضعت نصيحة كوپلى نصب عينى ، وتتبعت الرسوم البدائية حرفياً ، ولفرط دهشتى وجدت أننى أستمتع بهذا العمل ، وأزداد إقبالا عليه ، والأيام تمر سراعا كأنها تطير بأجنحة فى الهواء .

وخيل إلىّ أننى أشعر بالرضا أكثر من أى وقت آخر فى حياتى ، فقد ظللت يوما بعد يوم ، من الصباح المبكر إلى هبوط الظلام ، أعمل بمنتهى الجد فى رسم الصور على الجدران بالزيت ، فلم يمض شهر إلا وكان الهنديان يقفان على رأس السلم ، يتأملان البهو الواقع تحتهما فى نظرات واجمة ، مثلما كانا يفعلان فيما مضى بعد أن يغشهما والد مسز وارنر ، فيبيعهما من الروم المخلوط بالماء ما لا يزيد ثمنه على أربعين شلنا ، مقابل ثمانين رطلا من جلد القندس الثمين . . وفى نهاية الشهر كان السير ويليام پيپريل يجلس فى أبهى حلة على صهوة حصان ممطوط ، يمد أنفه نحو السماء ، بشكل تعتقد مسز وارنر الشابة أنه وحشى مثير .

وبعد شهرين آخرين كنت قد انتهيت من رسم الحقول

الممتدة ، وقمم الجبال المغطاة بالغابات ، ثم القلعة الزاهية وأمامها سير ويليام يفتش طابور الشرف . . . وكان آخر ما رسمته ، امرأة تغزل وحدها فى حقل واسع ، وكلب أقرب فى شبهه إلى الخنزير ، ثم منظر عجيب يمثل ابراهيم وهو يقدم ابنه إسحق قربانا . .

قلت لكوپلى : لست أدرى والله لماذا اختارت مسز وارنر أن تحلى جدرانها بهذا المنظر المقبض قبل أن تضع ابنها ؟

قال كوپلى وهو ينظر إلى واجما : وماذا يغضبك من إبراهيم ؟ ألم تتقاض أجراً طيباً لرسمه ؟

قلت : لقد نسيت ذلك ، فاسمح لى أن أسحب كلامى . . لا بد أنه كان رجلا عظيما على كل حال .

قال : طبعا يا لانجدون ، ولسوف ترسم أسوأ من ذلك قبل أن تبلغ غايتك .

وكنت أشعر فى قرارة نفسى بالرضا ، وعرفان الجميل لمسز وارنر وسير ويليام پيپريل وحصانه المطوط ، فبفضلهم جميعا ، أصبح فى مقدورى أن أكتسب من المال ما يكفى لزواجى باليزابيث .

* * *

وفى نهاية شهر مايو جاء كوپلى ليرانى أضع اللمسات

الأخيرة فى صورة الكلب ذى الشكل الخنزيرى ، وكان أسوأ جزء مما كلفت بنقله من نتاج مخيلة مسز وارنر . . ولما انتهيت من الكلب البشع وظهرى يكاد يتحطم لطول ما انحنيت ، قادنى كوپلى إلى الجانب الأمامى من حديقة البيت ، حيث ترسو على مقربة منا أحدث سفينة فى الأسطول البحرى التجارى الذى يملكه وارنر . . وكانت السفينة تشحن حمولتها من البضائع المزمع إرسالها إلى انجلترا ، فتحرك قلبى لمرآها ، إذ كانت تلك السفينة — لا إبراهيم وإسحق — ما أود أن أرسمه على جدران بيت وارنر .

قلت : ما كان يصح أن أقوم بعمل تلك الرسوم ، فأنا لا أستطيع أن أنظر إلى الكلب دون أن يقشعر بدنى .

قال كوپلى : لا عليك ، فهذا الكلب من صنع مسز وارنر لا صنعك . . ولست أنكر أنك تعذبت فى رسمه ، وأصبح من حقك أن تنال بعض الراحة . . فلمَ لا تقوم برحلة لصيد السمك ؟

ورحبت بالفكرة بشرط أن يصحبنى .

قال : غير ممكن ، لقد كان الواجب أن أسافر إلى بوسطون من أيام ، ولكنى تأخرت مضطراً ، فاذهب أنت ولا تعد قبل أسبوع ، وإياك أن تدع ضميرك نهبا للعذاب

بسبب كلب مسز وارنر أو إبراهيم وإسحق أو الحصان الذى يمتطيه سير پيبريل . . أنت أحسن حالا من غيرك ، فليس كل من يبدأ حياته بمهمة بغيضة ؛ يتيسر له الأجر السخى الذى يكفيه للسفر إلى لندن .

ورأيت بعين الخيال البزابيث ترمينى بإحدى نظراتها الخلابة ، فقلت : لن أسافر أبدا !

قال باشا : أتظن ذلك ؟ دعنا الآن ، فالمهم أن نذهب للصيد ، وعندما نعود نتحدث فى الموضوع مرة أخرى .

هكذا خرجت مع أخى أوديورن للصيد ومعنا قصابنا وبنادقنا وسلالنا وأغطيتنا ، وحملنا بيلى حاجتنا من الملح والسكر والدقيق والبن ولحم الخنزير وأوانى الطهو ، ثم وضعنا هــذه الأشياء كلها فى قارب هنك ، وأبحرنا إلى أعالى نهر سالمون .

وفى خلال هذا الأسبوع شاءت آلاف الأشياء أن تذكرنى بصديقى هنك : البراعم الحمراء على الفروع الرمادية . . الظلال الخضراء على غصون الصفصاف . . الانسجام العجيب فى أنغام الضفادع الصغيرة وهى تنق معا عند الفجر كأنها سمفونية وضعها أعظم الموسيقيين . . والسحب البيضاء الصغيرة ، والأضواء اللامعة المميزة لجو منطقة ماين فى موسم الربيع . .

زقزقة العصافير على شجيرات التوت ، وصياح القنافذ البرية بالليل ، وهسيس الأسماك عند قَلْيِها فى الدهن . . كان هنك يحب هذه الأشياء كلها ، فظللت طول الوقت أفكر فيه ، وتدفقت الذكريات بقوة فى فكرى ، حتى عجبت كيف أننا نحس أحياناً بأصدقائنا الأموات أكثر حيوية فى نفوسنا مما كانوا فى حياتهم !

ولم تكن ذكرى صديقى هى الصورة الوحيدة التى تطالعنى بها أضواء الربيع الجديد ، وأراها بين لهيب النيران الموقدة بالليل أمام خيمتنا . . فقد كانت هناك أيضاً صورة المرأة التى أعتزم الزواج بها ، وكانت تظهر لى هنا وهناك وفى كل مكان . . ولم يكن الهواء يتحرك مطلقاً ، مع ذلك خيل إلى أننى أسمع صوتها يهمس فى أذنى قائلا : لاتجـــدون ، أيها العزيز .

ولما عدنا بعد نهاية الأسبوع إلى خليج پيسكاتاكوا ، وقد لفحت الشمس وجوهنا ، وشعث الهواء شعورنا ، وامتلأت بطوننا بالسمك . . كان القارب محملا بنصف غزال وخمسة أرطال من الصمغ ، وصندوق ملئ إلى حافته بالأسماك الضخمة . . وعندما اقتربنا من البيت ، رأينا أمى تهرع إلى المرسى وهى تلوح لنا بيدها ، لتستحثنا على الإسراع بالوصول .

قالت حين رسونا بجوارها : كنت أخشى ألا تعودوا فى الوقت المناسب ، فلقد زارنا ضيف لا يمكن أن يطرأ لك على بال . . احدس من هو ؟

ثم أردفت بسرعة ، كأنها تخشى أن أعرف الضيف دون معونتها : الصاغ روجرز !

قلت فى حماسة : أهو هنا ؟ وهل جاء لزيارتكم ؟ ماذا قال ، وماذا فعل ؟

قالت أمى : جاء لرؤيتك ، وكان ذلك منذ خمسة أيام مضت ، ولما أخبرته باحتمال عودتك يوم السبت ، قال إنه سينتظرك يوم السبت فى حانة ستودلى ، ويريد أن تتناول العشاء معه . . ويوم الأحد يسافر إلى كونكورد .

قلت وأنا أقفز إلى الشاطئ : سأغير ثيابى ، وأذهب إليه حالا . . تصورى لو كنت تأخرت ، لفاتتنى رؤيته !

صاح أوديورن يقول : هل أستطيع أن أذهب لرؤية الصاغ روجرز يا أمى؟ هل تأخذنى إلى الصاغ ، يا لانجدون ؟

قلت أعده : ستراه ، ولكن فى يوم آخر .

قالت أمى فى قلق : لا أظن ، فالصاغ روجرز يتمتع بمكانة الملوك ، وأينما يذهب يتجمع الناس حوله ، ويسيرون وراءه : : وقد سمعت أن الجماهير تقف فى انتظاره أمام بيت

آل براون إلى ما بعد منتصف الليل .

قلت فى دهشة : بيت آل براون ؟ أينزل فى ضيافتهم ؟

قالت أمى تدافع عن الفكرة : وما المانع يا لانجدون ؟ إن الصاغ روجرز ماسونى ، وكذلك المبجل آرثر براون . . ورجل الدين أول من يفتح بيته لجندى حارب فى سبيل الله . . فما بالك إذا كان الاثنان ماسونيين ؟

وآمنت فيما بينى وبين نفسى بصدق ما تقول ، ولم يكن هناك داع مطلقاً لشعور الانقباض الذى انتابنى فى تلك اللحظة .

قلت : وهل رأى رسومى ؟ أظنه يغتبط لرؤيتها !

قالت أمى : أظننا اتفقنا على ألا يدخل أحد مرسمك إلا فى وجودك ، ثم إنه لم يبق طويلا ، فقد أتت اليزابيث بصحبته ، وكانت تريد العودة بسرعة لتصفيف شعرها على الطريقة الفرنسية الجديدة ، استعداداً لحضور الوليمة التى أقيمت تكريماً للصاغ . .

قلت فى جمود : أكانت اليزابيث معه ؟ اليزابيث وحدها . . كلاهما فقط ؟

قالت وهى تضع يدها على كتفى . . وأى مانع يا ولدى فى أن يخرج رجل مهذب مثله مع إحدى السيدات ؟ وكيف يكونان وحدهما وآلاف العيون تتبعهما طول الطريق ؟

وغيرت ثيابى بسرعة ، ونظمت هنـــدامى على قدر المستطاع ، ثم خرجت بالقارب أجذف فى ضوء الغسق . . وكنت متوتر الأعصاب ، فشعرت بجفاف فى حلقى ، ولم تطاوعنى ذراعاى على التقدم بالسرعة المنشودة ، فبذلت جهداً مضاعفاً ، وما زلت أحتال على القارب بشتى الوسائل ، حتى وصلت أخيراً إلى مرساة حانة ستودلى ، وقد تقطعت أنفاسى لفرط التعب.

وما إن دخلت الحانة ، حتى سمعت ذلك الصوت الخشن الأجش الذى تعلمت أن أحفظ كل نبرة فيه عن ظهر قلب ، خلال مغامراتنا فى مستنقعات كندا ، وأثناء رحلتنا على العائمة الرهيبة . . ودفعت باب قاعة الشاى ، فإذا به يجلس على رأس مائدة ، وحوله عدد كبير من الرجال ، بعضهم يجلس ، وبعضهم الآخر يقف ، وكلهم ينظر إليــه فى إعجاب وتقدير . وكان وايزمان كلاجيت بين الجالسين وكذلك پاكر عمدة البلد ، ثم آخرون من التجار الذين أعرفهم بالشكل دون الاسم .

وكان روجرز يقول لهم بصوت أجش مرتفع : وهناك عملية صغيرة قد لا تسمعون بها مطلقاً ، وهى استيلائى على حصن سانت ديستريس فى الربيع الماضى . . كانت المراعى

المحيطة به جرداء تماماً ، وسمعنا أن تحصيناته لا يمكن التغلب عليها ، ولكنى كنت مصمماً على دخوله بأى ثمن ، فلقد أراد آمهرست أن نستولى عليه ، وكان على أن أفعل ما يريد . . فانتظرنا فى الغابات ، وانتظرنا طويلا ، حتى بدأوا يضمون حصادهم ، ويرسلونه على عربات خارج البوابة الكبيرة ؛ وبينما الجيـــاد تتوسط البوابة ، هجمنا كالشياطين ، ولما أرادوا إرجاعها إلى الداخل أردينا برصاصنا حصاناً منها ، حتى يتعذر عليهم إغلاق الأبواب .. وهكذا نفذنا إلى الداخل واستولينا على الحصن .

وألقى على الجالسين نظرة ، فلما رأى عيونهم تفيض بالإعجاب ، ضحك فجأة ، ورفع كأسه إلى فمه وأفرغها إلى آخرها . . ودون أن يلتفت نحوى ، هب واقفاً على قدميه ، وأخذ كلتا يدى ، وظل يهزهما مراراً بحرارة عنيفة .

صاح : لانجدون ، يا ولدى ، كنت أخشى أن تعود بعد سفرى فلا أراك . .

وطوق كتفىّ بذراعه الضخمة ، ثم التفت إلى المعجبين به يقول : أظنكم تعرفون هذا السيد المحترم . . لقد ساعدنى فى صنع العائمة وقيادتها إلى القلعة رقم ٤ . . . وصدقونى

أنه لولا لانجدون ما أمكنني أن أعيش لأراكم اليوم . فحينما كاد الجوع يقتلنا ، اصطاد لنا قطاة كبيرة ، وبذلك أنقذ حياتنا . . أنقذها المدة المطلوبة .

وعصر كتفي بقبضته التي تشبه قبضة الدب ، ثم أجلسني على مقعد بجواره ، وقال : ماذا تحب أن تشرب؟

قلت : روم . .

وانزاحت مخاوفي الغامضة ، وأنا أنظر إليه فيما يشبه العبادة ، وقد انعكست عليّ أضواء مجده العظيم .

قال روچرز لستودلي : آتوني بقنينة روم .. ليس في العالم كله روم أفضل مما تصنعون في نيو انجلند .. باستطاعتي أن أشرب جالونا منه .. أقصد جالوناً آخر غير الذي شربته .

وانفجر ضاحكا ، فضحك الآخرون معه .

كان من الواضح أن الجالسين جميعهم ينظرون إليه كأعظم رجل قابلوه في حياتهم .

وكان يشبه النسر في ضخامته وذكائه : ملابسه لم تر پورتسماوث لها مثيلا . . معطفه الأخضر الكبير مصنوع من نسيج مزركش ، وصديريته الصفراء الطويلة من الدمقس الخالص ، ومن أطرافها يتدلى ما لا يقل وزنه عن خمسة

أرطال من « الدنتلة » المذهبة . . كان شعره المصفف يلمع بالدهون ، والروائح العطرية تفوح من رأسه مثلما تفوح من ملابسه .

وكان يبتسم لى فى انشراح ملحوظ ، وظل يشرب نخبي مرارا وتكرارا ، وفى كل مرة يحتسى قدحا كاملا ، ثم لا يلبث أن يملأه من جديد .

قال : كيف حال رسومك ؟

وقبل أن أجيبه ، التفت إلى الجالسين يصفنى بأننى أعظم فنان فى الوجود ، قال : لن تقدروا قيمة الرسم ، حتى تروا ما يصنعه لانجدون تاون .

وجاملونى بنظرات سريعة فارغة ، ثم عادوا يتطلعون إلى روچرز بإجلال وتقدير . . وحرص كلاجيت على أن يكون مهذبا معى ، وكلما التقت عيناه بعينى ، يشيح بنظره إلى الناحية الأخرى فى ارتباك واضح .

وجلست أستمتع بصداقة الرجل العظيم ، وكان يوجه إلىّ أحاديثه كأننى أهم واحد فى الحاضرين ، قال ضاحكا : أتعلم يا لانجدون أننى منذ استوليت على كويبك ومونتريال وكندا كلها ، أصبحت شخصية ذات شأن خطير ؟ أى والله ، شخصية كبيرة !

قلت وأنا أضحك أيضا : ما هذا بجديد ، أيها الصاغ ، فقد كنا دائما نعتبرك عظيما .

قال فى حماسة : ليتك كنت معى ، يا بنى ، حين بعث بنا القائد آمهرست غربا إلى البحيرات الكبرى ، لنستولى على أراضٍ جديدة رائعة ، ونقبل تسليم المواقع الفرنسية .. كنا مائتى متطوع نستقل خمسة عشر زورقاً ترفع العلم الإنجليزى .. ومررنا بتورنتو وشلالات نياجرا وجزيرة بريسلك وبيترزبورج وديترويت . . وقابلنا مئات من الهنود بل آلافا منهم . . شاهدنا أعجب الأماكن : غزلانا فى قطعان لا نهاية لها . . بحيرات تزخر بأحسن أنواع السمك وأشهاها طعماً . .

ولعق شفتيه ، ثم تطلع إلى غرفة الشواء بالحانة التى كانت تفوح منها فى تلك اللحظة رائحة تسيل اللعاب .

قال : هنود فى كل مكان يصطادون الأسماك بحرابهم ، وهنود يصطادونها بشباكهم . . آه لو كنت معى لترى ما لا تعرفه من أمر الهنود .

وصب لنفسه مزيداً من الروم ، واستند إلى المائدة وهو يدق عليها بسبابته الضخمة وقال : أما ديترويت فقد تم تسليمها فى صورة رائعة : حصن يقوم على تل صغير ، ومن فوقه يرفرف العلم الفرنسى ، ومن حوله حقل مغطى

بالحشائش ينحدر إلى بحيرة فى لون المخمل الأزرق . . وأمام الحصن يقف سبعمائة هندى فى أجمل حللهم . أجسادهم مطلية بالأحمر والأزرق والأصفر والأسود والأبيض ، ورءوسهم كلها حليقة . . ثم يهبط العلم الفرنسى عن ساريته ليرتفع مكانه العلم الإنجليزى ، ويخرج الفرنسيون فى زيهم العسكرى الأبيض ، والهنود يقفزون ويصرخون ويصيحون . . كانوا أشبه بلهيب يتحول إلى رجال . .

وأغمضت عينى أتخيل منظر اللهيب وهو يتحول إلى رجال . . وأحسست كأننى أرى اللون الأحمر يلمع مثلما تلمع أوراق الخريف ، وتمنيت لو كان الحظ قد أسعدنى بمشاركته فى تلك الرحلة ، لأرى اللهيب يتحول إلى رجال . . لقد شاهد روجرز هذه المناظر الرائعة ، وأنا حبيس فى بيت آل وارنر أرسم على جدرانه صور إبراهيم وإسحق والكلب الذى يشبه الخنزير ، وسير ويليام پيپريل يمتطى صهوة جواده الممطوط .

واستأنف روجرز حديثه وكلنا آذان صاغية لكل كلمة ينطق بها . . قال : لا ، أيها السادة ، من المستحيل أن تتخيلوا جمال هذه المنطقة حتى تروها بعيونكم . . فأنتم تعيشون على قطعة ضيقة من ساحل البحر لا تزيد عن . . لا تزيد عن . .

وتلفت حوله يبحث عن التشبيه المناسب ، ثم قال : لا تزيد عن شريط مما أحلى به صديريتى . . أنتم لا تعرفون ما وراء هذا الساحل الضيق . . هناك بحيرات كالمحيطات فى سعتها ، وجبال شامخة تمتد آلاف الأميال حتى تتلاشى أشباحها فى الأفق الذهبى . . وعلى طول البحيرات تمتد جروف من معدن النحاس الصلب .

وأخرج من جيب صديريته قطعة صدئة من النحاس فى حجم ثمرة الجوز الكبيرة ، وألقى بها على المائدة وهو يقول : ينابيع تتفجر بالمياه الحلوة ، وعلى سطح الأرض يسيل نفط كثير تستطيعون إذا شئتم أن تشعلوا النار فيه لتطهوا طعامكم . . أنهار طويلة قد تقطع السفن فيها شهوراً قبل أن تصل إلى نهايتها ؛ هناك عظام تخلفت عن حيوانات أضخم حجماً من أن تسعها هذه الحانة . . إنها منطقة عجيبة من العسير أن تروها حتى فى أحلامكم .

وتوقف عن الحديث ومد يده إلى قدحه فوجده فارغاً ، وكذلك كانت القنينة ، حينئذ مسح شفتيه بيده الضخمة وابتسم لى فى تخاذل ، ثم نهض واقفاً ، وقال : معذرة أيها السادة ، لقد دعوت مستر تاون لتناول العشاء معى ، وأظن أن الطعام فى انتظارنا الآن . » إننا زملاء حرب قدامى ، ولدينا أكثر من أمر نتحدث فيه .

وانفجر يضحك فجأة .

وتجمع الموجودون حوله يهزون يده فى حماسة ، وهم يؤكدون له عظيم شرفهم بلقائه .

ولو كان الصاغ روجرز ممن يطربهم الثناء ، شأنه فى ذلك شأن معظم الناس ، فقد نال كفايته فى تلك الليلة ، كما نالها فى أيام وليال كثيرة أخرى .

قال للواقفين حوله : سأعود إليكم بعد العشاء يا سادة ، لنشرب مزيداً من الروم ، ونجعلها ليلة هنيئة . . فقد رأيت أنكم لا تقلون عنى إقبالا عليه . .

وضحك ، وضحك الحاضرون معه ، كأنهم سمعوا أعظم ملحة فى الوجود .

قال وهو يأخذ ذراعى : هيا بنا يا لانجدون .

وبين أنظار الإعجاب المحيطة به قادنى فى تيه إلى ذات الغرفة التى هربت من نافذتها ذات ليلة ، بعد أن طردنى والد الزابيث وأغلق أبواب بيته فى وجهى ؛ ولكن شتان بين تعاستى بالأمس وسعادتى اليوم ! !

وتجمع خدم الحانة حولنا ، وأخذتهم الحماسة فى خدمة الصاغ ، حتى غلبهم الارتباك وجعـــلوا يتحركون بسرعة فيصطدمون بعضهم ببعض .

قال الصاغ لديوك الخادم الزنجى الفاحم السواد : نريد « ربعين » من الجعـــة و « صحنا » مليئا بسرطانات البحر الكبيرة السمينة . . وإياك أن تأتينا بها عجوزاً نحيلة .

وأسرع ستودلى بنفسه إلى المطبخ يهيئ الطاب . .

وأضاف روجرز : وقنينة من الروم . امزجها بنفسك ياديوك ، ولا تبخل عليها بما عندك .

وفى إعجاب بالغ بالصاغ ازدرد ديوك لعابه فى صوت خفيض ، وهرول إلى الخارج ينفذ الأمر .

واستأنف روجرز ما انقطع من حديثه بخروجنا من الغرفة ، وقال : لو كنت حقيقة جاداً فيما حدثتنى به عن رغبتك فى رسم الهنود ، فعليك أن تذهب إلى الغرب ، إذ لن تجد بغيتك هنا ، فكل ما تراه فى الشرق مجرد عبث أطفال ، وما أشبه أهالى نيوانجلند بنمل يسير على عود صغير ويظن أن العالم كله ينحصر فيه .. خذ بنصيحتى وتعال معى إلى الغرب .

قلت : ومتى تذهب ، أيها الصاغ ؟

قال : هذا فى علم ربى. وكل ما أعرفه الآن أننى استدعيت لأكون قريبا من القائد إذا ما احتاج إلىّ ؛ ولكنى عائد فى يوم من الأيام ، فلا تشغل نفسك بالتفكير فى ذلك .. هل سمعت بمكان يسمى مايكيليما كيناك ؟

وأجبت بالنفى .

قال : سوف تسمع به عن قريب . إنه أعظم ما رأيت ، وهو يقع فى شمال ديترويت ويعتبرونه عنق الزجاجة إلى البحيرات الكبرى . مكان لا تعيش فيه بعوضة واحدة ، ولكنه يزخر بصيد البر والبحر ، وكل صغيرة أوكبيرة من بضائع التجار لا بد أن تمر من مايكيليماكيناك ، فما رأيك فى ذلك ؟

قلت : لا بد أنه مكان عامر بالحركة والتجارة .

قال وهو يهز رأسه فى تأكيد العالم بحقائق الأمور : عامر بالحركة والتجارة ! ؟ إنه منجم ذهب ! لا يمكن لعقلك أن يتصور مابه من كنوز . ولقد قابلت هناك زعيما اسمه يونتياك وأراهنك بعشرة دولارات على أنك لم تسمع به ؟

وهززت رأسى نفيا .

قال : وهـــذا دليل على ما ينقصك من المعرفة . إن ذلك الهندى الأحمر أكفأ رجل قابلتـــه فى حياتى . ولولا ما جبل عليه الهنود من التواء التفكير ، لأمكن ليونتياك أن يبزّ يوليوس قيصر أو اسكندر الأكبر ، ولدانت لساطانه هذه القارة كلها . . ولست أدرى أفى استطاعته أن ينظم أتباعه ،

ويجعل منهم قوة يحسب لها حساب .. ربما ! ولكنى أشك فى ذلك .

وأقبل علينا ديوك فى تلك اللحظة بقنينة من الروم وملأ كئوسنا ، فشرب روجرز نصف كأسه دفعة واحدة ، ثم مسح شفتيه ، وقال وهو يرمينى بنظرة العارف بخبايا الأمور : أكبر مشكلة فى الهنود أنك لا تستطيع إخضاعهم للنظام ، فهم كالأطفال يلعبون كما يحلو لهم ، فإذا نهيتهم عن أمر ، يجمعون أدوات لعبهم ويعودون إلى بيوتهم غاضبين .. ولا بأس من أن يقطعوا بعض الرءوس فى طريق عودتهم . ولو أمكن ليونتياك أن ينزع منهم هـذا الطبع الهمجى ، ما وقفت فى طريقه عقبة دون استيلائه على شمال أمريكا كله ؛ وما تأتى لفرنسا وإنجلترا أن تدعيا ملكيتهما لهذه البلاد ، وتتاجرا فيها كأنما العالم بأجمعه قد أعطى لها بحق سماوى.. والله إنه لفى مقدوره أن يطردهم بأسرع مما تسعفهم أقدامهم .

والتمعت عيناه بوميض حمـاسى ، وقال فى لهجة الازدراء : شتان بينهم وبين هنود الشرق التافهين !

قلت : وهل يرتدون أزياء مختلفة ؟

قال ضاحكاً : فى استطاعة يونتياك ، إذا أراد ، أن

يحكم رجالا على بعد آلاف الأميال ، وأن يكون جيشاً من عشرة آلاف هندى . ولقد رأيتهم على أشكال مختلفة : منهم القوى الوسيم ، ومنهم القزم الصغير الذى يعجز عن السير إذا أنزل عن جواده . بعضهم له بشرة بيضاء وشعر طويل يكاد يصل إلى قدميه فيعوقه عن المسير ؛ أما أسماء عشائرهم فلا حصر لها ، وكلها أسماء مضحكة مثـــل « العفنين » و « ذوى الكروش » و « أصحاب الأنوف المثقوبة » .

واسترق روجرز نظرة إلى الخلف كأنه يخشى أن يصل حديثنا إلى الأسماع ، ثم قال : بعضهم يأتى من وراء جبال شاينج فى أقصى الغرب .

ثم خفض صوته ، وقال يهمس فى أذنى : وبعضهم رأى المحيط الغربى ! !

قلت متعجباً : إذا كانوا قد رأوا المحيط الغربىّ ، فهذا يعنى أن . .

وقاطعنى قائلا وهو يتظاهر بعدم المبالاة : لا يعنى شيئاً . . إنه سرٌّ بينى وبينك ، فلا تذكره لأحد على الإطلاق . لقد حدثتك به لما أعرفه من رغبتك فى رسم الهنود ، ولأنى بصراحة قد أحتاج لبعض رسومك فى وقت ما .

ورمانى بنظرة تحذير من عينيه الجاحظتين ، إذ كان

ستودلى وديوك وكنج وبرنس قد أقبلوا علينا بالجعة والخبز والزبد وسرطانات البحر المشوية .

قال روجرز لستودلى : أبق على الروم دافئاً ، حتى ننتهى من طعامنا .

وأقبلنا على سرطانات البحر نلتهمها كالذئاب .

وبعد أن أجهزنا على قدر منها ، سألت روجرز عما أتى به إلى بورتسماوث .

قال فى اشمئزاز : لقد جئت فى محنة أشق من حملة سانت فرانسس . إنى أحاول الحصول على الأجر الذى كان يجب أن أتقاضاه منذ خمس سنوات . . إذا أردت نصيباً من المتاعب ، فما عليك إلا أن تقوم بخدمة جليلة لبلادك . . وبقدر ما تحسن أداءها ، تلقى مزيداً من الجحود .

قلت : ولماذا لا يعطونك أجرك ؟ أهناك من يشكو منك أو يعترض على عمل أتيته ؟

قال : لا ، ولكنها اللجنة التشريعية تتصرف دائما على هذا النحو . . تبعثر النقود فيما لا يستحق الذكر ، ولا تدفع شيئا من التزاماتها المشروعة . . فولاية ماساشوستس تزعم أننى كنت أحارب لحساب التاج لا لحسابها ، وولاية نيو هامبشاير تسير على منوالها ، ولكن حكومة صاحب الجلالة

تؤكد أنني كنت أحارب لمصلحة هاتين الولايتين . . كل ما أعرفه أنني كنت أحارب وهؤلاء المشرعون يتمتعون بالدفء فى أسرتهم . .هذه حقيقة لا تقبل الشك .

ورفع ذراعه أمامى وكشف عن أثر الرصاصة الذى رأيته كالنجمة الحمراء يوم وقفنا عند مصب الأمونو أوزاك تحت وابل المطر المنهمر .

قال : لم يكن أعضاء المجلس التشريعى معى يوم أصبت بهذا الجرح . . كانوا راضين بأن أقوم عنهم بواجب القتال ؛ ولما زال الخطر ، تركونى غارقا فى ديون تزيد على ثمانمائة جنيه ، فضلا عن ست وثلاثين قضية يطالب فيها الضباط وأهالى القتلى منهم بحقوقهم المشروعة ، وبما أنى كنت قائدهم فالمسئولية تقع على عاتقى . ثمانمائة جنيه ، لن أحصل عليها . . إنها دين شريف ، ولكن هؤلاء المشرعين القذرين جُبلوا على إنكار الديون الشريفة . ولعل الجنود أكثر من هضمت حقوقهم على هذا النحو ،وستظل حقوقهم مهضومة دائما ، وكان من الغباء أن أنتظر من المسئولين معاملة استثنائية .

قلت مرتاعا لفداحة المبلغ الذى ذكره : ومتى تعرف النتيجة ؟

قال باستهانة : فى شهر يونية . . سأكون مضطرا إلى الوقوف بنفسى أمام المجلس التشريعى لمقاطعة نيو هامبشاير . إن معى القوائم المطلوبة ، وكذلك رسالة توصية من القائد آمهرست ، ولكنى لن أحصل على المال . . فقبل هذا التاريخ ستكون القضايا قد تراكمت فوقى بما يكفينى إلى نهاية عمرى . على أى حال ، لن أعرف النتيجة قبل يونيه .

ويبدو أن كلمة شهر يونيه ذكرته بأمر ما ، إذ قال : أما زلت تحتفظ ببيلى سليما معافًى ؟

قلت إنه بخير ، ولقد كان فتى ممتازاً استفدنا به كثيراً ، واننا علمناه القراءة والكتابة ، ونرجو أن نخلق منه مواطنا صالحا .

قال روجرز : إننى على استعداد لاسترداده ، ولكنى مسافر غداً إلى كونكورد ، ولن أعود قبل أسبوع ، فما رأيك أن تبعث به إلىّ عند عودتى ؟

وصدمت بقراره هذا ، إذ كان بيلى قد أصبح عضواً فى أسرتنا ، ولم يكن يفترق عن أوديورن لحظة واحدة ، كل منهما يعلم الآخر أمراً جديداً ، وكنت قد أبعدت عن ذهنى احتمال فراق الصبى .. فتأنيت فى الرد على كلامه .

قلت ببطء : نعم . ولكن فراقه يؤلمنى كثيراً ، فهو نموذج

طيب لرسومى،وأخى مولع به ، وقد أفلح فى إشعال جذوة ذكائه . ولو استمر بيلى فى طريقه هذا ، لأمكنه أن يصبح إنساناً مفيداً .

ونظرت إليه لعله يكون قد اقتنع بكلامى ، ولكنه تشاغل عما أقول بتحطيم أرجل سرطان البحر ، واستخراج لحمها بطرف سكينه .

ولم أشأ أن أستسلم لليأس ، فقلت : لقد قمت برسم جدران بيت وارنر ، وأنا فى انتظار أجر طيب ، ويسرنى أن أشترى بيلى منك بالسعر الذى تطلبه . وإذا لم تكف نقود آل وارنر أسدد لك الباقى صوراً ، وأعتقد أننى أستطيع أن أعطيك من رسومى ما يرضيك .

وهز روجرز رأسه وقال فى رنة الاعتذار : هذا مؤسف للغاية . ما كنت أنتظر أن تتعلق بالصبى إلى هذا الحد ؟ والحقيقة أنى وعدت به الآنسة اليزابيث براون ، فقد طلبته منى .

وغاص قلبى بين جنبىّ ، وقلت : أنت ! أنت تعطيه لاليزابيث ؟

ورن صوتى فى مسامعى عالياً ، وخيل إلى كأن الغرفة قد تحولت إلى فضاء يردد صدى كلماتى : . فضاء يضمنا

نحن الاثنين : روچرز وهو يلوك لحم سرطان البحر فى نهم ، وأنا وقد دوّخنى التوجس .

قال وهو يضحك عالياً : نعم ، أعطيتها إياه . وإليك السر فى ذلك ، فبيلى هدية الزواج .

وظننت لأول وهلة أن اليزابيث كاشفته بنيتنا على الزواج ، وكان الأمر مفهوماً ، وإن لم نكن قد تكلمنا فيه بصراحة . وخيل إلى أنها طريقة لبقة أراد بها أن يرضينى ويرضيها ؛ ولكنى لم ألبث أن تبينت خطئى .

قال وهو يضحك عاليا : إنى أسميه سرّا ، وإن كان آل براون وجيرانهم وأقاربهم يتحدثون به فى كل مكان ، فناولنى هذه القنينة التى لم نأت عليها بعد ، يا لانجدون ، ولا بأس من أن تشرب نخبى ونخب حبيبتى بتسى . أنت أدرى منى بظرفها يا بنى ، ولقد حدثتنى أنك أعز صديق لها فى هذه الجيرة .. نعم يا سيدى ، لقد حدثتنى عنك كثيراً .

ثم ضرب كتفى بيده الضخمة وأردف : وهى تؤكد أن صورتى التى أعطيتها إياها ، كانت فى الواقع أول سبب فى حبها لى .

قلت : وأنا أجد صعوبة فى النطق : حبها لك ! إذن أنت واليزابيث ..

صاح فرحا : نعم يا سـيدى .. اعتبرنى رجلا منتهيا يا لانجدون . ما كدت ألقى نظرة على عينيها الساحرتين ، حتى انتهى كل شىء . لقد اتفقنا على الزواج فى نهاية شهر يونيه ..

ثم ضرب على المائدة بيده ، وصاح يقول : إلينا يا ستودلى ، واملأ القنينة بالروم ، وإياك أن تبخل علينا بما عندك .. ستكون اشبينى فى الزواج يا لانجدون .. أليس كذلك ؟

وملأت قدحى ، ثم وقفت لأشرب نخبه أنا والبزابيث .

قلت : لا ، لن أستطيع ذلك أيها الصاغ . لن أكون اشبينك يوم زواجك ، فقبل نهاية شهر يونيه أكون عبر المحيط ، فى طريقى إلى حيث أتعلم المزيد من فنى . فاقبل تهانئى الآن . وفى حفظ الله أنت والبزابيث .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر



هـــذا الـكتاب

تعد قصـة « الممر الشمالى الغربى » من أروع الأعمـال الأدبيـة العالمية وقد ترجمت إلى جميع لغات العالم وعلق عليها جميع النقـاد ، وأجمعوا على أنهـا تستطيع أن تقف أمام أى عمل أدبى كبير فى العصر الحديث وعنـدما صدرت لأول مرة تلقفتهـا شركات السـينما وعرضت مبالغ طـائلة على مؤلفهـــا كنيث روبرتس لانتاجهـا على الشاشة وأخيراً أخرجتها شركة مترو جولدوين ماير وقام بالدور الأول فيها الممثل الـكبير « سبنسر تراسى » فقال « أدت رواية الممر الشمالى الغربى أكبر فضـل فى حياتى فان دورى فيهـا كان من أحسن أدوارى الفنيـــة » وعرضت رواية « الممر الشمالى الغربى » فى جميـــع دور السينما بالعالم ، وفى القاهرة استمر عرضها ستة أسابيع كاملة ، وكانت فيلم الموسم .. والقصة صراع بين فنانـــ والمتاعب ، تحداه القدر ففرش طريقه ـــ طريق السلام وطريق الحرب ـــ بالمتـاعب ، ولـكنه عرف كيف يواجهها وكيف ينتصر عليها .

وقد اختارت الـكاتبة المصرية المعروفة السيدة أمينة السعيد هذه القصة بالذات لترجمتها من بين عشرات القصص التى عرضت عليها .

